الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٤)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٠ ـ ١٤١٦هـ

الجزء السابع عشر

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لابي شامة

الجزء الأول

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة اكثر من مرة الى كتاب الروضتين وذيله لآبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسي [٥٩٩ - ٥ ٦٦هـ / ١٢٠٢ــ ١٢٦٧م] على انه أوفى مصدر عربي تحدث باسهاب عن أحداث الحروب الصليبية ، فهو قد نهل مادة جزئية الآساسيين من مصادر الذين تقدموه، واحسن النهل والاختيار واستوفى الروايات ، وأبدى رأيه في ترجيح بعضها على بعض أحيانا ، أما في الذيل فهو المصدر ، وهو شاهد عيان معاصر لكل ما سجله، وهنا تجلت أصالته وتفوقه على غيره من المؤرخين، وبذلك بات مصدر الجميع الدين جاءوا من بعده. .

لقد أكثر أبو شامة من الاشارة الى نفسه واسرته واحواله في الذيل كما ترجم لنفسه، لهذا لن أعرف بهذه التوطئة به وبحياته.

لاشك أن أبا شامة مؤرخ عملاق، كان صاحب أحاسيس مرهفة، ولكم يتمنى المرء لو دفعه فضوله التاريخي وحبه للمعرفة نحو التوغل الى صفوف الفرنجة لوصف أصولهم ودوافعهم ونظمهم وما جبلوا عليه من عادات وتقاليد.

لعله لم يفعل ذلك لأنه كان يؤرخ لدولتين مسلمتين وليس لأعدائهما لكن أو ليس من شروط التغلب على العدو معرفته بالعمق من جميع الجوانب ؟ ومع صحة هذه المسلمة يبدو أن المسلمين جميعا حتى رجال السلطة منهم اهتموا برصد حركات العدو الصليبي عسكريا وسياسيا ،

ولم يـأبهوا بها رسا وراء ذلـك، كـان همهم تحريـر الأرض مـن هذا العـدو وردعه ، وكـف عاديته والخلاص منـه ،فقد ظـل الفرنجة طـوال قرنين في نظر المسلمين كفارا وأعداء، ومعرفة هذا كافيـة، ولئن اهتم الفرنج بتاريخ المسلمين وأحـوالهم ، فانهم فعلـوا ذلك لكـونهم غزاة أراداوا العيـش على الأرض التي انتزعوهـا ، وسعوا الى تدبر وسائل الحياة في أوسـاط عدوانية من كل جـانب ، كما استهدفوا حيـازة المزيد من الأرض ، فعدوانيـة وليم الصـوري جعلته أول المستعـربين إن لم نقـل المستشرقين ، لكن العـرب لم يكـونـوا عـدوانيين ،يضـاف الى هذا ان المؤرخ العـربي ظـل على قـاعـدة الأوائل يؤرخ للملوك والـدول ، ويكتب لا لنشر المعرفة بين النـاس ، بل تلبية لطلب أحـد رجال السلطة، وظل رجال السلطة جنـدا أحاسيسهم الحضاريـة فقيرة ، وفهمهم للثقـافة العربيـة سطحي جدا، فـزين الـدين صاحـب إربل وسواها عنـدما جاءه حيص بيـص ليمدحه ، قال لـه لن أفهم عليـك شيئا مما ستقـوله ، لكن أعـرف أنك تحتـاج عوني ، فأمـر له بمبلغ مـن المال، وصلاح الـدين أمر ببيـع خزانـة الكتب العظيمـة التي وجـدهـا في قصور الفـاطميين بـالقـاهـرة ، لكنـه احتفظ بـا لمجـوهـرات والذخائر لنفسه ولآله.

الانتصارات في حطين وسواها جعلت من بعـض رجال الجند والمرتزقة والعبيـد أبطـالا ، لكن لا بـد مـن التمييـز بين البطل العسكـري وبطـل اشـادة الحضارة العـربية، والحفـاظ عليهـا، ولابد مـن التذكير أن رجـال الفكر سـايروا مشاعـر الحكام وماشـوا رغباتهم ، ودونـوا ماكان يـرضيهم ويفقهوه، فهم هنا كانوا على دين ملوكهم .

بفضل التفـوق الحضاري العـربي جاء النصر في حطين ، وحين بـدد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ثمار حطين السياسية والعسكرية ، ظل التفوق الحضاري يهيء الفرصة لمتابعة التحرير وطرد الغزاة وهذا ما كان ، وعليه يتـوجب على الباحث في تـاريخ الحروب الصليبية وتاريـخ الاسلام

بشكل عام ألا تصمه قعقعة الحديد ، عن سماع أصوات بناة الحضارة ، وألا يعمي غبار المعارك ناظرية عن رؤية عمق المؤثرات الحضارية وألا تدفعه عاطفة النصر العسكري الى عدم التوازن في تقرير حقائق الأمور

هذه والحق اشكالية كبرى تحتاج الى البحث المعمق ، ولعله يكفي هنا اثارتها فالسؤال يشكل نصف المعرفة، والشك هو الطريق نحو اليقين والايمان.

أنا على دراية أن رجال السلطة الأيوبية بنوا المدارس ، لكن جل هذه المدارس جاءت بمثابة ترب لهم، وكانت دينية ضيقة المجالات ، تعتمد على دراسة نصوص مكررة لهذا جاء نتاج رجالها إما اختصارات أو شروح، وكادت جوانب الابداع أن تختفي ، ذلك أن الحضارة العربية جاءت وليدة لحلقات العلماء، ومقارعة الحجة بالحجة في أجواء من الحرية والالتزام الخلقي، لكن المدرسة لم توفر هذه الشروط ، بل جعلت من العمل العلمي عملا دينيا ضيقا متوارثا ، وتوافق هذا مع تنامي عقلية التصوف الطقوسية ، فالتصوف الان لم يعد اعمال زهد وتفكر ، بل حلقات ذكر وسماع وطعام ، وعيش رغيد داخل الزاوية بدون عمل منتج.

انها المرة الأولى التي يطبع بها كتاب الروضتين مع ذيله بشكل علمي محقق ، وقد اعتمدت في عملي على مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، وهي فيما اعلمه أفضل مخطوطات هذا الكتاب ، وكان أبو شامة قد قسم الروضتين الى جزئين ، لكن لكبر حجم كل جزء أعدت النظر بالتقسيم فجعلته ثلاثة أجزاء ، يغطي الأول منها أخبار الأحداث حتى وفاة أسد الدين شيركوه وتسلم صلاح الدين لوزارة القاهرة ، ويروى الثاني أخبار نشاطات صلاح الدين حتى تمكنه من الانفراد بالسلطة في الشام ومصر

وبعض أجزاء الجزيرة ، ويتحدث الثالث عن بقية اللاأحداث حتى بعيد وفاته.

ان بعض مصادر الروضتين قد توفر لنا ، وما توفر أقدمت على نشره داخل موسوعتنا ، لكن هناك مصادر كثيرة هامة عاد اليها أبو شامة تعد بحكم المفقود لا سيما ما كتبه ابن أبي طي الحلبي مع العديد من الوثائق الهامة.

من الله ارجو التوفيق والعون وله خالص الحمد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ / ٢ / ١٤١٦هـ - ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف الشيخ الرحلة المحدث المفنن فريد عصره ووحيد دهره
شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي
الشافعي
تغمده الله برحمته وغفرانه

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال،وبكرمه وجوده تدرك الآمال،وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال،وبارادته تتغير الأحوال،وإليه المصير والمرجع والمآل،سبحانه هو الباقي بلازوال،المنزه عن الحلول والانتقال،(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)[1]،ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال،نحمده على ماأسبغ من الانعام والافضال، ومن به من الاحسان والنوال، حمداً لاتوازيه الجبال،مل ء السموات والأرض وعلى كل حال،ونصلي على رسوله ونبيه،وخيرته من خلقه

وصفيه،وخليلـه ووليه،وحبيبه المفضـال،سيدناأبي القـاسم محمد بـن عبد اللـه ذي الشرف البـاذخ،والفضـل الشـامـخ،والعلـم الـراسـخ،والجمال والكمال،صلى الله عليه وعلى الملائكـة المقربين،والأنبياء المرسلين،وعترتهم الطيبين،ما أفل كـوكب وطلع هلال،وعلى آل محمـد وصحبه خير صحب وأكـرم آل،وعلى تـابعيهم بـاحسـان وجميـع الأوليـاء والأبدال،وعفـا عـن المقصريـن مـن أمتـه أولي الكسـل والملال،وحشرنـا في زمـرتـه،متمسكين بشريعتـه،مقتديـن بسنتـه،متعظين بها ضرب مـن الأمثال، مـزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه(يوم لابيع فيه ولا خلال).(٢)

أما بعـد:فإنـه بعد أن صرفـت جل عمـري،ومعظم فكـري،في اقتباس الفـوائد الشرعيـة،واقتنـاص الفـرائد الادبيـة،عـنّ لي أن أصرف إلى علـم التـاريـخ بعضه،فـأحـوز بـذلك سنـة العلـم وفـرضه،اقتـداء بسيرة مـن مضـى،من كـل عالم مـرتضى،فقـل إمام مـن الأئمة إلاّويحكـي عنه مـن أخبار من سلف فـوائد جمة،منهم إمامنا أبو عبد اللـه الشافعي رضي الله عنـه ،قـال مصعـب الـزبيري:مـارأيت أحـداً أعلـم بـأيـام النـاس مـن الشـافعي،ويـروي عنه أنـه اقـام على تعلم أيـام الناس والأدب عشريـن سنة،وقال:ماأردت بذلك الاستعانة على الفقه.

قلت:وذلك عظيـم الفائدة،جليل العائدة،وفي كتاب الله وسنـة رسوله صلى الله عليـه وسلم من أخبـار الأمـم السالفـة،وأنباء القرون الخالفـة،ما فيـه عبر لذوي البصـائر،واستعداد لـ(يوم تبلى السرائر)(٣)،قـال الله عـز وجل وهو أصـدق القائلين:(وكلا نقص عليـك من أنباء الرسـل مانثبت بـه فـؤادك وجـاءك في هـذه الحق ومـوعظـة وذكـرى للمـؤمنين) (٤) وقال:سبحـانه وتعـالى:(ولقد جـاءهم من الأنبـاء ما فيـه مزدجر• حكمة بالغة فما تغن النذر)(٥)،وحدث النبي صلى اللّه عليه وسلم في حديث أم ذرع (٦)وغيره مما جـرى في الجاهلية، والأيام الاسرائيلية، وحكـى عجائب مـا رآه ليلـة أسري بـه وعـرج، وقـال: «حـدثـوا عـن بنـي اسرائيـل ولا

حرج»[٧]،وفي صحيح مسلم عن سماك بن حرب «قال:قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى اللّه عليه وسلم؟قال:نعم كثيرا،كان لايقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس،فإذا طلعت قام وكانوا يتحدثون،فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم»[٨]،وفي سنن أبي داود عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال:«كان نبي اللّه صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني اسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاة»[٩]

قلت :ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى،ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى،ويستنشدون الاشعار،ويتطلبون الآثار والاخبار،وذلك بيّن من أفعالهم،لمن اطلع على أحوالهم،وهم السادة القدوة،فلنا بهم أسوة،فاعتنيت بذلك وتصفحته،وبحثت عنه مدة وتطلبته،فوقفت والحمد للّه على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين،من الأنبياء والمرسلين،والصحابة والتابعين،والخلفاء والسلاطين،والفقهاء والمحدثين،والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين،وأصناف الخلق الباقين،ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين،كأنه قد عاصرهم أجمعين،وأنه عندما يفكر في أحوالهم ويذكرهم،كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم،فهو قائم له مقام طول الحياة،وان كان متعجل الوفاة.

قال نعيم بن حماد:كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته،فقيل له:ألا تستوحش؟فقال:كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه،وفي رواية قال:قيل لابن المبارك:ياأبا عبد الرحمن تكثر القعود في البيت وحدك؟فقال:أنا وحدي،أنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه،يعني النظر في الحديث. وفي رواية أخرى:وأنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

قلت:وقد أنشدت لبعض الفضلاء:

كتـــاب اطـــالعـــه مـــؤنـــس
أحـــب إلي مـــــن الآنســـــة
وأدرســـــه فيرينـــــي القـــرو
ن حضـــورا وأعظمهـــم دارســـه

وقد اختار الله سبحـانه لنا أن نكون آخر الأمم،وأطلعنـا على أنباء من تقدم لنتعظ بها جرى على القرون الخاليـه،وتعيها أذن واعيه،(فهل ترى لهم من باقيه)(١٠)ولنقتدي بمن تقـدمنا من الأنبياء،والائمة الصلحـاء،ونرجو بتوفيـق الله عز وجـل أن نجتمع بمن يـدخل الجنـة منهم،ونذاكـرهم بها نقل إلينا عنهم،وذلك على رغم أنـف من عدم الادب،ولم يكن له في هذا العلم أرب،بل أقام على غيه وأكب،والمرء مع من أحب٠

هـذا وإن الجاهـل بعلم التـاريـخ راكـب ظهـر عميـاء،خابـط خبـط عشواء،ينسب إلى من تقـدم أخبار من تأخر،ويعكس ذلـك ولايتدبر،وإن رد عليـه وهمه لايتـأثر،وإن ذكـر فلجهلـه لايتـذكر،لايفـرق بين صحـابي وتـابعـي،وحنفـي ومـالكـي وشـافعـي،ولابين خليفـة وأمير،وسلطـان ووزيـر،ولايعرف مـن سيرة نبيه صلى الله عليه وسلـم أكثر مـن أنه نبـي مرسـل،فكيف له بمعرفـة أصحابه وذلك الصـدر الأول ،الذين بذكـرهم ترتاح النفوس،ويذهب البؤس٠

ولقد رأيت مجلسا،جمع فيه ثلاثة عشر مدرساً،وفيهم قاضي قضاة ذلك الـزمان،وغيره مـن الأعيان،فجـرى بينهم وأنـا أسمع ذكـر من تحرم عليـه الصدقة،وهـم ذوو القربى المذكورون في القـرآن،فقال:جميعهم بنو هـاشم وبنـو عبـد المطلب،وعـدلـوا بـأجمعهـم في ذلك عما يجب،فتعجبـت مـن جهلهـم حيـث لم يفـرقـوا بين عبـد المطلـب والمطلـب،ولم يهتـدوا إلى أن المطلب هو عم عبـد المطلب،وأن عبد المطلب هو ابن هـاشم،فما أحقهم بلـوم كل لائم،إذ هـذا أصل مـن أصول الشريعـة قد أهملـوه،وباب مـن

أبواب العلم جهلوه،ولزم من قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة،فابتغيت إلى اللّه تعالى الوسيلة،وأنفت لنفسي من ذلك المقام،فأخذتهابعلم أخبار الأنام،وتصحيح نسبتها،وايضاح محجتها،فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها،وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها،وهو باب واسع غزير الفوائد،صعب المصادر والموارد،زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار،ورواة الآثار٠

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتابا يكون حاوياً لما حصلته،وأتقن فيه ما خبرته،فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين،وهو تاريخ مدينة دمشق،حماها اللّه عز وجل، الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه اللّه،وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدا فاختصرته وهذبته(١١)وزدته فوائد من كتب أخر جليلة وأتقنته،ووقف عليه العلماء،وسمعه الشيوخ والفضلاء٠

ومرّبي فيه من الملوك المتأخرين،ترجمة الملك العادل نور الدين،فأطربني ما رأيت من آثاره،وسمعت من أخباره،مع تأخر زمانه،وتغير خلانه،ثم وقفت بعدذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين،كالعمرين رضي اللّه عنهما في المتقدمين،فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد،واجتهد في اعزاز دين الله أي اجتهاد،وهما ملكا بلدتنا،وسلطانا خطتنا،خصنا اللّه تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما،فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف،يتضمن التقريظ لهما والتعريف،فلعله يقف عليه من الملوك،من يسلك في ولايته ذلك السلوك،فلا يبعد أنهما حجة من اللّه على الملوك المتأخرين،وذكرى منه سبحانه(فإن الذكرى تنفع المؤمنين)(١٢)فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين،ومن حذا حذوهم من

الأئمة السابقين،ويقولون:نحن في الزمن الأخير،وما لأولئك من نظير،فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم،من بعض ملوك دهرهم،فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد،إن وفق الّله الكريم وسدد،وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الّله،وكان أحد السادة الاكابر في الحفظ والدين،قال:إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الّله على هذا الخلق،يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان ألا اقتديتم به،وهكذا أقول:هذان الملكان حجة على المتأخرين،من الملوك والسلاطين،فلّله درّهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة،وجميل السريرة،وهما حنفي وشافعي،شفى الّله بهما كل عيّ،وظهرت بهما من خالقهما العناية،فتقاربا حتى في العمر ومدّة الولاية،وهذه نكتة قلّ من تفطن لهاونبه عليها،ولطيفة هداني الّله بتوفيقه إليها،وذلك أن نور الدين رحمه الّله ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة،وتوفي سنة تسع وستين،وولد صلاح الدين رحمه الّله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين[١٣]،فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى،وكلاهما لم يستكمل ستين سنة،فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين،وملكها صلاح الدين سنة سبعين،فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة،وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة،تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة،وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتيهما،والفضل للمتقدم،فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله،والارشاد إلى عظم محله،فإنه أصل ذلك الخير كله،مهد الأمور بعدله وجهاده،وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق،واتساع الخرق،وفتح من البلاد،ما استعين به على مداومة الجهاد،فهان على من بعده على الحقيقة،سلوك تلك الطريقة،لكن صلاح الدين أكثر

جهاداً،وأعـم بلاداً،صبر وصـابر،ورابـط وثابـر،وذخر اللـه له مـن الفتوح أنفسـه،وهـو فتـح الأرض المقـدسـة،فـرضي اللـه عنهما فما أحقهما بقـول الشاعر:

كـــم تـــرك الأول لـــلآخـــر
وألبـــس اللّـــه هـــاتيـــك العظـــام وإن
بلين الثـــرى عفـــواً وغفـــرانـــا
سقـــى ثـــرى أودعـــوه رحمة مـــلأت
مثـــوى قبـــورهـــم روحـــاً وريحانـــا

وقـد سبقنـي إلى تـدويـن مـآثـرهما جماعـة مـن العلماء،والأكـابـر الفضلاء،فـذكر الحافـظ الثقة أبو القـاسم علي بـن الحسن الـدمشقي في تـاريخه ترجمة حسنـة لنور الـدين محمـود بن زنكـي رحمه اللّه،ولأجلـه تم ذلك الكتاب وذكـر اسمه في خطبته،وذكر الرئيس أبـو يعلى حمزة بن أسد التميمي في مذيـل التاريـخ الدمشقـي قطعـة صالحة مـن أوائل الدولـة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة،وصنف الشيخ الفـاضل عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكـريم الجزري،عرف بابن الأثير مجلدة في الأيـام الأتابكيـة،كلهـا وما جـرى فيهـا وفيه شيء مـن أخبـار الدولـة الصلاحية لتعلـق إحدى الدولتين بالأخـرى،لكونها متفرعة عنهـا،وصنف القاضي بهاء الدين أبـو المحاسن يوسف بن رافـع بن تميم الموصلي،عرف بابـن شدّاد،قاضي حلـب مجلدة في الأيام الصـلاحية،وساق مـاتيسر فيها مـن الفتـوح،واستفتـح كتـابـه بشرح منـاقـب صـلاح الـديـن رحمه اللّـه تعالى،وصنف الإمام العـالم عماد الدين الكاتب،أبو حامـد محمد بن محمد ابن حـامد الأصفهاني كتـابين كلاهما مسجـوع متقن بالألفـاظ الفصيحة والمعاني الصحيحـة،أحدهما الفتح القـدسي اقتصر فيه على فتـوح صلاح الـديـن وسيرتـه،فاستفتحـه بسنـة ثـلاث وثمانين وخمسمائة،والثـاني البرق الشامـي ذكر فيه الوقـائع والحوادث من الغزوات والفتوحـات وغيرهما مما وقـع من سنـة وروده دمشق وهـي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفـاة

صلاح الدين،وهي سنة تسع وثمانين،فاشتمل على قطعة كبيرة من أواخر أخبار الدولة النورية،إلا أن العماد في كتابه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه،ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه،فحذفت تلك الاسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها،ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه من أخبار فتح البيت المقدس شرفه اللّه تعالى،وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية إلى الملال،وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام، واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال،وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة،ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية،مماذكره في ديوانه دون دقة من كتب أخرى من دواوين وغيرها،فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحديهما،وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير،أو أمير كبير،أو ذي قدر خطير،وغير ذلك،فجاء مجموعاً لطيفاً،وكتاباً ظريفاً،يصلح لمطالعة الملوك والأكابر،من ذوي المآثر والمفاخر،وسميته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ولّله در حبيب بن أوس حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام(١٤)

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين أتابك،وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي،ويلقب زنكي أيضا بلقب والده قسيم الدولة،ويقال لنور الدين ابن القسيم،وسنتكلم على أخبار اسلافه عند بسط أوصافه،وقدّمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله،ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة،وأن جدّه آق سنقر ولي حلب وغيرها

من بـلاد الشام،ونشـأ أبوه زنكـي بالعـراق ثم ولي ديـار الموصل والبـلاد الشامية، وظهرت كفـايته في مقابلة العدو عند نزولـه على شيزر،حتى رجع خـائبـا، وفتـح الـرهـا والمعـرّة وكفـر طـاب وغيرهمامـن الحصـون الشامية،واستنقذها من أيدي الكفار،فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامـه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة،ثـم قصد نور الديـن حلب فملكها،وخرج غـازيا في أعمال تل باشر،فـافتتح حصونا كثيرة مـن جملتها قلعة عـزاز ومرعش وتل خـالد،وكسر ابرنـس أنطاكية وقتله وثـلاثة آلاف أفـرنجي معـه، وأظهـر بحلـب السنة وغير البـدعـة التـي كانـت لهم في التـأذين،وقمـع بها الـرافضة وبنـى بها المدارس ،ووقـف الأوقاف،وأظهـر العدل،وحـاصر دمشق مرتين،وفتحهـا في الثالثـة،فضبط أمورهـا،وحصن سورها،وبنـى بها المدارس والمساجد وأصلح طـرقها،ووسع أسواقهـا،ومنع مـن أخذ مـا كان يـؤخـذ منهم مـن المغـارم بدار البطيـخ وسوق الغنـم والكيـالـة وغيرهـا،وعـاقـب على شرب الخمـر،واستنقـذ مـن العـدو ثغـر بانياس،والمنيطرة وغيرها .

وكـان في الحرب ثـابت القـدم وحسـن الـرمي،صليـب الضرب يقـدم أصحـابه ويتعـرض للشهـادة وكان يسـأل اللّـه تعالى أن يحشره في بطـون السبـاع وحواصـل الطير ،ووقـف رحمه الله وقـوفـا على المرضى ومعلمـي الخط والقـرآن،وسـاكنـي الحرمين،وأقطـع أمــراء العـرب لئـلا يتعـرضـوا للحجاج،وأمـر باكمال سـور المدينة واستخـراج العين التي بـأحد ،وبنـى الربـط والجسور والخانـات ،وجدّد كثيرا من قنـى السبيل ،وكـذا صنع في غير دمشـق من البـلاد التـي ملكهـا،ووقف كتبـا كثيرة،وحصـل في أسره جماعـة من أمـراء الفرنـج،وكسر الروم والفـرنج على حـارم ،وكان عـدّتهم ثـلاثين ألفا،ثـم فتـح حارم،وأخـذ أكثر قـرى أنطـاكية،ثـم فتـح الديـار المصرية،وكان العـدو قد أشرف على أخذها،ثم أظهـر بها السنة وانقمعت البدعـة،وكان حسـن الخط،كثير المطالعـة للكتب الـدينية،متبعـا للآثـار النبـوية،مـواظبـا على الصلوات في الجماعـات عـاكفـاً على تلاوة القـرآن،

حريصا على فعل الخير،عفيف البطن والفرج،مقتصداً في الانفاق،متحريا في المطاعم والملابس،لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره،وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها،أو ارشاد إلى سنة يتبعها •

وقال أبو الحسن بن الأثير :قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا،فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين،ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه،قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره،وجهاد يتجهز له،ومظلمة يزيلها،وعبادة يقوم بها،وإحسان يوليه،وإنعام يسديه،ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه،فلو كان في أمة لافتخرت به،فكيف ببيت واحد•

أما زهده وعبادته وعلمه،فإنه كان مع سعة ملكه،وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لايأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة،ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين،أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله،ولم يتعده إلى غيره ألبتة،ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة،ومنع من شرب الخمر،وبيعها في جميع بلاده،ومن إدخالها إلى بلد ما،وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء•

حدثني صديق لنا في دمشق،كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال:كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لاتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال،أو في مطالعة كتاب أتاه،ويجيب عنهما، وكان يصلي فيطيل الصلاة،وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء

ونام يستيقظ نصف الليل،ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر الركوب،ويشتغل بمهام الدولة.

قال:وإنها قلت عليها النفقة،ولم يكفها ما كان قرّره لها فأرسلتني إليه اطلب منه زيادة في وظيفتها،فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه،ثم قال:من أين أعطيها أما يكفيها مالها،واللّه لاأخوض نار جهنم في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي،فبئس الظن،إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها،فلا أخونهم فيها.

ثم قال:لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها،قال:وكان يحصل منها قدر قليل.

قال ابن الأثير:وكان رحمه الله لايفعل فعلا إلا بنية حسنة،كان بالجزيرة رجل من الرجال الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس،وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله،ويعتقد فيه اعتقادا حسناً فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة،فكتب إليه يقول:ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية،فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول:والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر،وإنما نحن في ثغر،العدو قريب منا،وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب،ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لابد من الراحة للجند،ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب،ولامعرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب،فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة.

قال ابن الاثير:فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير،الذي يقل في

أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله،فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة،حتى يصير من أعظم العبادات،وأكبر القربات يقل في العالم مثله،وفيه دليل على أنه لايفعل شيئا إلا بنية صالحة،وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين•

و حكي لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة،فلم يحضرها عنده،فوصفت له،فلم يلتفت إليها،وبيناهم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي،فأمر بها له فقيل له:إنها لاتصلح لهذا الرجل،ولو أعطي غيرها كان أنفع له،فقال:أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة،فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار•

قلت :قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى إياها قال:أعطاها لشيخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح بن حموية بغير طلب ولا رغبة،فبعثها إلى همذان فبيعت بألف دينار•

قال ابن الاثير:وحكى لنا الامير بهاء الدين علي بن السكري،وكان خصيصا بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصبا وأنس به،وله معه انبساط، قال:كنت معه يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا،فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا،فأجرى فرسه،وهو يلتفت وراءه وقال لي:أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي ؟قلت:لا،قال:قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا،تهرب ممن يطلبها،وتطلب من يهرب منها•

قلت:رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا،وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك

أنـــــت لاتــــــدركــــــه متبعــــا
فــــإذا وليـــــت عنـــــه تبعــــك

قـال ابن الاثير:وكـان ـ يعني نور الـدين رحمه اللـه ـ يصلي كثيراً مـن الليل، ويدعو ويستغفر،ويقرأ ولايزال كذلك إلى أن يركب

جمع الشجـــاعـــة والخشـــوع
مـــا أحســـن المحـــراب في المحـــراب

قـال: وكـان عـارفـا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه[١٥]،ليس عنـده تعصب بـل الانصاف سجيتـه في كل شيء ،وسمـع الحديث وأسمعه طلبا للأجر،وعلى الحقيقـة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنـة العدل والانصـاف،وترك المحـرمات مـن المأكل والمشرب والملبـس، وغير ذلك فـإنهم كانـوا قبل ذلـك كالجاهليـة،همة أحدهـم بطنه وفـرجه لايعرف معـروفاً،ولاينكـر منكراً حتـى جاء الله بـدولته،فـوقف مـع أوامر الشرع ونواهيه،وألزم بـذلك اتباعه وذويه،فاقتـدى به غيره منهم واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه،ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة٠

قال :فـإن قال قائل: كيـف يوصف بـالزهـد من له المهالـك الفسيحة وتجبـى إليـه الأمـوال الكثيرة،فليـذكـر نبـي اللـه سليمان بـن داود عليهما السـلام،مع ملكـه،وهو سيـد الزاهـدين في زمـانه،ونبينـا صلى الله عليـه وسلم قـد حكم على حضر مـوت واليمن والحجاز وجميـع جزيـرة العرب من حدود الشام إلى العراق،وهو على الحقيقة سيد الزاهدين٠

قال:وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها[١٦]

قال:وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة،وأعدلهم حكما،فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكسا ولاعشراً بل اطلقها رحمه الله

جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها،والموصل وأعمالها،وديار مصر وغيرها مما حكم عليه،وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً،وهذا لم تتسع له نفس غيره،وكان يتحرى العدل،وينصف المظلوم من الظالم،كائنا من كان،والقوي والضعيف عنده في الحق سواء،وكان يسمع شكوى المظلوم،ويتولى كشف حاله بنفسه،ولايكل ذلك إلى حاجب ولا أمير،فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها٠

قال:ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نمضي أوامرها،فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة،فرأى انساناً يحدث آخر ويومي بيده إليه،فأرسل إليه يسأله عن حاله،فقال: لي مع الملك العادل حكومة،وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ،فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرفه ما قال ذلك الرجل،وعاد يكتمه،فلم يقبل منه غير الحق،فذكر له قوله فألقى الجوكان من يده،وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول له:إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري،فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر:هل ثبت له عندي حق؟قالوا :لا،فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه،وهو له دوني وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي،وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته،فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له٠

قال ابن الاثير:وهذا غاية العدل والانصاف،بل غاية الاحسان،وهي درجة وراء العدل،فرحم اللّه هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الواقفة معه٠

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر، بعد فساد الأزمنة، وتفرّق الكلمة، وإلاّ فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر، وعلي رضي الّله عنهما، ثم حكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور، وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير، وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض إليه، وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استدعي مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه، فدخل حاجبه عليه متعجباً وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فأنكر عليه تعجبه، وقام رحمه الله مسرعا ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوس واستخراج ما فيه، فوكل من ثم وكيلاً وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل، ورجع.

قال ابن الاثير: ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته، مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة، والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل، واتباع الشرع المطهر.

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا، فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فرده إلى الخزانة، وقال: إذا سأل الملك العادل عنه، فقولوا له عني: إنه له، فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب، وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه؟ فذكروا له قول كمال الدين: فرده إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين: أنت تقدر على

حمل هذا المال،وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله،والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى،يعاد قولاً واحداً.

قال:ومن عدله أيضا بعد موته،وهو من أعجب ما يحكى،أن انسانا كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله،فلما توفي تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي،وقد شق ثوبه،وهو يقول: يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك،وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى،وكلهم يبكي ويصيح،فوصل الخبر إلى صلاح الدين فقيل له:احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك،فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه،وطيب قلبه ووهبه شيئا وأنصفه،فبكى أشد من الأول،فقال له صلاح الدين:لم تبكي؟قال:أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته،فقال صلاح الدين :هذا هو الحق،وكلما ترى فينا من العدل فمنه تعلمناه.

قلت:ومن عدله أنه بنى دار العدل،قال ابن الأثير:كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العدل،وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه،وفيهم أسد الدين شيركوه،وهو أكبر أمير معه،وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك،واقتنوا الاملاك فأكثروا،وتعدّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها،فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض،ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه،فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا إن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي،وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين،ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه،فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه،وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له:

إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب،فقال:خروج أملاكي من يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم،أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة،فخرج أصحابه من عنده،وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم،وأشهدوا عليهم،فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات،وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدّة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين،فقال نور الدين لكمال الدين:ماأرى أحدا يشكو من شيركوه،فعرّفه الحال،فسجد شكراً لله تعالى، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الاثير:فانظر إلى المعدلة ما أحسنها،وإلى هذه الهيبة ما أعظمها،وإلى هذه السياسة ما أسدها.هذا مع أنه كان لايريق دما ولايبالغ في عقوبة،وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه،فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا،وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم،وبه كان يضرب المثل في ذلك.

سمعت جمعاً كثيراً من الناس،لاأحصيهم يقولون:إنهم لم يروا على ظهر فرس أحسن منه كأنما خلق عليه لايتحرك ولايتزلزل،وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها،لم ير جوكانه يعلو على رأسه،وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان،وكانت يده لاترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب،وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه،وكان يقول طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها،سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك:فقال له:بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك

عمادهم،ولئن أصبت والعياذ بالله في معركة لايبقى من المسلمين أحد إلاّأخذه السيف،وأخذت البلاد،فقال:ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو.

قال:وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج،خذلهم الله تعالى،وأكثر ما ملكه من بلادهم به،ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن،صاحب الدروب،فإنه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراًوحضراً ،وكان يقاتل به الافرنج،وكان يقول:إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك،وقلاعه منيعة،وليس لنا إليها طريق،وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام،فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه،فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التأليف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا،وساعدنا على الفرنج.

قال:وحيث توفي نور الدين رحمه الله،وسلك غيره غير هذا الطريق،ملك المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الاسلام وحصونهم،وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه.

قال:ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده،فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداًأقر الاقطاع عليه،فإن كان الولد كبيراًاستبدّبنفسه،وإن كان صغيراًرتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر،فكان الأجناد يقولون:هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد،فنحن نقاتل عليها،وكان سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب،وكان أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه،وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد،ويقول نحن كل وقت في

النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد،دخل الوهن على الإسلام.

قال:ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال:وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا.

قال:وأما فعله في بلاد الاسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم،من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها:حلب وحماه، وحمص،ودمشق،وبارين، وشيزر ومنبج،وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها،وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس،وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية،وبنى الجوامع في جميع البلاد،فجامعه في الموصل اليه النهاية في الحسن والاتقان،ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله،وهو رجل من الصالحين فقيل له:إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل،فقال:إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الاوقات ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم،وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم،فإذا ظلم كان الاثم عليه لا علي.قال:وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم،وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها،وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها،وبنى البيمارستانات في البلاد،ومن اعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق،فإنه عظيم كثير الخرج جدا،بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير.

قلت:وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراًبذلك،وإنما هذا كلام مشاع على ألسنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء

للفقراء فيـه،والله المستعـان،وانما صرح بأن مـا يعز وجـوده من الأدويـة الكبار وغيرها،لايمنـع منه من احتاج إليه، من الأغنيـاء والفقراء ،فخص ذلك بـذلك،فـلا ينبغي أن يتعـدّى إلى غيره،لاسيما وقد صرح قبـل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين،وقال بعد ذلـك:من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطي،والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نـور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكـابر ملـوك الفرنج،خـذلهم الله تعـالى فقطع على نفسـه في فدائه مالاً عظيماً،فشاور نـور الدين أمراءه فكـل أشار بعدم اطلاقـه لما كان فيه من الضرر على المسلمين،ومال نـور الدين إلى الفداء بعد مـا استخار الله تعالى،فـأطلقه ليلاً لئـلا يعلم أصحابـه، وتسلم المال ،فلما بلغ الفـرنجي مأمنه مات،وبلغ نور الدين خبره،فـأعلم أصحابه،فتعجبوا من لطف الله تعـالى بـالمسلمين حيـث جمع لهم الحسنتين وهما الفـداء ومـوت ذلـك اللعين،فبنى نور الـدين رحمه الله بذلك المال هـذا البيمارستان،ومنع المال الأمراء ،لأنه لم يكن عن ارادتهم كان.

قال ابـن الاثير:وبنى أيضا الخانات في الطـرق،فأمن النـاس، وحفظت أموالهم وبـاتوا في الشتاء في كن مـن البرد والمطر،وبنى أيضـا الأبراج على الطـرق بين المسلمين والفرنـج،وجعـل فيها مـن يحفظهـا ومعهم الطيـور الهوادي،فـإذا رأوا مـن العـدو أحـدا أرسلـو ا الطيـور فـأخـذ النـاس حذرهم،واحتـاطوا لأنفسهم،فلم يبلغ العـدو منهم غرضا،وكـان هذا من ألطف الفكر،وأكثرها نفعا.

قال:وبنى الـربط والخانقاهات في جميـع البلاد للصوفية،ووقـف عليها الـوقوف الكثيرة،وأدرّ عليهـم الإدرارات الصـالحة،وكـان يحضر مشايخهـم عنده ويقربهم ويـدنيهم ويبسطهم ويتواضـع لهم،فإذا أقبل أحدهـم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه،ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته،ويقبل عليه

بحديثه،وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام،ويجمعهم عند البحث والنظر،فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه،وكان أمراءه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم،وإذا نقلوا عن إنسان عيبا يقول: ومن المعصوم،وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي،وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه،فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين،فقال له:ياهذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها،وهي العلم والدين،وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت،وليست لكم حسنة تغفرها،ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك،وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم،أفلا أحمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته،على أنني والله لاأصدقك فيما تقول ،وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدّبنك فكف عنه.

قال ابن الاثير:هذا والله هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة فهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه.وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة،وبنى أيضا مساجد كثيرة،ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن .قال.وهذا فعل لم يسبق إليه،بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا،وهو سنة ثمان وستمائة،كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح

شرعي ظاهراً وباطناً،فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن ثمنه،أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

قال:وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيها،ولقد كان كما قيل شديداً في غير عنف،رقيقاً في غير ضعف،واجتمع له ما لم يجتمع لغيره،فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده إلى غاية لامزيد عليها،وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير،ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف،وأما من عداه كأسد الدين شيركوه،ومجد الدين بن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود،وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه،ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه،وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا،وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم(١٧)، وهكذا كان مجلسه لايذكر فيه إلاّ العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو لايتعدى هذا، بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجلوس فيه مالاحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الإختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدّة لايحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال:نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة، لايستمع فيه إلى قائل ولايرد جواب متكلم، وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة

والوقار،فإذا تكلم أنصتنـا، وإذا تكلمنا استمع لنا،فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنـه لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قـال ابـن الاثير:فهكـذا كـانـت أحوالـه جميعهـا رحمه اللـه مضبـوطـة محفــوظـة،وأمــا حفـظ أصــول الـديـانـات فـإنـه كــان مـراعيــا لها لايهملهـا،ولايمكن أحـداً من النـاس مـن اظهار مـا يخالف الحق،ومتـى أقـدم مقـدم على ذلك أدبـه بما ينـاسـب بـدعتـه،وكان يبـالـغ في ذلـك ويقول:نحن نحفـظ الطرق من لص وقاطع طـريق والأذى الحاصل منهما قريب،أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال:وحكي أن إنسانا بدمشق يعرف بيـوسف بن آدم،كان يظهر الزهد والنسك،وقـد كثر اتبـاعه أظهر شيئـا من التشبيه،فبلـغ خبره نور الـدين فـأحضره وأركبـه حماراً وأمر بصفعـه،فطيـف بـه في البلد جميعهـا،ونـودي عليه:هذا جزاء من أظهر في الدين البدع،ثم نفاه من دمشق،فقصد حرّان وأقام بها إلى أن مات.قال:ويسوق الله القصار الاعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت:وذكر العماد الكـاتب في أوّل كتابه البرق الشامي أنـه قدم دمشق في شعبان سنـة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك العـادل نور الـدين محمود بـن زنكي،وأخذ في وصفـه بكلامه المسجـوع فقال:كان ملـك بلاد الشام ومالكها،والذي بيده ممالكها،الملـك العادل نور الدين،أعف الملوك وأتقاهم،وأثقبهم رأيا وانقاهم،وأعـدلهم.وأعبدهم . وأزهدهم. وأجهدهم. وأظهـرهم. وأطهـرهم. وأقـواهم .وأقـدرهم.وأصلحهـم عملا. وأنجعهـم أملا. وأرجحهـم رأيا. وأوضحهـم رأيا(١٨). وأصدقهـم قولا. وأقصـدهم طولا. وكـان عصره فاضلاً ونصره واصلاً. وحكمـه عادلاً. وفضله شـاملاً. وزمانـه طيباً. وإحسانـه صيبا. والقلوب بمهـابته ومحبته ممتلئـة. والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية وأوامره ممتثلـه. وجدّه منزه عن الهزل. ونوّابه في أمن العزل. ودولته مأمـولة مأمونة. وروضته مصـوبة مصونة. والرياسـة كاملة. والسياسـة شاملـة. والزيـادة زائدة. والسعادة مسـاعدة. والعيشـة ناضرة.

والشيعة نـاصرة. والانصاف صاف. والاسعـاف عاف. وأزر الديـن قوي. وظمأ الاسلام روي، وزند النجـح وري. والشرع مشروع. والحكم مسموع. والعدل مولى. والظلـم معزول. والتوحيد منصـور. والشرك مخذول. وللتقى شروق. وما للفسوق سوق. وهو الذي أعـاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام. وقد غلـب الكفر، وبلـغ الضر. فاستفتـح معاقلهـا. واستخلص عقـائلها وأشاع بها شعـار الشرع في جميع الحل والعقد. والابرام والنقـض. والبسط والقبض. والوضع والـرفع. وكانت للفرنج في أيـام غيره على بلاد الاسلام بالشـام قطائع. فقطعها وعفـى رسومهـا ومنعها. ونصره الله عليهـم مرارا حتى أسر ملـوكهم. وبدّد سلوكهـم. وصان الثغور منهم. وحماهـا عنهم. وأحيا معـالم الدين الـدوارس. وبنى لـلأئمة المدارس. وأنشأ الخانقـاهات للصوفية. وكثرها في كـل بلد وكثر وقوفها. وقرّر معروفها. وأدنـى للوافدين من جنـي جنانه قطوفهـا .وأجدّ الأسوار والخنادق. وأنمـى المرافق. وحمى الحقـائق. وأمر في الطـرقـات ببنـاء الربـط والخانـات. فضـافت ضيـوف الفضـائل. وفاضـت فيـوض الأفاضـل. وهـو الذي فتـح مصر وأعمالها. وأنشأ دولتها ورجالها(١٩).

· ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسـع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

وفي هـذه السنـة أكثر نـور الـديـن مـن الأوقاف والصـدقـات،وعمارة المساجـد المهجورة،وتعفيـة آثار الآثام، واسقـاط كل مـا يدخـل في شبهة الحرام،فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصـل من قسمه الغلات على قويم المنهاج.

قال: وأمـرني بكتب مناشير لجميـع أهل البـلاد،فكتب أكثر مـن ألف منشـور وحسبنـا ما تصـدق بـه على الفقـراء في تلك الأشهـر، فـزاد على ثلاثين ألـف دينار،وكانت عـادته في الصدقـةأنه يحضر جماعة من أمـاثل

البلـد من كـل محلـة ويسألهم عمـن يعـرفون في جـوارهـم من أهـل الحاجـــــة، ثـــــم يصرف إليهـــــم صدقاتهم، وكان له برسم نفقة الخاص في كـل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفها في كسوتـه ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطـة وجامكية طبـاخه، ويستفضل منه مـا يتصدق به في آخـر الشهر، وأما مـا كان يهدى إليه مـن هدايا الملـوك وغيرهم فإنـه كان لايتصرف في شيء منـه لاقليـل ولا كثير، بـل إذا اجتمـع يخرجـه إلى مجلـس القـاضي ويحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم باحصاء مافي محال دمشق فـأناف على مـائة مسجد، فـأمر بعمارة ذلـك كله، وعين لـه وقـوفاً. قـال: ولـو اشتغلت بـذكـر وقوفـه وصـدقاتـه في كـل بلد لطـال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمـد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلـوص نيته يغني عـن خبرهـا بـالعيـان، ويكفـي أســوار البلـدان عـن الـربـط والمدارس على اختـلاف المذاهب، واختلاف المواهـب وفي شرح طوله طـول، وعمله لله مبرور مقبول.

وواظـب على عقد مجالـس الـوعـاظ،ونصب الكـراسي لهم في القلعـة لـلانـذار والاتعـاظ، وأكبرهـم الفقيـه قطب الـديـن النيسـابـوري، وهـو مشغوف ببركـة أنفاسـه، واغتنام كـلامه واقتبـاسه، ووفـد من بغـداد ابن الشيـخ أبي النجيب الأكبر، فبسـط له في كـل أسبوع منبر وشـاقه وعظـه، وراقه معناه ولفظه، وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شورويه (٢٠) وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه.

وقال: ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عـن الرعية بصرفهم المحـن، وقال للقاضي كمال الـدين ابن الشهر زوري: انظر أنت ذلـك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لمال المواريـت الحشرية حاصل، ولا لديوانـه طائل، فجعل نور الديـن ثلث ما يحصل فيه لكمال الـدين الحاكم، فوفره نـوّابه وكثروه، وما كان نور الدين يحاسب القـاضي على شيء من الوقوف، ويقول أنا قد

قلدتـه على ان يتصرف بالمعروف، وما فضـل من مصارفهـا وشروط واقفها يأمـره بصرفه في بناء الأسـوار، وحفظ الثغور. وكانـت دولته نافـذة الأوامر، منتظمة الأمور.

قلت : وحكى الشيـخ أبو البركات الحسن بـن محمد بن هبة اللـه أنه حضر مع عمـه الحافظ أبي القـاسم، رحمه الله، مجلـس نور الـدين لسماع شيء من الحديث. فمـرّ في أثناء الحديث أن النبي صلى اللـه عليه وسلم خرج متقلـداً سيفاً فـاستفاد نـور الدين أمـراً لم يكن يعـرفه، وقـال: كان رسول اللـه صلى الله عليـه وسلـم يتقلـد السيف، يشير إلى التعجـب من عادة الجنـد، إذ هم على خلاف ذلـك لأنهم ير بطونـه بأوساطهـم، قال: فلما كان مـن الغد مـررنا تحت القلعـة والناس مجتمعـون ينتظرون ركـوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخـرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلـد للسيف، وجميـع عسكره كـذلك، فـرحمة الله على هـذا الملك الذي لم يفرط في الاقتـداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثـل هذه الحالة، لما بلغته رجـع بنفسه، ورد جنـده عن عوائدهـم اتباعـا لما بلغه عـن نبيه صلى الله عليـه وسلم، فما الظن بغير ذلـك من السنن، ولقد بلغنـي أنه أمر باسقـاط ألقابه في الدعاء له على المنـابر، ورأى له وزيره موفـق الدين خالـد بن القيسراني الشاعر في منـامه أنه يغسـل ثيابه، وقص ذلـك عليه ففكر ساعـة ثم أمره بكتابـة اسقاط المكوس، وقال: هـذا تفسير منامك، وكـان في تهجـده يقـول: ارحـم العشار المكـاس، وبعـد أن أبطـل ذلـك استجعل من الناس في حـل، وقال: والله ماأخرجناهـا إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم٠

وعلى الجملـة كان نـور الديـن رحمه الله فـرداً في زمانـه من بين سـائر الملوك، ولـو لم يكن إلا استماعه للمـوعظة وانقيـاده لها وان اشتملت على ألفاظ، قد أغلظ له فيها٠

قرأت في تاريخ إربل لشرف الدين بن المستوفي رحمه الله، قال: المنتجب الواعظ، هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد بن البحتري الواسطي ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى الشام لسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها، ثم ردها عليه، أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه:

مثــل وقوفك أيها المغرور
يـوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلما
فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من
كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففا
وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا انقلبت إلى البلى
فردا وجاءك منكر ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في
يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحود موسد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية
يوماً ولا قال الانام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزينا باكيا
قلقا ومالك في الانام مجير

أرضيـــــــت أن تحيـــــــى وقلبـــــك دارس
عـــــافي الخراب وجسمـــــك المعمـــــور
أرضيـــــت أن يحظـــى ســـواك بقـــربـــه
أبـــــدا وأنـــــت مبعـــــد مهجـــــور
مهـــــد لنفســـــك حجـــــة تنجـــو بها
يـــوم المعـــاد لعلـــك المعـــذور (٢١)

قلت: ولعل هذه الابيات من أقوى الأسباب المحركة للسلطان في إبطال المظالم، والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه،ووفق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت من لفظه أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرعية وثبت العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب، كانت بيد الفرنج، وحدّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له منهم : أبو عبد الله بن رفاعة بن عزيز السعدي المصري.

روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي المنصور عبد الرحمن بني أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني كتبها إلى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور،فنقلت جميع ما فيهما من خطيهما، قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به

على المنابر حتى لايقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب، وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين،وبلغه أماله في نفسه وذريته،وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وحمده،وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه، وعن والديه وأن يسهل له السلوك إلى رضاه، والقرب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير ،وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الاشرف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى:«اللهم اصلح عبدك الفقير إلى رحمتك،الخاضع لهيبتك،المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين» فان هذا جميعه لايدخله كذب ولازيادة،والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته:مقصودي أن لايكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لاأعمل قلة عقل عظيم. الذي كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد،وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس

قال: وحدثني والدي قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم، وشرف الدين بن أبي عصرون إلى الميدان الأول،وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص،فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال:بالّله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئا من أبواب البر إلاّ وقد فعله،ولم يترك لأحد من بعده فعل خير إلاّ وقد سبقه إليه.

وقال:قال لي والدي:دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر

فمات بها وخلف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب على رقعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله(٢٢).

قال: وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضا، وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض،فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا:ما قلنا شيئا، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: والله إنني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام لاتريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعاها إليّ.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلاّ من طعام الشيخ عمر الملاء.

قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة

الموصل أن لايعمل شيئا إلاّ بالشرع إذا أمره القاضي به، وأن لايعمل القاضي والنواب كلهم شيئا إلاّ بأمر الشيخ عمر الملاء.

قال: فكان لايعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية في أكابر الدولة، وقالوا لكمشتكين: قد كثر الذعار وأرباب الفساد، ولايجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك، فقال لهم: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الذعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له؟ قال : فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره:إن اللّه تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملاء أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدّل يقول: سمعت مقلداً-يعني الدولعي يقول: لما مات الحافظ المرادي وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد، فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي قطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدّس ثم عاد إلى بلاد العجم، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين، يعني ابن الداية عن لسانه، وقال لهم: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

هذه البلدة، واظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولايليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين ابن أبي عصرون، وقطب الدين النيسابوري فاستدعاهما جميعا، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النفري(٢٣) لقطب الدين.

قال: وعلقت أيضا من خط فقيه كان معيدا بالنظامية يقال له أبو الفتح بنجة بن أبي الحسن بن بنجة الاشتري، وكان ممن ورد دمشق، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية، وكشف الظلامة لايطلب بذلك درهما ولا ديناراأو زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلبا للثواب والزلفى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ويأمر بازالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لايطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسة العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها، ولا المكالمة معه فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله تعالى على لسانه ما هو موافق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه الا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم، وأما فكره ففي اظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرّا للعلماء والفقهاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربط، وترتيب أمورهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلاّ ما علم

منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولايخالف قوله ولايرجع عن لفظه ومنطقه لكفى، ولايجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولايطمع في أخذ أموال الناس ولايرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئا بغير حق.

قال:وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها،بتمام شرائطها، وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة، حكاية عن الكفار أنهم يقولون : ابن القسيم له مع الله سر ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤله، وما يردّ يده خائبة، فيظفر علينا ،قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدّسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين، فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ماورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان، وكان قد أودع عند أخيه أبي

البيان وديعة، وقد توفي فادعى المودع على هـذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالـردّ عليه، فـانكر هـذا الرجـل علمه بـالوديعـة، فأوجـب عليه القاضي كمال الـدين حكم الشرع أن يحلف أنـه لاعلم له بهذه الـوديعة، فحلـف على ذلك فجعـل المودع يشنـع عليه ويقـول انـه حلـف كاذبـا، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقـه من التنمس وغيره، فحضر عند الملك العادل شـاكياً منه وذاكـراً سيرته وطريقتـه، ومن الذي يقـدر أن يقول في حقي هذا، ويتعرّض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكـلام، ورمى ما كان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الانكار عليه، فقال الملك العادل: أليـس إن الله تعـالى يقول في كتـابه:(وإذا خـاطبهم الجاهلـون قالوا سـلاما (٢٤))فاذا كـان يجهل عليك ويقـول في حقك بالجهـل مالا يجوز، فيجب عليـك أن لاتعمل معه مثـل معاملتـه فتكون مثله، فكـأنك قابلت الاساءة بـالاساءة، ومن حقك أن تقابل الاسـاءة بالاحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل إما قـرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعـة من التجار وشكوا أن القـراطيس كان ستـون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينـار، وتزيد وتنقص فيخسرون، فسأل الملك العـادل عن كيفيـة الحال فـذكـروا أن عقد المعـاملـة على اسـم الدينـار، ولايرى الـدينار في الـوسط، وإنما يعـدون القراطيـس بالسعـر تارة ستين بدينـار، وتارة سبعة وستين بـدينار، وأشـار كل واحد مـن الحاضرين على نور الـدين أن يضرب الدينار بـاسمه، وتكون المعـاملة بالدنـانير الملكية، وتبطـل القراطيـس بالكليـة، فسكت سـاعـة وقال: إذا ضربـت الدينـار وابطلت المعاملـة بالقراطيس فكأني خـربت بيوت الرعية، فـإن كل واحد من السوقـة عنده عشرة آلاف، وعشرون ألف قرطـاس أي شيء يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته.

قال: فأي شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية.

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاسا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرقّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح، حتى كأن الانعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وادّعى أن له على نور الدين دعوى، فقال الكردري لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرّفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده، فتقدّم سويد إليه وقال: سيرني تاج الدين، يعني القاضي، وذكر أنه حضر تاجروذكر أن له دعوى على المولى نور الدين، وقد أنفذني تاج الدين وقال لي: كذا وكذا، فضحك اسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئا: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردري، وقال إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه، وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم، وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة، قال الله تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله

ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا)[٢٥] ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امض إلى القاضي تاج الدين وسلم عليه وقل له: إني جئت إلى ها هنا امتثالا لأمر الشرع، واحتاج في الحضور إلى مجلسة إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شاء اللّه تعالى، قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين فقال الكردري: قد توجهت اليمين فليحضر، فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم أنه لامندوحة عن حضور مجلسه لليمين، استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه ، وأرضاه.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه ، وكان لايفعل شيئا إلاّ بمشورته، فقال: امض وقل لأسد الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال:فجئت إليه وأنهيت ما قال لي، فقال: امض وقل له: يامولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغزاة، وخروج العساكر؟ قال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي : هذا أمر قد ألهمه اللّه إياه، فساعده عليه فصاح فيّ وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك.

قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليه ما قال عمي، فقال امض إليه وقل له إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولانخرج، قال: فعدت إلى عمي وقلت ما قال، فقال : قل له إن تركوك نقعد فجيد هو، فراجعته في أن لايثبطه عن ذلك، فصاح فيّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك، فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة، ثم أمضى ما كان عزم عليه.

قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فخجل موفق الدين وبقي أياما على غاية من الخجل، فاستدعاه يوما نور الدين، وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي أقعد وأكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم، قال: فكتب موفق الدين توقيعا.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقيعة، تكلم البرهان البلخي فقال: اتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور، كلا، وكلاماً مع هذا ، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الأفرنج.

سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سود كين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين، فاعتقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل، قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع، ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ أن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعني من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن منذر أن نور الدين حين خرج لأخذ شيزر ، خرج أبو غانم بن منذر صحبته، فأمره نور الدين بكتابة منشور باطلاق المظالم بحلب . ودمشق. وحمص. وحران. وسنجار. والرحبة. وعزاز. وتل باشر ، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقرّب به إلى اللّه سبحانه وتعالى صافحا، وأطلقه مسامحا لمن علم ضعفه من الرعايا رعاهم اللّه ،لضعفهم عن عمارة ماأخربته أيدي الكفار أبادهم اللّه عند إستيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين، ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذين خصهم اللّه سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحنهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاما لأجرهم،فصبروا احتسابا، وأجزل اللّه لهم أجرا وثوابا،(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[٢٦]وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء اللّه عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرّها في الدولة الاسلامية، بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدّمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور، وهدم أركان التعدّي، وأقرّ الحق مقرة لقوله تعالى:(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[٢٧](واللّه يضاعف لمن يشاء[٢٨]) ثم لما أعانه اللّه بعونه وأيده بنصره وقمع به عادية الكفر وأظهر بهمته شعائر الاسلام وأظفره بالفئة الطاغية، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنوع الرقاد ، وآخرين مقرنين في الاصفاد، هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب، (وان له عندنا لزلفى وحسن مآب[٢٩]) علم أن الدنيا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادّة دارة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين يلتبس الجواد (يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ

لله(٣٠))فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على متطاول إليها ومتهافت عليها، تجنبا لإثمها،واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه إتباعا لكتاب الّله، وسنة نبيه محمد صلى الّله عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك : حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم الّله على المسافرين عشرة آلاف دينار. تلّ باشر أحد وعشرين ألف دينار. المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفا على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدّو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرين ألف دينار. حرّان خمسة آلاف دينار. سنجار ألف . الرحبة عشرة آلاف دينار. عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات، ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور، والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الّله تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند الّله وتقرّباً إليه، مضافا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد، من خزائنه المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورةطلبا لما عند الّله (والّله عنده حسن الثواب)(٣١) فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر أن يمدّه ويودّه، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفذ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار.

كتبه خادم دولته، وغـذيّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعـم بن رضوان ابن عبـد الواحد بـن محمد بن المنـذر الحلبي، غفر اللّـه له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه مـن أئمة الدين، وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبـدين وكافة التجار والمسـافرين، أحسن اللّه تـوفيقهم، وسدّد إلى أغـراض الخير تـوفيقهم ، ليشعـروا بذلـك مـن حضرهـم من التجـار والمتردّدين إليهـم من السفار، ليعـرفوا قدر ما أنعـم اللّه به عليـهوعليهم ، ولينـذروا قومهـم إذا رجعوا إليهـم، ويمـدّوه بأدعيتهـم، ويبرئوا ذمّته ممـا سبق من أخذ مـؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلاّ في خدمـة وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنـذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرىء ذمّتـه مما سبـق، استحسـن ذلك كثيراً، ووعـده بـاقطاع حسـن، واتفق موته بعد ذلك(٣٢).

قلـت: ونقلت مـن خـط الشيخ الأمين أبي القـاسـم عبـد الرحمن بـن الحسين بن الخضر بـن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقـي: وقف المولى نـور الديـن بستـان الميـدان سوى الغيضـة التـي مـن قبليه بعـد عمارتـه واصـلاح ما يحتـاج إليه على تطييـب المساجـد التي يـأتى ذكـرها وهـي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعـة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدّدها نـور الديـن، مسجـد ابن عطيـة داخـل باب الجابيـة، مسجـد ابن لبيـد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجـد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيـخ المعلق، مسجـد العباسي بسـوق الأحـد، مسجد نـور الديـن بجوار بيعـة اليهود، جـامع الصالحيين بجبـل قاسيون، يبتـاع بذلـك عود وطيب، ويفـرّق على هذه الأماكـن: النصف للجـامع بدمشـق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزآن للمـدرسة، وتسعة أجزاء للتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءاً واحداً،تطيب هذه الأماكن في الأوقات

الشريفة، ومواسم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضا أن نور الدين رحمه الله حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الماسح الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد ابن أسد التميمي، رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم : عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائن أبو الحسن، وغيرهم فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يظهر كّل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به،ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره، ولاينكر شيئا مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدّق للناطق، ومصوّب لقوله،وليس العمل إلاّ على ما تتفقون عليه، وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل، وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف، فافتتح بالسوق المستجدّ تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارستان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من

وقف الجامـع لأنه أحدث في طـريق المسلمين، وقد صرف في الجامـع من أجـوره أو في مما غـرم على عمارته مـن وقفه، فصـدّقهم الحاضرون على مـا شهدوا به، ومبلـغ ذلك خمس وعشرون عضادة، ثم عين للمصـالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضـائد والحوانيت والحجر التي طبـاقها وطباق الطـريق بحضرتها، وجميع بيـوت الخضراء من قبلة الجامـع، والفرن المستجـدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لـدار الخيل، وحانوت الخواصين في الصف الغـربي، واثنـا عشر حـانـوتـا متـلاصقـات في الصـف الشرقـي تعـرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفـرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة إلى سـوق علي،وعدتها ثـلاثـة عشر حانـوتـا ومصطبة، وثـلاثـة حوانيـت في الصـف الشامـي مـن سوق علي ملصـق الفـرجة مـن شرقهـا، وحانـوت بـالفسقار في الصـف القبلي يعرف بسكنـى ثعلـب الفقاعـي، وحوانيـت اللباديـن والتي بحضرة الفوارة وتحت اللباديـن، وقيسارية العقيقـي بسوق الأحد وتعـرف بدار الشجرة، وحانـوتان في الصف الشرقـي بحضرة فندق الزيـت من غـرب درب التمارين، وحـانوت بقنطـرة الشماعين في الصف الشامـي بحضرة البياطـرة، وقطعة بجـوار المأمونيـة من غـربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سـوق الأحد، وهي خمس عشرة عضادة وستة أسهـم من طـاحـونة السقيفـة، وذلـك كله بعضـه ميراث عـن بني أميـة كالخضراء ودار الخيـل، وبعضه اشتري بمال الـوقف والمصـالح، وبعضـه أخذ ممـن باد أهله الموقوف عليهـم، ولم يكن له مال، وبعضـه أحدث في الطريق.

قال: فلما شهدوا بصحة جميـع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجـوره جارية في المصالح، قال نـور الدين: إن أهم المصالح سـدّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيـط بدمشـق، والخندق لصيانـة المسلمين وحريمهـم وأموالهم، فصوّبوا ما أشـار اليه وشكروه، ثم سألهم عن فـواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسـوار وعمل الخنـدق للمصلحة المتـوجهة للمسلمين،

فأفتى شرف الدين عبد الوهـاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّى في مهلة النظـر، وقال الشيخ شرف الـدين بن أبي عصرون الشـافعي: لايجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين لجهـة إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكـن بدّ مـن ذلك فليـس طريقـة إلا أن يقترضه مـن إليه الأمر في بيـت مال المسلمين فيصرفه في المصـالح، ويكون القضـاء واجباً من بيت المال، فوافقه الائمـة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبـل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكـلاسة مـن شـام الجامع ، وعلى إنشـاء السقـف المقرنـص تحت النسر بالجامع ، وعلى الـرصاص المعمول على سطح الرواق الشامـي من الجامع وسائر العمارات المتعلقـة بالجامع المعمـور بغير إذن مولانا، وهـل كان إلاّ مبلغا للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقـال نور الدين: لم ينفق ذلك ولاشيء منه إلا بـاذني وأنا أمـرت به وبفتح المشهـدين مـن غربي الجامـع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكتب مبلغا عني ومؤديا أمري.

قلـت:وقد رأيـت المحضر الذي كتـب فيـه صورة مـا جرى في ذلـك المجلس وهـو مشتمل على فـوائد حسنة، وتـأكيد لما نقـل من سيرة هـذا الملـك في وقـوفـه مع أوامـر الشرع، وفي ذلـك المحضر خطـوط الجماعـة الحاضرين، وصـورة ما كتبـه المالكي المفتـي:«حضرت المجلس المذكـور، عمره اللّه وزينـه بالعدل أبداً مـا عاش صاحبه، وشهـدت على ماتضمنه من المشورة المباركة، ومانسب إلى الجماعـة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب إليهم وقـد أخل بذكر دار الحجـارة، وقد ذكروها في المصـالح المشهورة، ومانسب إليّ مـن الفتوى، فقد كنت قيدته بـالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليـه المسلمون ومهماتهم الدينية. كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي».

فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أوّل دولته شاعرا زمانهما أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت أن أقدم منها شيئا هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتبت إلى نور الدين سلام اللّه وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل اللّه سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة اللّه وليس غير اللّه من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال ملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر، ومن رأى الحكم دارسة ، فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها، ومن عمر ربع السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان:

ذو الجهادين من عدوّ ونفس
فهو طول الحياة في هيجاء

فهو المالك الذي ألزم الناس
سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل لما
سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت في الناس حتى
لقسمت التقى على الاتقياء

شيـــــم الصـــــــالحين في جتر الترك
وكـــــم مـــــن سكينــــــة في قبـــــاء
أنـــت حينـــا تقـــاس بـــالاسـد الـــورد
وحينـــــا تعـــــد مـــــن الأوليـــــاء
صـــاغـــك اللـــه مـــن صميـــم المعـــالي
حيـــــث لانسبـــــة ســـــوى الالاء
وكـــــان القبـــــاء منـــــك لماضـــم
مـــن الطهـــر مسجـــد بقبـــاء
أنـــت إلا تكـــن نبيـــا فمافـــاتـــك
إلاّ خـــــلائق الأنبيـــــاء
رأفـــــة في شهـــــامـــــة وعفـــــاف
في اقتـــــدار وسطـــــوة في حيـــــاء
وجمال ممنطـــــق بجـــــلال
وكمال متـــــوّج ببهـــــاء
وإذا مـــا الملـــوك خـــافـــت سهـــام الـــذ
ذم زرّت عليـــــك درع الثنـــــاء
اعجـــب النـــاس منـــك إنـــك في الحر
ب شهـــاب الكتيبـــة الشهبـــاء
وكـــان السيـــوف مـــن عـــزمـــك الما
ضي أفـــادت مـــا عنـــدهـــا مـــن مضـــاء
ولعمـــري لـــو استطـــاع فـــداك ال
قـــوم بـــالامهـــات والآبـــاء(٣٣)

وله فيه شعر

للّـــه عـــزمـــك أي سيـــف وغـــى
طبعـــت مضـــاربـــه على القهـــر
مـــا زفـــت الحرب العـــوان بـــه
الا انجلـــت عـــن معقـــل بكـــر

هــل وجــه نــور الــديــن غير سنــى
صــدع الــدجــى عــن خجلــة البــدر

ملــك مهــابتــه طليعتــه
أبــدا أمــام جيــوشــه تسري

كــم فــل كيــدهــم بصــاعقــة
شغلــت قلــوبهم عــن الكفــر

تــركــت حصــونهم سجــونهم
فــالقــوم قبــل الأسر في أسر

عصــم العــواصــم فهــي ضــاحكــة
تجلــوا الظبــى ثغــرا على ثغــر

فــإذا سرايــا خيلــه قفلــت
نهضــت سرايــا الخوف والــذعــر

ورمــى القــلاع بمثــل جنــدها
حتــى استكــان الصخــر بــالصخــر

يــاســائلي عــن نهج سيرتــه
هــل غير مفــرق هــامــه الفجــر

عــال حقيــق مــن تــأملــه
أن يحيــي العمــريــن بــالــذكــر

وشهــامــة في اللّــه خــالصــة
عقــدت عليــه تمائم الأجــر

ونــدى يــد مــا ضرّ واردهــا
أن لا يبيــت مجاور البحــر

هــذا المخيــم في ذرى حلــب
وثنــاؤه أبــداً على ظهــر

وله فيه وقد وصف داره:

دار تغــار الشمــس في أفــق
مــن حسنهــا والشمــس مغيــار

يــــزأر فيهـــا ضيغـــم مـــالـــه
غير سيـــوف الهنـــد أظفـــار
تمسي وتضحـــي وهـــو جـــار لها
واللّـــه ذو العـــرش لـــه جـــار
لسيفـــه البـــاتـــر مـــن دهـــره الـــ
ـــجائر مـــا يهوى ومـــا يختـــار
قـــد مـــلأ الأسفـــار مـــن ذكـــره
نشر لـــــه في الأرض إسفـــار
حمد يضـــوع الجوّ مـــن طيبـــه
كـــأنما راويـــه عطـــار
إن خطـــرة في قلبـــه خطـــرت
أجـــابها مـــاض وخطـــار
وإن دعـــا داعيـــه يـــوم الـــوغـــى
سيـــوفـــه لبتـــه أقـــدار
وإنما صـــارمـــه مـــرســـل
لـــه مـــن التـــأييـــد أنصـــار
يـــا ملـــك الـــدنيـــا ولكنهـــا
دنيـــا لها في الـــديـــن آثـــار
ويـــا جـــوّادا مـــا لآلائه
غير قضـــاء الحمـــد مضمار

وله فيه أيضا:

تـــدارك ملـــة العـــربي ذبـــا
إلى أن عـــده منـــه معـــدّ
وحـــل ذرى العـــواصـــم وهـــي نهبـــى
فـــأجلى الشرك حتـــى ليـــس ضـــد
ثنـــى يـــده عـــن الـــدنيـــا عفـــافـــا
ومـــال بها عـــن الأمـــوال زهـــد

رأى حط المكوس عن الرعايا
فأهدر قبل ما أنشاه بعد
ومد لها رواق العدل شرعا
وقد طوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها
لدولته دعاء لا يردّ

وله فيه:
ملك أشبه الملايك فضلا
وشبيه بها الملك الأمر جنده .

عم إحسانه فأصبح يتلى
شكره في الورى ويدرس حمده
فسقى اللّه ذكره أينما حل
ولا فاته من النصر رفده

وله فيه:
ضحكت تباشير الصباح كأنها
قسمات نور الدين خير الناس
المشتري العقبى بأنفس قيمة
والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه
إن الدعاء يعد في الحرّاس
راض الخطوب الصم بعد جماحها
وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مشكاته
وأقام وزن الحق بالقسطاس

واختـــار مجد الـــديـــن ســـائس ملكـــه
فحمـــى السيـــاسيـــة منـــه طـــود راسي

فهـــو الخبير بكـــل داء معضـــل
يـــأســـو جـــراح زمـــاننـــا ويـــواسي

وأذل سلطـــــان النفـــــاق بعـــــزة
خضعـــــت لها الأســـــاد في الأخيـــاس

وعـــرتـــه أقـــران الخطـــوب فصـــدهـــا
ألـــوى يمارسهـــا أشـــد مـــراس

ولـــو أن فيـــض النيـــل فـــائض نيلـــه
لم تفتقـــر مصر إلى مقيـــاس

سكنـــت شعـــب الـــدهـــر بعـــد تخمـــط (٣٤)
وألنـــت مـــن عطفيـــه بعـــد شماس

وفتحـــت بـــاب الحظ بعـــد رتـــاجـــه
وأذنـــت لـــلاطماع بعـــد اليـــأس

حتـــى منحـــت الخلـــق كـــل مسرّة
فـــالنـــاس في عـــرس مـــن الأعـــراس

وله فيه:
ســـام الشـــآم ويـــا لها مـــن صفقـــة
لـــولاه مـــا عنـــت على يـــد ســـائم

ولشمـــرت عنهـــا الثغـــور وأصبحـــت
فيهـــا العـــواصـــم وهـــي غير عـــواصـــم

تلـــك التـــي جمحـــت على مـــن راضهـــا
ودعـــوت فـــانقـــادت بغير شكـــائم

وإذا سعـــادتـــك اجتبـــت في دولـــة
قـــام الـــزمـــان لها مقـــام الخادم

حصـــن بـــلادك هيبـــة لا رهبـــة
فـــالـــدرع مـــن عـــدد الشجـــاع الحازم

هيهات يطمع في محلك طامع
طال البناء على يمين الهادم

كلفت همتك السموّ فحلقت
فكأنها هي دعوة في ظالم

وأظنّ أنّ الناس لما لم يروا
عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه:

قلت بقول اللّه لا خائفا
مع حكم القرآن حكم القران

لا راقب النجم ولا سائلا
ما فعل السعدان والنيران

بل غرت للاسلام حتى لقد
دان له من بالطواغيت دان

رعت نواميس نواقيسها
بحلبة الآذان وقت الأذان

تمحو تصاوير الدمى عن يد
تبني المحاريب خلال المجان

هذا وكم أنشأت من منبر
فارسه فارس سحر البيان

من نال بالاخلاص ما نلته
كان من اللّه مكين المكان

ياشائما بالشام صوب الحيا
ودانيا من كل قاص ودان

هذي سجوف الملك مرفوعة
عن ملك أخباره كالعيان

أوضح سبل العدل مفتنة
فللبرايا بالدعاء افتتان

ألغى حقوقا كلها باطل
إلى مآل حط مال الضمان
عطفا ورفقا بالرعايا وان
أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة
وساهر في صهوة من حصان
في كل يوم يبتني سيفه
ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه اللّه تعالى:

يا محيي العدل ويا منشره
من بين أطباق البلى وقد همد
وركن الاسلام الذي وطده
طال وأرسى العز فيه ووطد
وشارع المعروف إذ لا سفه
يجنح للقول ولا تسمح يد
محوت ما أثبته الجور مضى
عليه إخلاد الليال مخلد
من كل مكاس يظل قاعدا
لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لأرجاس اليهود دولة
أزالها منك الهصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق الـ
ـمعنى وفي الوصف معار مسترد
خير النعوت ما جرى الوصف على
صفحته جري النسيم في الومد

عــدل جنيــت اليــوم حلــو ريعــه
وســوف يجنــى لــك أحلى منــه غــد

لازال لــلاســلام منــك عــدة
تقيــم منــه كــل زيــغ وأود

النــاس أنــت والملــوك شرط
تعــدّليثــا ويعــدّون نقــد

مثلــك لا يسخــو بــه زمــانــه
ومثــل مــا أوتيــت لم يــؤت أحــد

وله فيه

أيــا نــور ديــن خبــا نــوره
ومــذ شــاع عــدلــك فيــه اتقــد

رآك الصليــب صليــب القنــاة
أمين العثــار متين العمــد

تهمّ فتسلبــه مــا اقتنــى
وتــدئى[٣٥] فتثكلــه مــا احتشــد

زبنتهــم أمــس عــن صرخــد
ففضــوا كــأن نعــامــا شرد

ويــوم العــريمــة أقبلتهــم
عــرامــا يثعلــب منــه الأســد

جنبــت مليكهــم في الصفــاد
وعفــوك عنــه أعــم الصفــد

وقبــل أزرتهم في الــرهــا
مــوازق مــزقــن جــرد الجرد

بقيــت تــرقــع خــرق الــزمــا
ن قيــامــا لا ابنــائه إن قعــد

تثقــف مــن زيغــه مــا التــوى
وتصلــح مــن طبعــه مــا فســد

وله فيه:

أيـا ملـك الـدنيـا الحلاحـل والـذي
لـه الأرض دار والبريـة أعبـد
وليسـت بـدعـوى لا يقـوم دليلهـا
ولكنـه الحق الـذي ليـس يجحـد
أخـو الغـزوات كـالعقـود تنـاسقـت
تحل بـأجيـاد الجيـاد وتعقـد
لسـان بـذكـر اللّـه يكسـو نهاره
بهاء وجفـن في الـدجـى ليـس يـرقـد
وبـذل وعـدل أغـرقـا وتـألقـا
فـلا الـورد مثمـود ولا البـاب مـوصـد
مـرام سمائي وحـزم مسـدّد
ورأي شهـابيّ وعـزم مـؤيـد

وله فيه:
أبـدا تنكـب عـن ضـلال سـادرا
بثقـوب زنـدك أو تـدل على هـدى
سـدت الكهـول مـن الملـوك مـراهقـا
وشـأوت شيبهـم البـوازل أمـرد
إن شيـدوا صرحـا أنـاف منـاره
أو يسجـدوا للكـاس جـدّد مسجـدا
واذا استهـزتهم فـلا يـد معبـد
هـزتـه مـوعظـة فعـرّف معبـدا
قسما بشـام الشـام منـك مهنـدا
أرضـاه مشهـورا وراع مقلـدا
وتمسـك الاسـلام منـك بعـروة
اللّـه أبـرم حبلهـا فـاستحصـدا

أشفــــى فكنــت شفـــاءه مـــن حـــادث
غـــاداه عـــارضـــه مـــردى بـــالـــردا
كنـــت الصبـــاح لليلـــه لما دجـــى
والغـــوث كـــف لظـــاه حين تـــوقـــدا
للـــه يـــوم أطلعتـــك بـــه النـــوى
يجتـــاب مـــن مهـــج الأصـــافـــر مجســـدا
نشـــوان غنتـــك الظبـــى مفلـــولـــة
وأمـــال عطفـــك الـــوشيـــج مقصـــدا
في معـــرك مـــا قـــام بـــأســـك دونـــه
إلا أقـــــــام المشركين وأقعـــــــــد
ولكـــم مكـــرّ قمـــت فيـــه معلما
أرضـــــى إلهك وا لمسيــــــح وأحمدا
يـــوم العـــريمـــة والخطيـــم وحـــارم وشـــ
ـــعاب بـــاســـوطـــا وهـــاب وصرخـــدا
لا يعـــــدم الاشراك جـــدّك أنـــــه
مـــا ســـلّ فيهـــم حـــاكما إلا اعتـــدى
أهمدتهم مـــن بعـــد مـــا مـــلأوا الملا
زجـــلا فهـــل كـــانـــت سيـــوفـــك مـــرقـــدا

طلعـــت نجـــوم الحق مـــن آفـــاقهـــا
وأعـــادهـــا كـــرّ العصـــور كما بـــدا
وهـــوى الصليـــب وحـــربـــه وتبختر الا
ســـلام مـــن بعـــد التـــأفـــف أغيـــدا
سبـــق المجلي للخطـــي فـــرفعـــه
نســـق فتـــم وقـــد رفعـــت بـــالابتـــدا

وله فيه:
محمـــود المربـــى على اســـلافـــه
إن زاد في حســـب الحسيـــب نجـــار

تقفـو طـريـق الصـالحين مسـابقـا
لهم وتطلـع خلفـك الأبـرار
. نفـس السيـادة زهـد مثلـك في الـذي
فيـه تفـانـت يعـرب ونـزار
ومتـى ادّعـى مـا تـدعيـه محكـم
أوهـى معـاقـد دينـه دينـار
للّـه مـا ظفـرت بـه منـك المنـى
وتكنفـت مـن ركنـك الاستـار
وسقـى الغمام ثـرى أبيـك فـانـه
أزكـى ثـرى قطـرت عليـه قطـار
شهـدت نضـارة عـودك الغـض الجنـى
أن الـذي استخلصـت منـه نضـار
أمـا نهارك فهـو ليـل مجاهـد
والليـل مـن طـول القيـام نهار
فلـذلـك النصر العـزيـز أدلـة
أنـى اتجهـت وللفتـوح أمـار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى:

رأينـا الملـوك وقـد سـاجلـو
ك تمنـوا منـونـا وغـرّوا غـرورا
أبـى لـك أن يـدركـوه أب
يـزيـر فينسي الأسـود الـزئيرا
وجـد إذا جـدّ يـوم الـرهـا
ن أبقـى لتـاليـه جـدّاً عثـورا
تصـب عصـاك على مـن عصـاك
يـومـا عبـوسـا بها قمطـريـرا
لقـد ألبـس الشـام هـذا الإبـاء
لبـوسـا مـن الامـن لينـا وثيرا

تـــــداركـــــت أرمـــــاقـــــه والقلـــــو
ب نـــــوافـــــر أن يستجـــــنّ الصـــــدورا
أقمـــت جثـــاثـــا (٣٧) وكـــانـــت جثـــا
وشـــدّت قصـــورا وكـــانـــت قبـــورا
وكـــم لـــك مـــن غضبـــة للهـــدى
تميـــت الهوى وتجب الـــذكـــورا
إذا قطـــب اليـــأس كـــانـــت ردى
وإن ضحـــك العفـــو عـــادت نشـــورا
كملـــت فـــوقيـــت عين الكمال
تبيـــد السنين وتفنـــي العصـــورا
وجـــادلنـــا بـــك رب بـــرا
ك للكفـــر نـــارا وللـــديـــن نـــورا
إذا مـــا خـــدمـــت فمـــولى كـــريما
وأمـــا عبـــدت فعبـــداً شكـــورا
امـــام المحـــاريـــب بـــرّا حصـــورا
وتحت الحروب هـــزبـــرا هصـــورا
تبـــارك مـــن شـــاد هـــذي الخلال
في ظلـــه الملـــك طـــودا وقـــورا
وألـــف في معقـــد التـــاج منـــ
ـــك سطـــواً سعيراً وعفـــوا نميرا

وله فيه:

عقـــل الحق ألســـن المدعينـــا
أنـــت خير الملـــوك دنيـــا ودينـــا
وأســـد الانـــام قـــولا وأفعـــا
لاً ونفســـاً ونيـــة ويقينـــا
أنـــت أسنـــاهـــم أبـــا وإبـــاء
وأمـــر أحيـــا وأمـــرع حينـــا

بسط الرزق في البسيطة كفاك
فكلتا يديك تلفى يمينا
فيد تحسم النوائب عنا
ويد تقسم الرغائب فينا
أيها البحر لو تساجلك الأبحر
عامت في ساحليك سفينا
ولكان المحيط منها محاطا
مثل نون الهجاء أو خيل نونا
مشرعا مترعا ومنا مهنا
وربا عا فيحا وكفا البونا
ومحيا طلقا ومالا طليقا
وابتهاجا قصداً وحبلا متينا
بين ذب يميت عادية الشر
ك وهب يحيى به المسلمونا
تتسنى من الفتوح ألوفا
أنت أعلى من أن تعدّ المئينا
كلما اجتبت ثوب نصر عزيز
من مرام أقبلت فتحا مبينا

صرف اللّه عنك صرف الزمان
أنت علمت صرفه أن يهونا
يابن من طبق البسيطة آثا
راً وعلّ لمنابذيه الاجونا(٣٨)
وغدت حصنه على شرح هذا الد
ين من شكة الأعادي حصونا
كم تعالى صهيلها في ربى الشا
م فأعلى خلف الخليج الرنينا
كان صنو الرشيد أبقاك للحكـ
ـمة والبأس بعده المأمونا

سمع اللـه فيـك دعـوة سكـن
أوطنوا من حماك حصناً حصينا
غـرّقتهم مـدى الخطـوب فأحييـ
ـت رفـاتـاً مـن التراب دفينا
البسوا عـدلـك المديـح فاختـا
لوا بنـات في وشيـه وبنينا
سهـرت عينـك الكلـؤ ونـامـوا
تحت أكنـاف رعيهـا آمنينا

قلت:فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع أنهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل أن يفتح نور الدين دمشق، وبقي نور الدين حياً بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقى كل عام في إزدياد من جهاد واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب المدائح ، مع أنه قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما. ولأبى المجد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي من قصيدة فيه:
تبـدو الشجـاعـة مـن طـلاقـة وجهـه
كـالـرمـح دل على القسـاوة لينـه
ووراء يقظتـه أنـاة مجرّب
للّـه سطـوة بـأسـه وسكـونـه
هـذا الـذي في اللـه صـح جهـاده
هـذا الـذي بـاللّـه صـح يقينـه
هـذا الـذي بخـل الـزمـان بمثلـه
وا لمشمخـر إلى العلى عـرنينـه
ملـك الـورى ملـك أغـرّ متـوّج
لا غـدره يخشـى ولا تلـوينـه
إن حـلّ فـالشرف التليـد أنيسـه
أو سـار فـالظفـر الطـريـف قـرينـه
فـالـدهـر خـاذل مـن أراد عنـاده
أبـدا وجبـار السماء معينـه

ملـــك إذا تليـــت مـــآثـــر قـــومـــه
كســـد اللطيـــم وهجـــن النـــوار

مـــلأ الفـــرنجـــة جـــور سيفـــك فيهـــم
فلهـــم على سيـــف المحيـــط جـــوار

يـــومـــا يـــزيـــرك جـــوف عـــرقـــة معلما
جـــوف لـــه خلـــف الـــدروب أوار

وتجر في الأردن فضلـــــة ذيلـــــه
نقـــع بـــأكنـــاف الأرنـــط مثـــار

إمـــا تبيـــح حـــريـــم أنطـــاكيـــة
أو يفجـــأ الـــداروم منـــك دمـــار

عفـــى جهـــادك رســـم كـــل مخوفـــة
وصفـــت بصفـــوة عـــدلـــك الاكـــدار

ومحا المظـــالم منـــك نظـــرة راحـــم
للّـــه في خطـــراتـــه أسرار

غضبـــان لـــلاســـلام مـــال عمـــوده
فلنـــوره ممـــا عـــراه نـــوار

وجـــذمـــت كـــل يـــد تســـور على يـــد
فـــاحلـــت ذاك الســـور وهـــو ســـوار

لم يبـــق مـــاكـــس مسلـــم شلقـــا[٣٦] ولا
ســـاع لمظلمـــة ولا عشـــار

همدوا كما همدت ثمـــود وقـــادهـــم
بخســـارهـــم ممـــا أتـــوه قـــذار

العـــار في الـــدنيـــا شقـــوا بلبـــاســـه
ولبـــاسهـــم يـــوم الحســـاب النـــار

كـــم سيرة أحييتهـــا عمـــريـــة
رفعـــت لها في الخافقين منـــار

ونـــوافـــل صيرتهنّ لـــوازمـــا
بـــأقلهـــا تستعبـــد الأحـــرار

والـــديـــن يشهـــد أنـــه لمعـــزه
والشرك يعلـــم أنـــه لمهينـــه
مـــا زال يقســـم أن يبـــدّد شملـــه
واللّـــه يكـــره أن تمين يمينـــه
فتـــح الـــرهـــا بـــالأمـــس فـــانفتحـــت لـــه
أبـــواب ملـــك لا يـــزال مصـــونـــه

وممادح نور الـدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافـظ أبو القاسم أنـه كان قليـل الابتهـاج بـالشعـر، ومات حـادي عشر شـوّال سنـة تسـع وستين وخمسمائة، ودفـن بقلعـة دمشـق، ثـم نقـل إلى قبتـه بمـدرستـه بجـوار الخواصين.

قلـت :وقد جـرّب استجابـة الدعـاء عنـد قبره، وهذا ذكـر طرف مـن مناقبـه جملة ، ونحن بعد ذلـك نأتي بأخبـاره وأخبار سلفه مفصلة مـرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء اللّه تعالى

فصل

أصل البيـت الأتابكـي هو قسيـم الدولـة آق سنقر جـدّ نور الـدين، فنذكره وما تـم في أيامه، ثم نذكر ولـده زنكي وما تم في أيامه، ثـم نذكر ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعـده، وهي الدولةالصلاحية الايوبية، وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقـر تركيا مـن أصحاب السلطان ركـن الدين ملكشـاه بن ألـب أرسلان ، وهـو عـم دقاق بـن تتـش بن ألـب أرسـلان الذي كـان سلطـان دمشق، وقبره بقبـة الطواويـس بها، بنتـه والمشهد والـدته، وكـان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بني بويـه بالعراق، فكان قسيـم الدولة من أصحـابه وأترابه وممـن ربي معه في

صغـره، واستمرّ في صحبتـه إلى حين كبره،فلما أفضت السلطنـة بعد أبيـه إليه جعلـه من أعيـان أمرائه، وأخـص أوليائه، واعتمـد عليه في مهماتـه، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يتقيه مثل نظـام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان، وتمكنـه من المملكة، فأشـار نظام الملك على السلطـان أن يولي آق سنقـر مـدينـة حلـب وأعمالها، وأراد بـذلـك أن يبعـده عـن خـدمـة السلطان، ويتخذ عنده يداً بذلك.

قـال ابن الاثير: ومـن الدليـل على علوّ مـرتبتـه، تلقبه قسيـم الدولـة، وكانـت الألقاب حينئـذ مصونـة لاتعطى إلا لمستحقيهـا. وفي سنة سبـع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشـاه الوزيـر فخر الـدولة بـن جهير، وكان زوج ابنـة نظام الملك إلى الموصـل، وسير معه جيشـاً عظيماً، وجعل المقدّم على الجيش قسيـم الدولة آق سنقر فسار نحـو الموصل، ولقيهم في الطريـق الأمير أرتق التركماني جـدّ ملوك الحصـن وماردين فإستصحبـوه معهـم، فحصروا الموصل ، وحـاربوا من بها وتسلموها، وسـار صاحبها إلى السلطان فـردّها عليـه وكانت يـومئذ لأحد أمـراء بني عقيـل، وهو شرف الـدولة مسلـم بن قـريش بـن بدران العقيلي، وكـان ملكه مـن السنديـة بالعـراق على نهر عيسى إلى منبـج وما بينهما مـن البلاد الفـراتية: كهيـت والأنبار وغيرها، وملك الموصل وديار بكر والجزيـرة بأسرها، وملك مدينة حلـب، وكان عـادلاً حسن السيرة، عظيـم السيـاسة واتفـق ان وقع بينـه وبين صاحب أنطـاكية خلاف، وذلك أن أنطـاكية كان الروم قـد استولوا عليها سنـة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالـوا بها إلى هذه السنـة، ففتحها سليمان بـن قتلمش، وهـو جدّ الملـك غيـاث الديـن كيخسرو، صاحـب قونية وغيرهـا، وكان لشرف الدولة صـاحب حلب على صاحـب أنطاكية الـرومي جـزية يـأخذهـا كـل سنة، فـانقطعت عنـه بسبب أخـذ سليمان البلاد، فأرسـل شرف الدولة يطلب منـه ما كان يأخـذه من الروم وتهدّده، فقـال: أنا في طـاعتك وهـذا الفتح بسعـادتك، والخطبـة والسكة لـك ، ولست بكافر حتـى أعطيك ما كنت تأخذه من الـروم ،فلج شرف الدولة

في طلب المال، فالتقيا فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه، فالتقى عسكر تتش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها، وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطير النميري قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار، وسلمها اليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه إليها في هذه السنة، فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان، فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم، سار إليهم فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي وهو ابن عم شرف الدولة ، فسلمها إلى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفرة، من صاحبها جعبر القشيري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي، فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة، كما سيأتي، وأقطع السلطان مدينة أنطاكية الأميرياغي سغان، ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده، ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق، فقدم إليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها، فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت، فملكها وفي سنة احدى وثمانين قصد قسيم

الـدولة شيـزر فنهبهـا، وعاد إلى حلـب، وفي سنـة ثلاث وثمانين اجتمـع قسيم الدولة وبـزان وحصروا مدينة حمص فملكوها، ومضى ابـن ملاعب إلى مصر، وفي سنـة أربع وثمانين ملـك قسيـم الدولـة حصـن فـامية مـن الشام، وملك الرحبة.

فصل

وفي عاشر رمضان سنـة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الـدين أبو علي الحسن بـن علي بن اسحـاق، قتله صبـي ديلمي بعـد الافطار وقـد تفرّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقيه صبـي ديلمي مستغيثاً به فقرّبه منه ليسمـع شكواه فقتلـه، وقتل الصبـي أيضا فعـدمت الـدنيا واحـدها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قـد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبـي صلى الّله وسلـم في المنـام ، كـأنه أتـاه وأخـذه مـن محفته فتبعـه، فاستبشر نظـام الديـن بذلك وأظهـر السرور به، وقـال: هذا أبغـي وإياه أطلب ، وكـان قد بلـغ من الـدنيا مبلغـا عظيما لم ينله غيره، وكـان عالما فقيهـا دينـا خيراً متواضعـا عـادلا، يحب أهـل الـدين ويكـرمهـم ويجزل صلاتهم، وكان أقـرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان ينـاظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدّة، وأما صدقـاته ووقوفه فلا حد عليها، ومـدارسه في العالم مشهورة، لم تخل بلد مـن شيء منها حتـى جزيـرة ابن عمـر التي هـي في زاوية مـن الأرض لايؤبـه لها بنى فيهـا مدرسة كبيرة حسنـة، وهي التـي تعرف الآن بمـدرسـة رضي الديـن، وأعمالـه الحسنـة وصنـائعـه الجميلة مـذكـورة في التواريخ لم يسبقه مـن كان قبله ولا أدركه من كان بعـده، وكان من جملة عبـاداته أنـه لم يحدث إلا تـوضأ ولاتـوضـأ إلا صلى ، وكـان يقرأ القـرآن حفظاً ، ويحافـظ على أوقات الصلـوات محافظة لايتقدمـه فيها المتفـرّغون للعبـادة حتى أنـه كـان إذا غفـل المؤذن أمره بـالأذان، واذا سمـع الأذان

أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل باجابته، ثم بالصلاة، وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان، والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة في حياة عمه السلطان طغر لبك أوّل الملوك السلجوقية ببغداد، فلما توفى طغر لبك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرّت السلطنة له وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتل، وكان قد تحكم عليه،إلى حد لايقدر السلطان على خلافه، لكثرة مماليكه ومحبة العساكر له والأمراء، وميل العامة والخاصة إليه، لحسن سيرته وعدله، وهذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتاب المعارف المتاخرة، ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمذاني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي للسلطان ألب أرسلان، ولولده السلطان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما، اغتاله أحد الباطنية، وقد فرغ من فطوره، قال: وقيل إن السلطان ملكشاه ولف عليه من قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام، وقد تقدّم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم، وأفضل على الخلق الافضال الكثير، وعم الناس بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي ووقف عليهم الوقوف ،وزاد في الحلم والدين على من تقدّمه من الوزراء،ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوقع على العامل بأنطاكية، بما يصرف على الملاحين، وملك من الغلمان الأتراك ألوفا، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

قلت: وأنشد أبو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغداد فقال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني غير مرة من لفظه للأميرشبل الدولة يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل بن عطية البكري:

كــان الــوزيــر نظــام الملــك لــؤلــؤة
ثمينــة صــاغهــا الــرحمن مــن شرف
عــزت ولم تعــرف الأيــام قيمتهــا
فــردّهــا غيرة منــه إلى الصــدف

فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً ،ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف العام، وكانت مملكته قد اتسعت اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز، واسبيجاب وكاشغر وبلا سغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمر قند، وجميع ماوراء النهر، ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به، وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر الكثير، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر ممايلي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضا، قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقصة، وبنى هناك منارة ترك في أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها في طريقه، وبعد موته تنازع ابناه بركياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو إثنتي عشرة سنة إلى أن توفى بركياروق، واستقرّت السلطنة لمحمد، وفي مدّة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل، وملكوا انطاكية أوّلا، ثم غيرها من البلاد.

وكان السلطان قد اقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وماجاورها، كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران، وياغي سغان صاحب أنطاكية فساروا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما، وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل، وأخذت بلاده، وسار إلى ميافارقين، فملكها وسائر ديار بكر، ثم سار إلى أذربيجان، فالتقى هو وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فانتقل قسيم الدولة وبوزان إلى بركياروق،فرجع تاج الدولة إلى الشام،ورجعا إلى بلادهما بأمر بركياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها، فجمع تاج الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدّهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي صار فيها بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً فقتله تاج الدولة صبراً ودخل بُزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بهما من التسليم، فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين، وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الاثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ،فأمنت الطريق وتحدث الركبان بحسن سيرته.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة، وهو أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر ، وأمه تركية، وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه، فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار، في فصول إلى حين وفاته، ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي والد نور الدين، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضا، ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم سار إلى نصيبين فملكها ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو ماردين فملكها وعظم شأنه، وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده، فأقطعهم الاقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين

سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا، وهو أوّل مصاف حضره زنكي بعد قتل والده، ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وملك بعده موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي فقربه وأحبه، واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة، فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدمه وأقطعه اقطاعا كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهراً.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاولي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الدين رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زنكي وغيره من الأمراء، فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مودود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان كانت للفرنج، وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها، ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً ، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه، وتقدّم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج ، فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه، وقاتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أوّلا، ومن سلامته آخرا، ثم التقى

الجمعـان فهـزم الفـرنـج لعنهـم اللـه ووصلـوا الى مضيـق دون طبريـة، فاجتمعـوا به وجـاءتهم نجدة فأذن الأمير مـودود للعسكر في الـرجوع إلى بـلادهم، والاجتماع إليـه في الـربيع، فلما تفـرقـوا دخـل دمشق وأقـام بها فخرج يوما يصلي الجمعة فلما صلاها وخـرج من صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليـه انسان فضربـه بسكين معه فجرحـه أربع جـراحات، وكان صائما فحمل إلى دار طغتكين واجتهد بـه ليفطر فلم يفعل، وقال : لا لقيت اللـه إلا صائما فـإنني ميت لا محالـة سواء أفطـرت أو صمت ، وتوفي في بقيـة يومـه رحمه الله، فقيـل إن الباطنيـة بالشـام خافـوه فقتلوه، وقيل بل خافـه طغتكين، فوضع عليه من يقتله، وكـان خيراً عادلاً حسن السيرة.

قال ابـن الاثير: حدثني والدي رحمه اللـه قال: كتب ملك الفـرنج إلى طغتكين:«إن أمة قتلت عميـدها يوم عيدها في بيت معبـودها لحقيق على اللـه أن يبيـدها ».فلما قتـل الأمير مـودود أقطـع السلطان بـلاد الموصـل وغيرها للامير جيوش بك، وسير معه ولـده الملك مسعود إلى الموصل، ثم أنه جهـز آق سنقر البرسقي في العساكـر وسيره إلى قتال الفرنـج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرهـا يأمرهـم بالمسيرمعه، فسـاروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بـزنكي الشامي، فسار البرسقي إلى الـرها في خمسـة عشر ألـف فـارس فحصرها، وقتـل مـن بها مـن الفرنـج والأرمن ، وضـاقت الميرة عـن العسكر، فـرحل إلى سميسـاط وهي أيضـا للفرنج فأخـرب بلدها وبلد سروج، وعاد إلى بلد شبختان فـأخرب ما فيه من الفـرنج، وأبلى زنكي في هـذه المواقف كلهـا بلاء حسنـا، ثم عـادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقـي إلى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملـك مسعود والأمير جيوش بـك إلى سنة أربـع وعشرين وخمسمائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولـد الملك العادل نور الـدين محمود ابن زنكـي رحمه الله، وفيها غـرقت سنجار مـن سيل المطر، وهلـك منها خلق كثير، ومن أعجـب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيـه طفل ، فتعلق المهد في شجرة، ونقص الماء فسلم ذلك الطفـل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

وفيها في الرابـع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غيـاث الدين محمد بـن ملكشاه، وعمـره سبع وثلاثـون سنة وأربعـة أشهر وستـة أيام ، وأول ما خطـب له ببغـداد في ذي الحجة سنـة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عـدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار مـا لم يلقه أحد إلى أن توفي أخـوه بركياروق، فحينئذ استقـرت له السلطنة وصفت لـه ودانت البلاد، وأصحاب الاطـراف لطاعته، وكان اجتماع الناس عليـه بعد موت أخيه اثنتـي عشرة سنة وستـة أشهر، وكـان عادلاً حسـن السيرة شجاعـا، وأطلق المكـوس والضرائب في جميع البـلاد، ومن عـدله أنـه اشترى عدة مماليك من التجـار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خورستـان، فأوصل إليه البعض، ومطل البـاقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخـذ غلام الحاكم ووقف بطـريق السلطان، واستغـاث إليه، فأمر مـن يستعلم حالـه، فعاد الحاجب وأعلم السلطـان حاله، فعظم عليه وضـاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجـر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكـم، وكان يقـول كثيرا: لقد نـدمت على تـركي حضـور مجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن اداء الحق.

قال ابن الاثير: وهذه الفضيلـة ذخرها الّله تعالى للبيت الأتـابكي ،فإن

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، وقد تقدم ذلك

ولما علم الأمراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمن الناس وظهر العدل.

وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة، فقام بالسلطنة ، وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب إنهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعه من البلاد إلى حدّ خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، ومن الممالك همذان وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل والجزيرة، وديار مضر، وديار ربيعه، والشام، وبلد الروم، الذي بيد قليج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الاثير : ورأيت منشوره بذلك

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين، خطب لهم ببغداد من السلجوقية وهم: أخو ملكشاه تاج الدولة تتش ، وركن الدولة بركياروق بن ملكشاه، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه، وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب، مشكور المساعي، يحب العلم والعلماء، وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسن الخط، جيد التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله، ودفن في حجرة كان يألفها.

وفي أيامه توفي جماعة من العلماء، ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، وفي ذي . القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف «حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن»يزيد على ثلاثمائة مجلد.

قال ابن الاثير:رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير، وفي ذي الحجة توفي الإمام أبو نصر الحميدي مصنف الجمع بين الصحيحين، وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي، وله نحو تسعين سنة، وفي سنة اثنتين وخمسين ومائة توفي أبو زكريا التبريزي اللغوي . وفي ذي الحجة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن صاحب الخط المشهور، وفي سنة خمس وخمسمائة، توفي الإمام أبو حامد الغزالي، وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن الشاشي الفقيه، رحمهم الله أجمعين.

فصل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل، مع أتابكة جيوش بك فبقي مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسن له الخروج عن طاعته، وطلب السلطنة، فأظهر العصيان، وخطب للملك مسعود بالسلطنة، وكان زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع، فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان منهم الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن اسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود، وقال قا. صح عندي فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة

وخمسمائة، وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه، ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه، وسماه الحسين بن علي بن عبد الصمد الديلمي، وأنشد له أشعاراً حسانا منها:

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا
فكن عبدا لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعا
كما تهواه فاتركها جميعا
هما سيان من ملك ونسك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء
سوى هذين يحيى بها وضيعا

ثم استأمن من مسعود وأتابكه جيوش بك، فأمنهما السلطان، وأخذ الموصل منهم فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة وسيره اليها، وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتقدّم والده في الايام الركنية، وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عظما وهاب الأمير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ناحيته،وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات، وهمّ دبيس بقصد بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد باللّه بنفسه فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير، وكان لعماد الدين زنكي أثر حسن في هذه الواقعة أيضا بين يدي الخليفة، وذلك في أوّل المحرّم سنة سبع عشرة.

وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد، وصار معه في خواص أصحابه، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود، وأمر السلطان محمد للبرسقي أن يرجع إلى الموصل فعاد واستدعى زنكي من البصرة ليسير معه إلى الموصل ، فقال زنكي لأصحابه : قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة، وتارة بالشام، فسار من البصرة إلى السلطان محمود، فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السلطان عن يمينه لايتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

ثم اتى السلطان الخبر أن العرب اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي، وقت اختلاف العساكر والحروب، ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله، وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة، فتهدده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد، وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق، فسار السلطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق، يؤمن معه من الخليفة، ويضبط الأمور فولى ذلك زنكي مضافا إلى ما بيده من الإقطاع ، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد صلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة، وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، لايستعين في وضوئه

بـأحد، فقـرّر السلطان ولـده عـز الديـن مسعـود على ما كـان لأبيه مـن الأعمال، وهـي الموصـل وديار الجزيـرة وحلـب وحماه وجـزيرة ابـن عمـر وغيرها، وكان شـابا عاقلا فضبط البـلاد، فلم تطل أيامه وتـوفي سـنة إحـدى وعشريـن، وولي الأمـر بعده أخـوه الصغير، وقـام بتـدبير دولتيهما الأمير جاولي، وهـو مملوك تـركي مـن مماليـك أبيهما، فجرت الأمـور على أحسن نظام.

فصل

في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وسبب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المراسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته، والتصرف بحكمه، وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زنكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان، فأنهى الوزير إلى السلطان، فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي وعظما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعا وكتب منشوره بها.

وسار من بغداد إلى البوازيج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام هو بالموصل يصلح أمورها،و يقرّر قواعدها، فولى نصير الدين

دزدارية قلعة الموصل، وفوّض إليه أمر الـولاية جميعها،وجعل الدزدارية في البلاد جميعها لـه، وجعل الصلاح محمد اليـاغيساني أمير حاجب الـدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بـلاده جميعها، وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بها وعدهم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطـا معه، وقربا منه، ورتب الأمـور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكـانت الفـرنج قـد اتسعت بـلادهـم، وكثرت أجنـادهم، وعظمـت هيبتهم، وزادت صـولتهم، وامتـدت إلى بلاد المسلمين أيـديهم، وضعف أهلهـا عـن كـف عـاديهم، وتتابعـت غـزواتهم، وسـامـوا المسلمين سـوء العـذاب، واستطار في البـلاد شرر شرّهـم، وامتدّت مملكتهـم مـن ناحيـة مـاردين وشبختـان إلى عـريـش مصر لم يتخلله مـن ولايـة المسلمين غير حلـب وحماه وحمص ودمشق، وكـانت سرايـاهـم من ديـار بكر إلى آمـد، ومـن ديار الجزيـرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهـل الرقـة وحرّان فقـد كانـوا معهم في ذلّ وهـوان، وانقطعت الطـرق إلى دمشق إلاّ على الـرحبة والبر، ثم زاد الأمر، وعظـم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلـد جاورهم خراجـاً وأتاوة يأخـذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهـم، ثم لم يقنعوا بـذلك حتـى أرسلوا إلى مـدينة دمشـق واستعرضـوا الرقيـق ممن أخـذ من الـروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهـم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطـانهم، فمن اختـار المقـام تـركوه، ومـن آثـر العـود إلى أهله أخـذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأمـا أهل حلـب فإن الفـرنج أخـذوا منها منـاصفة أعمالها، حتـى في الرحا التي على باب الجنان، وبينهـا وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشدّ من حال أهل هذين البلدين، فلما نظر الله سبحـانه وتعـالى إلى بلاد المسلمين، ولاهـا عماد الديـن زنكي، فغـزا الفرنـج في عقر ديارهم، وأخـذ للموحديـن منهم بثارهم، واستنقـذ منهم

حصونـا ومعاقل، وسيأتـى تفصيل ذلك، ومـا فتحه من البلاد الاسـلامية هو وابنه من بعده، إن شاء اللّه تعالى.

فصل

ثم شرع زنكـي رحمه الله في أخذ البـلاد، فافتتح جـزيرة ابن عمـر، ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشريـن، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الاولى سنـة ثـلاث وعشريـن إلى سنجـار، فتسلمهـا وسير منهـا الشحن إلى الخابـور فملكه، ثـم قصد الـرحبة، فملكـت قسراً، ثم افتتـح نصيبين، وسار إلى حـران، وكانت الـرها وسروج وغيرهما من ديـار الجزيرة للفرنـج لعنهم الله، وأهـل حران معهم في ضيـق عظيم، فراسلـوا زنكي بالطاعة، واستحثـوا على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفـرنج مدة يسيرة يعلـم أنه يفـرغ فيها مـن الاستيلاء على مـا بقي لـه من البـلاد الشاميـة، والجزرية، وكـان أهم الاشيـاء عنده عبـور الفرات، وملـك مدينـة حلب، وغيرها مـن البلاد الشاميـة، فلما عبر الفرات ملـك مدينة منبـج وحصن بزاعة، وحاصر حلـب، ثم فتحت له، فرتب أمـورها، وسار عنها إلى حماه فملكهـا، وقبـض على صـاحـب حمص وحـاصرهـا، وذلـك سنـة ثـلاث وعشرين.

وفي سنة أربـع وعشرين اتفق صـاحب آمد مـع صاحب حصـن كيفا وغيرهم مـن الملوك، وجمعـوا عساكـر نحو عشريـن ألفا، وقصـدوا زنكي فلقيهم فهزمهم، وملك سرجة ودارا، ثـم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب، وكـان أضر شيء على أهل حلـب، فجمع الفـرنج جمعـا عظيماً، فهـزمهم وقتلهـم مقتلـة عظيمة، بقيـت عظـام القتلى بتلك الأرض مـدّة طويلـة ، ثم رجع إلى الحصـن فملكه عنوة فـأخربه، ومحا أثـره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم، فـأنفذ من لم يحضر المعركة من الفـرنج، ومن نجـا منها يسألـون الصلح، ويبـذلون له المنـاصفة على

ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل، فأراد أن يستريحوا، فهادنهم، وعاد عنهم، وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن، وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استولى زنكي على مدينة حماه وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذ رجاله، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دبيس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزما، فطلبه زنكي وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه .ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهمذان، وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليما كريماً عاقلاً كثير الاحتمال، وطلب السلطنة بعده ولده داود ابن محمود، وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان محمد، فجرت بينهم حروب، واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان، وأصفهان والري، وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى الموصل في ثلاثين ألف فارس، فحصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد، ولم يبلغ غرضا.

وفي سنة تسع وعشرين استولى زنكي على سائر قلاع الحميدية وولاياتهم منها قلعة العقر، وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمد، ثم مدينة دمشق، وفيها توفيت والدته بالموصل.

وفي المحرم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن

ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد، فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد، وهو في الخيمة فقتلوه، وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور ابن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالراشد، وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشر سنة وسبعة أشهر، وكان شهما شجاعا مقداما فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلاّ أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة الديلم، فلما ملك السلجوقية جدّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلاّ أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد أو ضمان البلاد، لم يكن للخلفاء إلاّ إقطاع يأخذون دخله، وأما المسترشد فانه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود،ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر بالحرب.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل بصحبة زنكي ملتجئاً إليه، وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال، وتلوّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه، وخافه الباقون، وتقدّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها، فخرج الراشد ملتجئاً إلى زنكي، فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمة أبى عبد الله محمد بن المستظهر باللّه، ففعل ذلك ولقب

المقتفي لأمر اللّه، وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان، ثم إلى همذان، فاجتمع إليه ملوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهز م الراشد، وقصد أصبهان فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودفن بأصبهان.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك اسماعيل وأخوته بني تاج الملوك بوري ابن طغتكين أتابك، وهي أخت الملك دُقاق، وإليها ينسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبى حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق، بأرض صنعاء، وتسلم قلعة حمص.

فصل

في جهاد زنكي للفرنج

كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيماً، وكان زنكي مشغولاً بما تقدم ذكره، ولايمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحها عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرّية في شعبان، ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حلب، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكي يستنجده، فنزل على حماه، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد

نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوّة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون، وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم، وكان أتابك زنكي مع هذا يراسل فرنج الشام، ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق، وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر، لايبقى لمسلم معهم مقاما لاسيما مدينة حماه لقربها، ولما يسر اللّه تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أوّلها:

بعزمك أيها الملك العظيم
تذلّ لك الصعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الروم لما
تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا
كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه
فكان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا
فاحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور
توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم
يؤمّل أن تجود بها عليه
وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا
وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا
بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى الـ
ـمنية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوّف الافاق حينا
وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك
وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيوفك في نفوس
فأول ما يفارقها الجسوم

وله من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحب حماة.

وما جاء كلب الروم الا ليحتوي
حماة وهل يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة
وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب

وماذمّ فيها العيش حتى صدمنه
فمال جناح الجيش وانكسر القلب
فولى وأطراف الرماح كأنها
نجوم عليه بالمنية تنصب

ولابن منير قصيدة في مدح أتابك زنكي رحمه الله سيأتي بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها إن شاء اللّه تعالى، ومنها:

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي
أزحت به ما في الجناجن (٣٩) من نبل
اتاك بمثل الروم حشدا وإنه
ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمل
فقاتلته باللّه ثم بعزمة
تصك قلوب العاشقين بما يسلي
توهم أن الشام مرعى ومادرى
بأنك أمضى منه في الشزر والسحل (٤٠)
فطار وخير المغنمين ذماؤه
إذا راد عنه مغنم المال والأهل

قال ابن الاثير: ومن عجائب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر، قام الأمير مرشد بن علي أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفا، فرفعه بيده، وقال: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته.

ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه، وهو من أعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه، وأسر من به من الفرنج وأخربه، وعاد سالما غانما، وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش، وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشهرزوري قاضي

الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده، وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت.

فصل

في فتح شهر زور وبعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير:كانت شهر زور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجق بن أرسلان تاش التركماني، وكان ملكها نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً، فتحامى الملوك قصد ولايته، ولم يتعرّضوا لها لحصانتها، فعظم شأنه وازداد جمعه، فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده، فهزم عسكره وملك بلاد شهر زور وغيرها، فاضافها إلى بلاده وأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان، وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشام، فإنه كان لايرى المقام بل لايزال ظاعنا إما لردّ عدوّ يقصده، وإما لقصد بلاد عدوّ وإما لغزو الفرنج وسدّ الثغور، وكانت مياثر السروج آثر عنده من وثير المهاد، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذ في سمعه من الغناء، لايجد لذلك كله عناء.

وفي هذه السنة وهي سنة أربع وثلاثين ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي

وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، وكان محكوما عليه، والغالب على أمره معين الدين أنر مملوك جدّه

طغتكين، وكان أتـابك قد أمـر كمال الدين أبا الفضل بـن الشهر زوري بمكاتبـة جماعة من مقـدّمي أحداثهـا وزناطرتها واستمالتهـم واطماعهم في الرغائب والصلات، ففعل ذلك فأجـابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد وخرجـوا متفرقين إلى كمال الديـن ، وجدّد عليهم العهـود وتواعدوا يـوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا لـه الباب ويسلموا البلد إليه، فأعلم كمال الدين الشهيد أتـابك بذلك فقال: لاأرى هذا رأيـا فإن البلد ضيق الطـرق والشوارع، ومتـى دخل العسكـر إليـه لايتمكنون مـن القتال فيـه لضيقه، وربما كثـر المقاتلون لنا فنعجـز عن مقاومتهم لأنهم يقـاتلون على الأرض والسطـوحـات، وإذا دخلنـا البلـد اضطـررنـا إلى التفـرّق لضيـق المسالك فيطمع فينا أهله، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

ومن العجب أن محمـد بن بوري صاحب دمشق تـوفي وأتابك يحصره، فضبـط أنـر الأمور وسـاس البلـد فلـم يتغير بـالناس حـال، وأرسـل إلى بعلبك فأحضر ولـده مجير الدين آبق بـن محمد بن بوري ورتبـه في الملك مكان أبيـه فمشى الحال بتمكين معين الـدين أنـر وحسن تـدبيره، وهذا مجير الدين آبق هو الذي منه أخذ نـور الدين محمود بن زنكي دمشق كما سيأتي، ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك معين الدين أنر، فأرسل إليها نـائبه وتسلمهـا، فلما علم الشهيـد ذلك سـار إلى بعلبك وحصرهـا عدّة شهور فملكها عنـوة، وترك بها نجم الدين أيوب والـد صلاح الدين دزداراً، وعـزم على العود عنهـا إلى دمشق فجـاءتـه رسل صـاحبها ببـذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعـاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها،وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيـى بن أبي طي الحلبـي: واتفق أن الأمـراء لما نزلوا مـن بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابـك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان ولىّ قتلهم صـلاح الدين محمد بـن أيوب الياغيساني، فحكـى أنه أحضر إليه في جملـة الأمراء شيخ مليح الشيبـة ومعه ولد لـه أمرد كأنه فلقـة قمر،

فقال الشيخ لصلاح الـدين: سألتك بحياة المولى أتابـك ألا صلبتني قبل ولـدي لئلا أراه يعـالج سكـرات الموت، وكان نجـم الديـن أيوب واقفـاً فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الديـن في إطلاقه، فقال ما أفعل خوفاً من المولى أتابـك، فذهب نجم الديـن إلى أتابك وسألـه في الشيخ وولده وقص عليه ما قـاله، فأذن باطلاقه وإطلاق من بقـي من الجماعة، ووهبه نصف بعلبـك، وقيل إن نجـم الدين قـد ورد على أتابـك وهو قـد ملك بعلبك فسألـه في الأمراء فأطلقهم لـه وولاه بعلبك وكتب له ثلثهـا ملكاً، واستقر فيهـا هو وأهله، ولم يـزل بها إلى أيام نور الـدين محمود بـن زنكي فأخـرجه منها على ما سنـذكره، ثم إن أتـابك بعد ملكه بعلبـك سار إلى دمشـق فنـزل البقاع، فـوردت هـدية صـاحـب دمشق، ويطلـب العـود ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص، فأشـار نجم الدين على زنكي بقبول ذلـك وقال: هذا مـال كثير، وقد حصـل بلا تعب، وبلـد كبير بلا عنـاء، ودمشـق بلـد عظيـم وقـد ألـف أهلـه هــذا البيـت وتمرّنـوا على سياستهـم، وقد بلغتهم الأحـوال التي جرت ببعلبـك، فامتنع زنكـي عن قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارين، وهو للفرنج ، فصبرالفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير(٤١)، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم، فدخلوا حصن بارين،وفيهم ملك القدس لأنه كان قرب حصونهم، وأسلموا عدّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح، ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلاّ أخذهم قهراً، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم، فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومن بالحصن لايعلمون بشيء من ذلك لقوّة الحصر عليهم، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين فحلفوا لهم: إنا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الاثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطعت السبل، فأزال اللّه تعالى بالشهيد رحمه اللّه هذا الضرر العظيم.

وفي مدّة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب، وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج، ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حذار منا وأنى ينفع الحذر
وهي الصوارم لاتبقي ولاتذر

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك
من خيله النصر لا بل جنده القدر

سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها
صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم
في مأزق من سناه يبرق البصر

ولوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم
والموت لا ملجأ منه ولا وزر

وفي المسافة من دون النجاة لهم
طول وإن كان في أقطارها قصر

وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا
يخاف والكفر لا عين ولا أثر

فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة
فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا

وطالما استفحل الخطب البهيم بهم
حتى أتى ملك آراؤه غرر

والسيف مفترع أبكار أنفسهم
ومن هنالك قيل الصارم الذكر

لافارقت ظل محيي العدل لامعة
كالصبح تطوي من الاعداء ما نشروا

ولاانثنى النصر عن أنصار دولته
بحيث كان وإن كانوا به نصروا

حتـــى تعـــود ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
كـــأنما حـــلّ في أكنـــافهـــم عمـــر

وقال ابن منير

فـــدتـــك الملـــوك وأيـــامهـــا
ودام لنقضـــــك ابـــــرامهـــا
وزلـــت لعيشـــك أقـــدامهـــا
وزال لبطشـــك إقـــدامهـــا
ولـــو لم تسلـــم إليـــك القلـــو
ب هـــواهـــا لما صـــح إســـلامهـــا
أيـــا محيـــي العـــدل لما نعـــا
ه أيـــامـــى البرايـــا وأيتـــامهـــا
ومستنقـــذ الـــديـــن مـــن أمّـــة
أزال المحـــاريـــب أصنـــامهـــا
دلفـــت لها تقتفيـــك الاســـو
د والبيـــض والسمـــر آجـــامهـــا
جـــزرت جـــزيـــرتها بـــالسيـــو
ف حتـــى تشـــاء مهـــا شـــامهـــا
وصـــارت عـــواري أكتـــافـــه
متـــى شئـــت أرخـــص مستـــامهـــا

قال ابن الاثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الامر قد فات أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين، فنازلوا حلب وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم، فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدوّ فيها والاغارة عليها، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر، فقال له كمال

الـدين: أخـاف أن تخرج البلاد مـن أيدينـا ويجعل السلطـان هذا حجـة وينفـذ العساكـر، فإذا تـوسطوا البـلاد ملكـوها، فقـال الشهيد: إن هـذا العدوّ قد طمـع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسـلام، وعلى كل حال فـالمسلمـون أولى بها مـن الكفار، قـال: فلما وصلـت إلى بغـداد وأدّيـت الرسـالة وعدني السلطـان بانفاذ العساكـر، ثم أهمل ذلك ولم يتحـرك فيه بشيء وكتب الشهيـد إليّ متصله يحثني على المبادرة بـانفاذ العساكـر، وأنا أخاطب فلا أزاد على الوعد.

قـال: فلما رأيـت عدم اهتمام السلطـان بهذا الامـر العظيـم، أحضرت فلانـا(وهو فقيـه كان ينوب عنـه في القضاء) فقلت: خـذ هذه الـدنانير وفـرقها في جماعـة مـن أوباش بغـداد والأعاجـم، وإذا كـان يوم الجمعـة وصعـد الخطيـب المنبر بجامـع القصر قـامـوا وأنـت معهم، واستغـاثـوا بصـوت واحـد:«وا اسـلامـاه» « وا دين محمـداه» ويخرجـون مـن الجامـع ويقصـدون دار السلطنة مستغيثين، ثـم وضعت انسـاناً آخـر يفعل مثـل ذلك في جـامع السلطان ، فلما كانـت الجمعة وصعد الخطيـب المنبر، قام ذلك الفقيـه وشق ثـوبه، وألقـى عمامته عـن رأسه وصـاح، وتبعه أولئـك النفـر بالصيـاح والبكاء فلـم يبق بـالجامـع إلا من قـام يبكي، وبطلـت الجمعـة وسار النـاس كلهـم إلى دار السلطان وقـد فعـل أولئـك الذيـن بالجامع مثلهم، فاجتمع أهل بغـداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثـون، وخرج الأمر عن الضبـط وخاف السلطان في داره، وقـال: ما الخبر؟فقيـل لـه: إن الناس قـد ثـاروا حيـث لم ترسـل العسـاكـر إلى الغـزاة ، فقال: أحضروا ابـن الشهـرزوري، قـال: فحضرت عنـده وأنا خـائف منـه لأنني قـد عزمـت على صـدقه وقـول الحق، فلما دخلت عليه قال: ياقاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر، ولاشك ان السلطـان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحـو اسبوع، ولئن أخـذوا حلب، انحدروا إليـك في الفرات، وفي البرّ وليس بينكم بلـد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمـر عليه حتى

جعلته كأنه ينظر اليهم، فقال: اردد هؤلاء العـامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والأمداد تلحقك، قال: فخـرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعـرّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفـرّقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيـد أعرّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدّد استئذانـه في ذلك، فأمرني بتسييرهـم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأنّ الروم والفرنـج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينـالوا منهـا غـرضا، ويـأمـرني بترك استصحاب العسـاكـر، فلما خوطـب السلطان في ذلك أصرّ على انفاذ العساكر إلى الجهـاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذهـا، وكان قصده أن تطـأ عساكـره البلاد بهذه الحجة فيملكهـا،فلم أزل أتوصـل مع الوزيـر وأكابرالـدولة حتـى أعدت العساكـر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الاثير: فـانظروا إلى هذا الرجل الـذي هو خير من عشرة آلاف فارس- يعنـي كمال الدين - رحم اللـه الشهيد، فلقد كان ذا همة عـالية ورغبة في الرجـال ذوي الرأي والعقل يرغبهـم ويخطبهم من البلاد ويـوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قـال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الديـن يحصل له في كـل سنة منـك ما يـزيـد على عشرة آلاف دينار أميريـة وغيره يقنع منـك بخمسمائة دينار، فقـال لهم: بهذا العقل والـرأي تدبـرون دولتي، إن كمال الدين يقلّ لـه هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فـان شغلا واحد يقوم فيـه كمال الدين خير مـن مائة ألـف دينار، وكان كما قـال رحمه الله تعالى.

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها، وكانت هذه العمادية حصنا كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره، فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول اللّه لاأعجز عنه، فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه « القلعة العمادية» نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خطب لأتابك بآمد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته ، والخطبة له فأجابه إلى ذلك، وفيها ملك الشهيد مدينة عانة

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد دمشق فشتى بها، وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعسكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فتردّدت الرسل بينهما حتى استقرّت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له : إن ملك البلاد لايقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين،فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوة، ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يمدّونهم بالعساكر الكثيرة، ولايقدرون على حفظها، ولايزال

الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلـد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمدّه أحد من السـلاطين بفارس واحد ولابمال، ومع هـذا فقد فتح من بـلاد العدّو عدّة حصـون وولايات وهـزمهم غير مرة واستضعفهـم، وعز الاسـلام به، ومن الأسباب المانعـة له أيضا أن الشهيد كان لايـزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خـدمة السلطان مسعود بأمر والـده، وكان السلطان يحبه ويقرّبه ويعتمد عليـه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يـأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبـه بالموصل يأمره أن يمنعه مـن دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعـل ذلك، وقال له: ترسل إلى والـدك تستأذنه في الـذي تفعله، فـأرسـل إليه فعـاد الجواب: إننـي لاأريدك مهما السلطـان ساخط عليـك، فألزمه بالعـود إليه، فعاد ومعه رسـول إلى السلطان يقول له: إننـي لما بلغني أن ولدي فـارق الخدمة بغير أذن لم اجتمع بـه ورددته إلى بـابـك، فحـلّ هـذا عنـد السلطـان محلاً كبيراً، وأجـاب إلى مـا أراد الشهيد، ولما استقرّ المال حمل منـه نحو عشرين ألف دينـار، ثم إن الأمور تقلبـت، وعاد أصحـاب الأطـراف خرجـوا على السلطـان ، فاحتـاج إلى مداراة الشهيد، وأطلق له الباقي، إستمالة له.

وفي هذه السنـة سار الشهيد إلى ديـاربكر ففتـح عدّة بلاد منهـا طنزة وأسعـرد، وملك مـدينـة المعدن الـذي يعمل منـه النحـاس من أرمينيـة، ومدينة حيزان، وأخـذ من أعمال ماردين عدّة مواضـع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني، وحاصر آمد، وأرسـل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرها

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدّس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون : كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين والرقة، وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لاينال منها غرضا مادام جوسلين بها، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو « يسر حسوا في ارتغاء(٤٢)» فهو يخطبها، وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنّ أنه لافراغ له إليه، وأنه لايمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرها، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحراً من سلاح

وألسنـــــة مـــــن العـــذبـــات حمر
تخاطبنـــابـــأفـــواه الـــريـــاح

وأروع جيشـــــه ليـــــل بهيـــم
وغـــرّتـــه عمـــود للصبـــاح

صفـــوح عنـــد قـــدرتـــه ولكـــن
قليـــل الصفـــح مـــا بين الصفـــاح

وكـــان ثبـــاتـــه للقلـــب قلبـــا
وهيبتـــه جنـــاحـــا للجنـــاح

وألح الشهيد في حصـارها فملكها عنوة فاستباحهـا ، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفـرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي، ثـم إنه دخل البلد فراقـه، فأنف لمثله مـن الخراب، فأمر بإعادة مـا أخذ من أثاث ومـال وسبي ورجال وجوار وأطفـال، فردّوا عن آخرهـم لم يفقد منهـم إلاّ الشاذ والنـادر، فعاد البلـد عامـراً بعد أن كـان داثراً، ثم رتـب البلد وأصلح من شأنـه، وسار عنه فاستـولى على ما كان بيد الفـرنج مـن المدن والحصون والقرايـا، كسروج وغيرها، وأخلى الـديار الجزرية من معـرة الفرنج وشرهـم، وأصبح أهلهـا بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيما طـار في الآفاق ذكـره وطاب بها نشره وشهـده خلق كثير مـن الصالحين والأولياء.

قـال ابن الاثير: حكـى لي جماعة أعـرف صلاحهـم أنهم رأوا يوم فتـح الرهـا الشيخ أبا عبد اللّـه بن علي بن مهـران الفقيه الشافعي، وكـان من العلماء العـاملين والزاهـديـن في الدنيـا المنقطعين عنهـا، ولـه الكرامـات الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويتـه يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنـده من الارتيـاح ما لم يـروه أبدا، فلما قعـد معهم قال: حـدّثني بعض إخواني أن أتـابك زنكي قد فتـح مدينة الرهـا، وأنه شهد معـه فتحها يومنـا هذا، ثم قـال: ما يضرّك يـازنكي ما فعلـت بعد اليوم، يردد هذا القـول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم، فكان يـوم الفتح،ثم إن

نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا.

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرهاسير ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس، وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتدّ هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدّة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلوّ منزلة الرها عند النصرانية.

قال وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلا من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل اللّه بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها.

قلت: وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أوّلها

هو السيف لايغنيك إلاّ جلاده
وهل طوق الاملاك إلاّ نجاده

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وإن فات العيون اتقاده

سمت قبة الاسلام فخراً بطوله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيم الدين ابن قسيمها
عن اللّه ما لا يستطاع زياده
ليهن بني الايمان أمن ترفعت
رواسية عزاً واطمأن مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه
شهي إلى يوم المعاد معاده
أراح قلوباً طرن عن وكناتها
عليها قوافي كل صدر فؤاده
لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة
ولم يغن عند القوم عنه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجة
يفلّ حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها
ترقت إليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها
إلى أن ثناها من يعز قياده
فأوسعها حرّ القراع مؤيد
بصير بتمرين الألد لداده
كأنّ سنا لمع الأسنة حوله
سرار ولكن في يديه زناده
فأضرمها نارين حرب وخدعة
فما راع إلاّ سورها وانهداده
فصدّت صدود البكر عند افتضاضها
وهيهات كان السيف حتما نفاده
فيا ظفراً عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد فساده

فلا مطلق الا وشدّ وثاقه
ولا موثق إلّا وحل صفاده
ولا منبر إلاّ ترنح عوده
ولا مصحف إلاّ أنار مداده
فان يثكل الابرنز(٤٢) فيها حياته
وإلاّفقل للنجم كيف سهاده
وباتت سرايا القمص تقمص دونها
كما يتنزاعن حريق حراده
إلى أين يا أسر الضلالة بعدها
لقد ذلّ غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر
يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأي لو أن عزمه
رمى سد ذي القرنين أصمى سداده
وقل للملوك الكفر تسلم بعدها
ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى
فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان املاك السموات جنده
فأية أرض لم ترضها جياده
وللّه عزم ماء سيحان ورده
وروضة قسطنطينية مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهر زوري أوّلها:
هي الجنة المأوى فهل من خاطب..

يقول فيها:
إن الصفائح يوم صافحت الرها
عطفت عليها كل أشوس ناكب

فتح الفتوح مبشراً بتمامه
كالفجر في صدر النهار الآيب
للّه أية وقفة بدرية
نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه
كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدّكم جيش الملائك نصرة
بكتائب محثوثة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تمم ريح الصبا
جند النبوّة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت
ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها
إن الدروب على الطريق اللاحب
أفغرّكم والثار رهن دمائكم
ما كان من اطراق لحظ الطالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه
دون الفريسة فهو عين الواثب

وقال ابن منير:
صفات مجدك لفظ جلّ معناه
فلا استردّ الذي اعطاكه اللّه
يا صارماً بيمين اللّه قائمه
وفي أعالي أعادي اللّه حدّاه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
بلا شبيه إذا الأملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته
جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه

قل للاعادي ألا موتوا به كمد
فالله خيبكم والله أعطاه

ملك تنام عن الفحشاء همته
تقى وتسهر للمعروف عيناه

مازال يمسك والأيام تخدمه
فيها ابتلاه وتدني ما توخاه

حتى تعالت عن الشعرى مشاعره
قدرا وجاوزت الجوزاء نعلاه

وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا
وأين مما رووه ما رأيناه

أين الخلاف عن فتح أتيح له
مظلل أفق الدنيا جناحاه

على المنابر من أنبائه أرج
مقطوبة بفتيت المسك رياه

فتح أعاد على الاسلام بهجته
فافتر مبسمه واهتز عطفاه

يهدي بمعتصم بالله فتكته
حديثها نسخ الماضي وأنساه

إن الرها غير عمورية وكذا
من رامها ليس مغزاه كمغزاه

أخت الكواكب عزا ما بغى أحد
من الملوك لها وقها (٤٤) فواتاه

حتى دلفت لها بالعزم يشحذه
رأي يبيت فويق النجم مسراه

مشمرا وبنو الاسلام في شغل
عن بدء غرس لهم أثمار عقباه

يا محيي العدل إذ قامت نوادبه
وعامر الجود لما امّح مغناه

يـا نعمـة اللّـه يستصفـي المزيـد بها
للشـاكـريـن ويستقنـي صفـايـاه
أبقـاك للـديـن والـدنيـا تحوطهما
مـن لم يتـوّجـك هـذا التـاج إلاّ هـو

ولابن منير من قصيدة تقدّم بعضها:

أيـا ملكـا ألقـى على الشرك ككـلا
أنـاخ على آمـاتـه كلكـل الثكـل
جمعـت إلى فتـح الـرهـا سـدّ بـابـه
بجمعـك بين النهـب والاسر والقتـل
هـو الفتـح أنسـى كـل فتـح حـديثـه
وتـوج مسطـور الـروايـة والنقـل
فضضـت بـه نقـش الخواتـم بعـده
جزيت جـزاء الصدق عن خـاتـم الرسل
تجرّدت لـلاسـلام دون ملـوكـه
تبثـك أسبـاب المذلـة والخذل
أخـو الحرب غـذتـه القـراع مفطما
يشـوب بـاقـدام الفتـى حنكـة الكهـل

وله من قصيدة أخرى:

بعماد الـديـن أضحـت عـروة الـديـ
ـن معصـوبـاً بها الفتـح المبين
واستـزادت بقسيـم الـدولـة القسـ
ـم مـن ادحـاض كيـد المارقين
ملـك اسهـر عينـا لم يـزل
همهـا تشريـد همّ الـراقـديـن
لاخلـت مـن كحـل النصر فقـد
فقـأت غيضـا عيـون الحاسـديـن

كل يوم مر من أيامه
فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الانصاف في أوصافه
كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الراوون بل ما سطروا
مثل ما خطت له أيدى السنين
إذا ناخ الشرك في أكنافه
بمئي ألف تلاها بمئين
وقعة طاحت بكلب الروم من
قطعة البين إلى قطعة الوتين
إن حمت مصر فقد قام لها
واضح البرهان إن الصين صين
والرها لو لم تكن إلاّ الرها
لكفت حسماً لشك الممترين
هم قسطنطين أن يفرعها
ومضى لم يحو منها قسط طين
ولكم من ملك حاولها
فتحلا الحين وسما في الجبين
هي أخت النجم إلاّ أنها
منه كالنجم لرأي المبصرين
زارها يزأر في أسد وغى
تبدل الأسد من الزأر الأنين
صولجوا بالبيض بضرب نثـ
ـر الهام في ساحاتها نثر الكرين (٤٥)
يا لها همة ثغر أضحكت
من بني القلف ثغور الشامتين
برنست رأس برنس ذلة
بعدما جاست حوايا جوسلين

سروج مـــذ وعـــت أسراجــه
فــرقــت جماعهــا عنهــا عضين
تلــك أقفــال رمــاهــا اللّــه مــن
عــزمــه الماضي بخير الفــاتحين
شــام منــه الشــام بــرقــا ودقــه
مــؤمــن الخوف مخيــف الآمنين
كــم كنيــس كنســت قــدرامهــا
منــه بعــد الــروح في ظــل السفين
دنــت الآجــال مــن آجــالها
فــأحلتهــا القطــا بعــد القطين
ومنــار يجتلى صلبــانــه
بين بيــض تتبــارى في البريــن
قــرعتــه البيــض حتــى بــدّلــت
قــرعــة النــاقــوس تثــويــب الاذيــن
بــالقسيميــات مقســوم لها الــ
ــدهر في علــك لجين أو لحين
سبــل بها حــرّان كــم حــرّى سقــت
بــردا مــن يــوم ردت مــارديــن
شمطــت أمــس شميشــاط بها
نظــم جيــش منهــج للنــاظــريــن
وغــدا يلقــي على القــدس لها
كلكــل يــدرسهــا درس الــدريــن
همة تمسي وتضحــي عــزمــة
ليــس حصــن إن نحتــه بحصين
قــل لقــوم غــرّهــم امهــالــه
ستــذوقــون شــذاه بعــد حين
إنــه الموت الــذي يــدرك مــن
فــرّ منــه فشجــا اللغــافلين

وهـــو يحيـــى ممسكـــا عـــروتـــه
إنها حبـــل لمن تـــاب متين
مـــن يطـــع ينـــج ومـــن يعـــص يكـــن
مـــن غـــداة عبرة لـــلآخـــرين
بـــك يـــا شمـــس المعـــالي ردّت الـــ
ـــروح في الميتين مـــن دنيـــا ودين
أقســـم الجدّ بـــأن تبقـــى لكـــي
تملـــك الأرض يمينـــا لا يمين
وتفيـــض العـــدل في أقطـــارهـــا
منسيـــا مـــؤلم عســـف الجائريـــن
لا تـــزل دارك كيـــف انتقلـــت
كعبـــة محفـــوفـــة بـــالطـــائفين
كـــل يـــوم يتحلى جيـــدهـــا
مـــن نظيـــم المدح بـــالـــدرّ الثمين
كلما أخلـــص فيهـــا دعـــوة
لـــك قـــالـــت ألســـن الخلـــق آمين

فصل

لما فرغ الشهيد مـن أخذ الرها واصلاح حالها والاستيـلاء على ماوراءها من البلاد والولايات، سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على الفـرات، وهو لجوسلين أيضـا فحصره وضـايقه فـأتـاه الخبر بقتـل نائبـه بالموصل والبلاد الشرقيـة نصير الدين جقر بن يعقوب، فرحـل عنها خوفا من أن يحدث بعده في البـلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحـل عنها سير اليها حسـام الديـن تمرتاش بـن إيلغازي صـاحب مـاردين عسكـراً فسلمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعـدة سنة تسع وثلاثين ، وسببـه أن الملك ألـب أرسـلان المعـروف بـالخفاجـي ولـد السلطـان مسعـود، وأصحـاب

الأطراف يرون أن البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا وكذا، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود، ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين، وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة، ثم يعود ،فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنك إن قتله ملكت الموصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ولايجتمع معه فارسان عليك، فوقع هذا في نفسه، وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرّقوا ويملك الملك البلاد، وكان الأمر بخلاف ما ظنوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهر زوري أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يحسن له الصعود إليها،وحينئذ يستقرّ له ملك البلد، فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرّفونه الحال فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسل زين الدين علي ابن بكتكين والياً على قلعة الموصل، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غيرالطريق التي سلكها النصير وسهل الأمر فاطمأن الناس، وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة، ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشا إلى قلعة شيزر، وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها.

قلت : كذا وقع في كتاب ابن الاثير، وقد وهم من قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ماذكره العماد

الكاتب في كتاب السلجوقية، فإنه قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى ألب أرسلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل، وكان هذا الملك مسلما إلى الأمير دبيس بن صدقة، فانتزعه منه زنكي في حرب جرت، فكانت زوجة زنكي خاتون السكمانية تربيه حتى بلغ، وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول: إن عقل وإلاّ عقلته، وإن ثقل طبعه وإلاّ ثقلته، فدبر في قتله مع أصحابه فقطعوه في دهليز داره لما دخل للسلام على الملك، ثم أصعد القاضي تاج الدين الملك إلى القلعة فلم ير له أثر والتقط مماليكه.

ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وعنى بتفاصيل أمره وجمله وضرب له نوبتيه ونوبا، ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتباً، وأغرى بتولي إكرامه وتوخيه وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه، ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر كما سيأتي(٤٦)

وفي سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بارسال عسكر إلى حصن فنك يحصره ،فسير خلقاً كثيراً من الفرسان والرجالة فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك، وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البشنوية، وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلاثمائة سنة ،وهو من أمنع الحصون مطل على دجلة وله سرب إلى عين ماء لايمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت : وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكي يهينه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قصيدة أوّلها:

يـــــابـــــــدر لاأفـــــــل ولامحاق
ولا يـــــــــــرم مشرقـــــــــك الاشراق

بـــالــديـــن والــدنيـــاالـــذي يشكـــو وهـــل
يهتـــــز فــــرع لم يقمــــــه ســــاق

لــــن تـــورق القضــــب ويجري مـــاؤهـــا
إلاّ إذا مــــــا التــــاثـــــت الأعـــــراق

إنّ الــــرعــــايــــامــــاسلمــــت في حمى
للخطـــب عـــــن طـــروقـــــه إطـــراق

غــــرســـــت بــــالعـــــدل لهم خمائلا
تــــرتــــع في حـــديقهـــــاالأحـــــداق

يـــــاهضبــــة الـــديــــن التـــي عـــاذ بها
فعـــــــاد لابغتـــــــا ولا ارهـــــــاق

لــــو لم تحطــــه راحـــــلاوقــــافـــلا
أصبــــــــح لاشــــــام ولا عـــــــراق

عمادديـــــن مـــــذ أقـــــام زيغــــــه
حيـــــى ومــــــات الشرك والنفـــــاق

يـــــامحيـــــي العــــدل الــــذي في ظلـــه
تسر بلــــــت زينتهــــــا الآفــــــاق

يفـــديــــك مـــــن لان مهـــاد جبينـــه
لمانبــــــايجنبــــــك الاقــــــلاق

مـــن يشـــأ سيفـــك أنبطـــت لـــه الـــ
ــــــعذب ومــــاء عيشـــــه زعــــاق

تجرّع الســـــم ولــــــو لم تحمـــــه
بحـــــده لعـــــزه الــــدريـــــاق

ملــــوك أطــــراف حمى أطـــــرافهـــــا
عـــــزمـــك هــــذا الــــلاحـــق السبـــاق

لــــو لم تـــرق مــــاء كــــرى العين لما
ســــاغـــت بــأفـــواهـــم الاريــــاق

شققـــــت مـــــن دونهم مـــرج الــــردا
وشـــــق أكبـــــادهـــــم الشقـــــاق

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديث أيامك ما أطاقوا

لما اشتكيت دبّ في أهوائهم
توجس للسمع واستراق

تطاولوا لا عدمت أمالهم
قصراً ولا جانبها الاخفاق

توهموها غسقاً ثم انجلت
والصفو من مشربهم غساق

لئن ألمّ ألم بقدم
خد السها لنعلها طراق

أو كان مدّ يده إلى يد
يجري بها الآجال والأرزاق

فالنصل يعلى صدأ وتحته
حد الحسام وسنا رقراق

رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق

ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجة سياق

ماتوا فلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره ارهاق

لا سلبت منك الليالي ما كست
ولا عرت جدّتك الاخلاق

فصل

في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة احدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم اللّه له بالشهادة أعماله:

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
أنّ الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للاسلام أفل، وأيّ ناصر للايمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غاب، وأي أسد افترس، ولم ينجه قلة(٤٧) حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لاينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب عليّ أمير المؤمنين رضي اللّه عنه.(٤٨)

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدّامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبه كبيرهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لايرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم.وذكر الحديث(٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلا وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأناث، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم،.

قلت: ومن عجيب ما حكي أنه لما اشتدّ حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ "فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدّ حصار، ونصب عليه عدّة مجانيق ، وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان: انتظر سهما من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لبته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغـريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

فصل

في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانـت من أحسـن سير الملوك، وكانـت رعيته في أمـن شامـل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابـن الاثير: حدثنـي والدي قـال: قدم الشهيـد إلينا بجـزيرة ابـن عمر في بعض السنين، وكـان زمن الشتاء فنزل بالقلعـة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملـة أمرائه الأمير عز الديـن أبو بكر الدبيسي، وهـو من أكابـر أمرائه ومـن ذوي الرأي عنـده، فدخـل الدبيسي البلـد ونزل بـدار إنسان يهودي وأخرجـه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيـد، وهو راكب فسأل عن حالـه فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والـدبيسي إلى جانبه ليس فـوقه أحـد فلما سمـع أتابـك الخبر نظـر إلى الـدبيسي نظر مغضـب، ولم يكلمه كلمـة واحدة فتـأخر القهقـرى ودخل البلـد وأخرج خيـامه وأمـر بنصبهـا خارج البلـد، ولم تكن الأرض تحتمـل وضع الخيـام عليها لكثـرة الوحـل والطين، قال: فلقـد رأيت الفـرّاشين وهم ينقلـون الطين لينصبوا خيمتـه فلما رأوا كثرتـه جعلوا على الأرض تبنـا ليقيموهـا، ونصبوا الخيـام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتنـاء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنـا فأي حـاجـة لكـم إلى الأملاك، فـان الاقطـاعـات تغني عنهـا، وإن خـرجت البـلاد عن أيـدينـا فإن الأمـلاك تـذهب معهـا، ومتى صـارت

الأمـلاك لأصحاب السلطـان ظلموا الـرعيـة وتعدّوا عليهـم وغصبوهـم أمـلاكهم، ثـم ذكر مـا تجدّد في أيامـه من عمارة البـلاد لاسيما بالموصـل، وذلك لحسـن سيرته، فكـان يقصده النـاس ويتخذون بـلاده دار إقامـة، وهو الـذي أمر ببنـاء دار المملكة بـالموصل، ولم يكـن بها للسلطان غير الدار المعروفة بـدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورهـا، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكـانت الموصل أقل بـلاد اللّه فاكهـة، وكان الذي يبيع الفـواكه يكون عنـده مقراض يقص به العنـب لقلته إذا أراد أن يزنـه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومـن أحسن آرائه أنه كـان شديد العنايـة بأخبار الاطـراف، وما يجري لأصحـابها حتى في خلـواتهم، لاسيما دركاه السلطـان، وكان يغـرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره مـن حرب وسلم وهزل وجـد وغير ذلك، فكان يصـل إليه كل يوم مـن عيونه عدّة قـاصدين، وكان مـع اشتغاله بالأمـور الكبار من أمـور الـدولـة لايهمـل الاطـلاع على الصغير، وكـان يقـول :إذا لم يعـرف الصغير ليمنع صار كبيرا.

وكـان لايمكن رسـول ملـك يعبر في بـلاده بغير أمره، وإذا استـأذنـه رسول في العبـور في بلاده أذن له وأرسـل إليه من يسيره، ولايتركـه يجتمع بأحـد من الـرعية ولاغيرهم، فكـان الرسول يـدخل بـلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا.

وكـان يتعهد أصحـابه ويمتحنهـم : سلـم يومـا خشكنانكـة(٥٠)إلى طشت دار لـه، وقال: احفظ هـذه فبقي نحـو سنة لايفارق الخشكنـانكة خـوفاً أن يطلبهـا منـه، فلما كان بعـد ذلـك قال لـه: أيـن الخشكنانكـة،

فأخرجها في منديل وقدّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن، وأمر له بدزداريه قلعة كواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لايمكن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده، ويقول: إن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدلّ على عورتها ويطمع العدوّ فيها زالت الهيبة، وتطرّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويراوحونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره .

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم ، ويغزو كلا منهم في عقر داره، ويفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فإنه كان لايباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً

إليـه، وطلب منـه أن يجمعهم على طـاعته، فيصير كـالحاكم على الجميـع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قـال: وأمّـا غيرته فكـانـت شـديـدة، ولاسيما على نساء الأجنـاد فـإن التعرّض إليهن كـان من الذنوب التـي لايغفرها، وكان يقـول: إن جندي لايفـارقوني في أسفـاري، وقلمايقيمون عنـدأهلهـم، فإن نحـن لم نمنع مـن التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت:وفي صحيح مسلـم من حديث أبي سعيد الخدري وذكـر حديث رجم النبـي صلى الله عليـه وسلم ماعـزا، قال: ثـم قام رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خطيباً قال:« أو كلما انطلقنـا في سبيل الله خلـف رجل في عيالنـا له نبيـب كنبيب التيـس على أن لا اؤتى بـرجل فعـل ذلك إلا نكلت به»(٥١).

قال ابـن الاثير: وكان قد أقـام بقلعة الجزيـرة دزداراً اسمه نور الـدين حسن البربطـي، وكان من خوّاصـه وأقرب الناس إليه، وكـان غير مرضي السيرة، فبلغـه عنـه أنه يتعـرّض للحـرم، فـأمـر حـاجبه صـلاح الـديـن الياغيساني أن يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فـإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقـوبة لنظـره بهما إلى الحريم ثـم يصلبه، فسـار الصلاح مجداً فلـم يشعر البربطـي إلاّ وقد وصل إلى البلـد فخرج إلى لقـائه، فأكرمـه ودخل معه البلد وقال: المولى أتـابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلي قـدرك ويرفع منزلتـك ويسلم إليـك قلعة حلب ويـوليك جميع البـلاد الشاميـة لتكون هناك مثل نصير الـدين، فتجهز وتحدّر مالـك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففـرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليـلاً ولاكثيراً إلا نقله إلى السفن ليحـدرها إلى الموصـل في دجلة، فحين فرغ مـن جميع ذلـك أخذه الصلاح وأمضى فيـه ما أمربه، وأخذ جميـع ما له فلم يتجـاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ماذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد ، فقال: اللّه اللّه في دمي ونفسي، فقال: لابأس عليك فإنه ماأراد غير هذه الصرّة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدّق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال : وحكي لي من شدّة هيبته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا إن كان جنديا اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسون غربته، فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذرا ملك هو الد‍ـ
ـر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيـ
ـث سحا وانسكابا
فاتح في وجه كل
أمّة للنصر بابا
ترجف الدنيا إذا حر
ك للسير الركابا
وتخر المشمخـرّا
ت اختلالا واضطرابا
وترى الاعداء من
هيبته تأوي الشعابا
وإذا ما الفحتهم نا
ره صاروا كبابا
يا عماد الدين لا زلـ
ـت على الدين سحابا
جاعلا من دونه
سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء في الأمـ
ـن الذي طبت وطابا
وأصف عيشا إنّ أعـ
ـداءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين ،وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتل بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تفترع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدى التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت
سعادته عنه وخرت دعائمه

وكم بيت مال من نضار وجوهر
وأنواع ديباج حوتها مخاتمه

وأضحت بأعلى كل حصن مصونة
يحامي عليها جنده وخوادمه

ومن صافنات الخيل كل مطهم
يروع الأعادي حليه وبراجمه

فلو رامت الكتاب وصف شياتها
بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه

وكم معقل قد رامه بسيوفه
وشامخ حصن لم تفته غنائمه

وكانت ولاة الأرض فيها لأمره
وقد أمنتهم كتبه وخواتمه

وأمن من في كل قطر لهيبة
يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظـــالم قـــوم حين يـــذكـــر عـــدلـــه
فقـــد زال عنهـــم ظلمـــه وخصـــائمـــه
وأصبـــح سلطـــان البـــلاد بسيفـــه
وليـــس لـــه فيهـــا نظير يـــزاحمه
وزاد على الامـــلاك بـــأســـا وسطـــوة
ولم يبـــق في الأمـــلاك ملـــك يقـــاومـــه
فلما تنـــاهـــى ملكـــه وجـــلالـــه
وراعـــت ولاة الارض منـــه لـــوائمـــه
أتـــاه قضـــاء لاتـــردّ سهـــامـــه
فلـــم تنجـــه أمـــوالـــه ومغـــانمـــه
وأدركـــه للحين فيهـــا حمامـــه
وحـــامـــت عليـــه بـــا لمنـــون حـــوائمـــه
وأضحـــى على ظهـــر الفـــراش مجدّلا
صريعـــا تـــولى ذبحـــه فيـــه خـــادمـــه
وقـــد كـــان في الجيـــش اللهـــام مبيتـــه
ومـــن حـــولـــه أبطـــالـــه وصـــوارمـــه
وسمـــر العـــوالي حـــولـــه بـــأكفهـــم
تـــذود الـــردى عنـــه وقـــد نـــام نـــائمـــه
ومـــن دون هـــذا عصبـــة قـــد تـــرتبـــت
بـــأسهمهـــا يـــردى مـــن الطير حـــائمـــه
وكـــم رام في الأيـــام راحـــة سرّه
وهمتـــه تعلـــو وتقـــوى شكـــائمـــه
وكـــم مسلـــك للسفـــر آمـــن سبلـــه
ومسرح حـــيّ لـــن تـــراع ســـوائمـــه
وكـــم ثغـــر اســـلام حـــواه بسيفـــه
مـــن الـــروم لما أدركتـــه مـــراحمه
فمـــن ذا الـــذي يـــأتي بهيبـــة مثلـــه
وينفـــذ في أقصـــى البـــلاد مـــراسمـــه

فلو رقيت في كل مصر بذكره
أراقمه ذلت هناك أراقمه

فمن ذا الذي ينجو من الدهر سالما
إذا ما أتاه الأمر والله حاتمه

ومن رام صفواً في الحياة فما يرى
له صفو عيش والحمام يحاومه

فإياك لا تغبط مليكاً بملكه
ودعه فإنّ الدهر لا شك قاصمه

وقل للذي يبني الحصون لحفظه
رويدك ما تبني فدهرك هادمه

وفي مثل هذا عبرة ومواعظ
بها يتناسى المرء ما هو عازمه

قال: وفي ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم يرنقش القاتل لعماد الدين زنكي وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من طلبه، فوصل دمشق ميقناً أنه قد أمن بها، ومدلاً بما فعله وظناً منه أن الحال على ما توهمه فقبض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبة من حفظه وأوصله، فأقام بها أياما، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلت : وللحكيم أبي الحكم المغربي قصيدة في مرثيه الشهيد عماد الدين زنكي رحمه الله منها:

عين لا تذخري المدامع وابكي
واستهلي دما على فقد زنكي

لم يهب شخصه الردى بعد أن كا
نت له هيبة على كل تركي

خير ملك ذي هيبة وبهاء
وعظيم بين الانام بزرك (٥٢)

يهب المال والجياد لمن يمـ
ـمه مادحا بغير تلكي

إن داراً تمدّنـــــا بـــــالـــــرزايـــــا
هـــــي عنـــــدي أحـــــق دار بترك
فـــــاسكبـــــوا فـــــوق قبره مـــــاء ورد
وانضحـــــوه بـــــزعفـــــران ومســـــك
أيّ فتـــــك جـــــرى لـــــه في الاعـــــادي
بعـــــدمـــــا استفتـــــح الـــــرهـــــا أيّ فتـــــك
كـــــل خطـــــب أتـــــت بـــــه نـــــوب الـــــدهـــــ
ـــــر يسير في جنـــــب مصرع زنكـــــي
بعـــــدمـــــا كـــــاد أن تـــــديـــــن لـــــه الـــــرو
م ويحوي البـــــلاد مـــــن غير شـــــك

فصل
فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرّق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين.- يعني- محمد بن أيوب الياغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر.و سير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: إعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصـده إلى الموصل وقـد انضوى اليـه جلّ العسكـر، وقد أنفـذ إليّ جمال الديـن وأرادني على اللحاق به فلـم أعرج عليه وقـد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلهـا كرسي ملكـك، وتجتمع في خـدمتك عسـاكر الشـام، وأنا أعلم أنّ الأمـر يصير جميعه إليـك لأن ملك الشـام يحصل بحلـب، ومن ملك حلب استظهـر على بلاد الشرق، فركب وأمـر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وسـاروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوهـا سابع ربيع الأوّل، ولما دخلـوا حلب جاء أسد الـدين إلى تحت القلعة ونـادى واليها، وأصعد نـور الدين إليها وقـرّر أمره ومشىّ أحـواله، فكان نـور الديـن يرى له ذلـك، وأسد الـدين يمن بـأنه كـان السبب في توليته.

وقال ابـن الأثير: لما قتل أتابك الشهيـد ركب الملك ألب أرسـلان ابن السلطان مسعـود، وكان مع الشهيد واجتمعـت العساكر عليه وخـدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصـلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنـا ونسلك طريقا نبقـي به الملك في أولاد صاحبنـا،ونعمر بيته جزاء لإحسانـه إلينا، فإن الملك قد طمع في البـلاد، واجتمعت عليه العسـاكر، وحلـف كـل واحد منهما لصـاحبـه، فـركب الجمال إلى الملـك فخدمه وضمن لـه فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصـلاح وقالا له: إن أتابـك كان نائباً عنـك في البلاد وباسمـك كنا نطيعه، فقبل قـولهما وظنه حقا، وقـرّ بهما طمعا أن يكـونا عونـاً له على تحصيـل غرضـه، وأرسلا إلى زين الديـن بالموصل يعرّفـانه قتل الشهيد، ويـأمرانه بالإرسـال إلى سيف الديـن غازي وهـو ولد عماد الديـن زنكي الأكبر وإحضـاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعـل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمـود بن الشهيد قد سـار لما قتل والده إلى حلب فملكهـا وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إنّ مـن الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكـك نور

الدين بحلب يدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فأمره ، فسار وبقي الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة، فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأراد أن يعطي الأمراء شيئا فمنعه خوفا من أن تميل قلوبهم إليه، وقاد لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد،وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك، وأقام بالملك في الرقة عدّة أيام، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقرّ بها، فقوي حينئذ جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك إلى سنجار،فأرسل إلى دزدارها وقال له: لاتسلم البلد ولا تمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له إنا تبع الموصل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحة أننا نسير إلى الموصل فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد، فساروا عن سنجار وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك فبقي في قلة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدبيسي إلى الملك في عسكر وهو في نفر يسير فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الدين وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع، وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابن الاثير:فانظروا إلى جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته

ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعرد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك والله ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لاغرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيا خير الملوك أبا وجدّا
وأنفعهم حيا الغليل صاد

علوا وغلوا وقال الناس فيهم
شوارد من ثناء أو أحاد

وما اقتسموا ولا عمدوا بناهم
بمنصبك القسيمي العمادي

وهل حلب سوى نفس شعاع
تقسمها التمادي والتعادي

نفى ابن عماد الدين عنها الـ
شكاة فأصبحت ذات العماد

تبختر في كساء عدل وبذل
مدبجة التهائم والنجاد

وفي محرابها داود منه
يهذب حكمة آيات صاد

تجاوزت النجوم فأين تبغي
ترق فلا خلوت من ازدياد

فصل
فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخذولين

قال ابن طي:في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكيةوقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسما أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عالما عظيما وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الاثير : لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك ،وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً وملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر ،فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدّ الأمر فطلبوا الامان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الـدين إلى مجد الدين أبي بكـر بن الدايه حتـى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الـرئيس أبـو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكـي بمعين الديـن أنر شرع في التأهـب والاستعداد لقصـد بعلبك، وانتهاز الفـرصة فيهـا بآلات الحرب والمنجنيقات، فنزل عليها وضايقهـا ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيهـا قلة دعتهم إلى النـزول على حكمه، وكان الـوالي بها ذا حزم وعقل ومعـرفة بـالأمور ، فـاشترط ما قـام له بـه من اقطـاع وغيره، وسلم البلاد والقلعـة إليه، ووفى له بما قـرر الأمر عليه، وتسلـم ما فيه مـن غلة وآلـة في أيام مـن جمادى الأولى مـن السنة، وراسـل معين الـدين الـوالي بحمـص وتقررت بينـه وبينه مهـادنة ومـوادعة تعـودان بصلاح الأحـوال وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلـة فيما بينه وبين صلاح الديـن بحماه وتقرر بينهما مثل ذلـك، ثم انكفأ بعـد ذلك إلى البلد عقيـب فراغه مـن بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها.

قـال: ووردت الأخبـار في أيـام مـن جمادى الآخـرة مـن السنـة بـأن جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصـارى المقيمين فيها فـدخلها واستـولى عليها وقتـل من فيهـا من المسلمين، فنهض نور الدين صاحـب حلب في عسكره ومن انضاف إليه مـن التركمان وغيرهـم،في زهـاء عشرة الآف فـارس ووقفـت الـدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقـد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم، ووقـع السيف فيهم، وقتل من أرمن الـرها والنصارى من قتـل ، وانهزم إلى برج يقال له بـرج الماء فحصل فيه ابـن جولسين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في النقـب عليهم حتـى تعـرقب البرج فـانهزم ابـن جـولسين في الخفية مـن أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كـل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلـص من كـان فيه أسيرا مـن المسلمين ونهب منها شيء كثير مـن

المال والاثـاث والسبـي، وانكفـأ المسلمـون بـالغنـائم إلى حلـب وسـائر الأطراف.

وقـال ابن الاثير: لما قتـل زنكـي كان جـوسلين الفـرنجـي الذي كـان صاحـب الرها في ولايته غـرب الفرات في تل بـاشر وما جاورها، فـراسل أهل الـرها، وكـان عامتهم مـن الأرمن ،وواعـدهم يومـاً يصل إليهـم فيه فأجـابوه إلى ذلك، فسار في عسكـره إليها وملكها، وامتنعت عليـه القلعة بمن فيهـا من المسلمين فقاتلهـم وجدّ في قتـالهم،فبلغ الخبر نور الـدين، وهـو يومئـذ بحلـب فسـار إليها بعسكـره، فهـرب جـوسلين ودخل نـور الديـن مدينة الـرها ونهبها وسبـى أهلها.وفي هذه الـدفعة نهبت وخـربت وخلت مـن أهلها، ولم يبـق منهم بها إلاّ القليـل، ووصل خبر الفـرنج إلى سيف الـدين غازي بـالموصل، فجهز العسـاكر إلى الـرها، فوصلـت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قـال: ومن عجيـب ما جـرى أن نور الـديـن أرسل مـن غنائمهـا إلى الأمراء، وأرسـل إلى زين الـدين علي جملـة من الجواري فحملـن إلى داره، ودخل لينظر اليهـنّ ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئـل عن ذلك فقال: لما فتحنـا الرها مـع الشهيدكان في جملـة ما غنمـت جارية مـالت نفسي إليها، فعـزمت على أن أبيـت معها، فسمعـت منادي الشهيـد وهو يأمـر باعـادة السبي والغنـائم، وكان مهيبـاً مخوفا، فلـم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كـان الآن أرسل إليّ نـور الدين سهمـي من الغنيمـة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الديـن وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها:

أمـــا آن أن يـــــزهـــق البـــاطـــل
وأن ينجـــــز العـــــدّة الماطـــــل

إلى كـــم يغـــب ملـــوك الضـــلال
سيـــف بـــاعنـــاقهـــاكـــافـــل
فـــلا تحفلـــن بصـــوت الـــذئا
ب وقـــد زأر الاســـد البـــاســـل
وهـــل يمنـــع الـــديـــن الافتـــى
يصـــول انتقـــامـــا فيستـــاصـــل
أبـــا جعفـــر أشرقـــت دولـــة
أضـــاء لها بـــدرك الكـــامـــل
فـــامـــا نصبـــت لـــرفـــع اسمهـــا
فـــانكما الفعـــل والفـــاعـــل
ليهنـــك مـــا افـــرج النصر عنـــ
ـــه ومـــانـــالـــه الملك العـــادل
فقـــل للحقـــاق الطـــريـــق الطـــريـــ
ـــق فقـــد دلـــف المقـــرم البـــازل
وجـــاهـــد في اللـــه حـــق الجهـــا
د محتســـب بـــالعلى قـــافـــل
وهـــل يمنـــع الســـور مـــن طـــالـــع
يشـــايعـــه القـــدر النـــازل
فـــان يـــك فتـــح الـــرهـــا لجة
فســـاحلهـــا القـــدس والســـاحـــل
فهـــل علمـــت علـــم تلـــك الـــديـــا
ر أن المقيـــم بها راحـــل
أرى القمـــص يـــأمـــل فـــوت الـــرمـــا
ح ولا بـــد أن يضرب الشـــائل
يقـــوي معـــاقلـــه جـــاهـــدا
وهـــل عـــاقـــل بعـــدهـــا عـــاقـــل
وكيـــف بضبـــط بـــواقـــي الجهـــا
ت لمن فـــات حسبتـــه الحاصـــل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:

ملك ما أذل بالفتح أرضا
قط إلا أعزها اغلاقه

والوها في الرها أزجى إليها
عارضا شيب الدجى ابراقه

جأرت جأرة إليه فحلّ
عطلا من اعناقها اعناقه

تلك بكر الفتوح فالشام منها
شامه والعراق بعد عراقه

أين كان الملوك عن وجهها الطلـ
ـق يرينا اضاءة اطلاقه

سنة سنها أبوه بكلب الرو
م لما أظله ارهاقه

خافقا قلبه إلى أمل عا
جله دون نيله إخفاقه

قسمت راية المواضي القسيميـ
ـات وابتز من لهاه عراقه

وكذا أنت يابنه ما عدا من
خلقه فيك خصله خلاقه

وكفى البحر أنه ابن سحاب
ما ونى سحه ولا اصعاقه

لم يمت من سددت ثلمته يا
من على الدين كظه اشفاقه

كلما طن ذكرها منه في السمـ
ـع تكافى النافقاء نفاقه

وجهاد عن حوزة الدين لم يأ
ل له ركضه ولا انفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنـور الـديـن روض كـل محل
مـن الـدنيـا وجـدّد كـل بـال
أقـام على ثنيـة كـل خـوف
سهـادا بـات يكـلأ كـل كـال
وصـوّب عـدلـه في كـل أوب
فعـوّض عـاطـلا منـه بحـال
ينكـس رأيـه رأي المحـامـي
ويقتـل خـوفـه قبـل القتـال
لقـد أحصـدت لـلاسـلام عـزا
يفـوت سنـامـه يـد كـل قـال
وأصبحـت العـواصـم ملحفـات
عصـامـا غير منتكـث الحبـال

فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد للّه رب العالمين

إلى القـاضي الأشرف أبي المجد علي بـن الحسـن بن الحسين البيسـاني، وهو والـد القاضي الفـاضل، وكان يـومئذ متولي القضـاء والحكم بمـدينة عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قـوما من أهل ثغـر عسقلان حماه اللّه قـد صاروا يؤدون تـوقيعات بقبول أقوالهم مـن غير تزكية مـن شهوده المعـروفين بالتـزكية لهم، مـع كـونهم غيرمستوجبين لشهـادة، ولامستحقين لسماع القول، فأنكـر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عـالي أمره بأن لايسمع قـول شاهد، ولايتقـدّم لخطابـة ولا لصلاة بالنـاس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلاّ من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس :عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت : وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بألتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولا.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنة وأجدّ المسير، فوصل إلى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الأفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين فانهزم الكفار وولوا الأدبار، وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان ولاتقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فاعتقل في الحال وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت :وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:

أي شأن أدركت يا نور الدين الله أعيى على الملوك لحاقه

نطـــق الحاســـدون بـــالعجـــز عـــن ملـــ
ــــــك محلى بــــالنيرات نطــــاقـــــه
غـــض أبصـــارهـــم لحاق جـــواد
ليـــس إلا إلى المعـــالي سبـــاقـــه
ســـل بصيرا كـــم أعتقـــت يـــوم بصرى
مـــن أســـارى الموت الـــزؤام عتـــاقـــه
كـــم عـــرام على العـــريمـــة شبـــت
ضـــاق منـــه على الصليـــب خنـــاقـــه
ولكـــم هبـــوة بهاب واختيـــ
ــــها لها صكـــت الأســـارى ربـــاقـــه
بســـط الـــذل فـــوق بسطـــة بـــاســـو
طـــا ولكـــن طـــواه عنـــه ارتفـــاقـــه

وفي هذه السنـة ولد ببعلبك الملـك العادل سيف الـدين أبو بكـر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قـال أبويعلى : وفي ليلـة الجمعة الثـالـث من ربيـع الأوّل توفى الفقيـه شيـخ الاسلام أبـو الفتح نصر اللّـه بـن محمد بـن عبد القـوي المصيصي بدمشق، كان بقية الائمة الفقهـاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم يخلف بعده مثله.

وقال : وفي جمادى الآخـرة تقرّرت ولايـة حصن صرخـد للأمير مجاهـد الـدين بـزان بن مـامين على مبلغ مـن المال والغلة، وشروط وأيمان دخـل فيهـا وقام بها، واستبشر أهـل تلك النـاحيـة لما هو عليـه من حـب الخير والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال وهـو مستهل نيسان أظلم الجوّ ونـزل غيث سـاكن، ثـم أظلمت الأرض في وقـت العصر ظلامـاً شديـداً بحيـث كـان ذلـك كـالغـدوة بين العشـائين، وبقيـت السماء في عين

الناظريـن إليها كصفرة الورس، وكذلـك الجبال وأشجار الغوطـة وكل ما ينظـر إليه مـن حيـوان وجماد ونبـات، ثم جـاء في أثـر ذلـك من الـرعـد القاصف والبرق الخاطف والهدّات المزعجة والرجفـات المفزعة ماارتاع لها الشيـب والشبان فكيـف الـولدان والنسـوان، وقلقـت لـذلك الخيـول في مرابطها، وبقـي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخـرة، ثم سكن بقدرة اللّـه تعالى، وأصبـح على الأرض والاشجار وسـائر النبات غبـار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الـدين أرتاح بالسيف وحصن بـارة وبصرفوث وكفر لاثـا، وكان الفـرنج قد طمعـوا وظنوا أنهم بعـد قتل الشهيـد يستردّون ما أخـذ منهم، فلما رأوا مـن نور الـدين هـذا الجدّ علموا أنّ ما أمّلوه بعيد.

فصل

في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم اللّه عنها

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي هذه السنة تـواصلت الاخبـار من نـاحية القسطنطينية وبـلاد الفرنـج والروم وما والاهـا بظهور ملـوك الافرنـج من بـلادهـم منهـم:الألمان والفنـش وجماعة مـن كبـارهـم في العـدد الـذي لايحصر لقصد بـلاد الاسلام بعـد أن نادوا في سـائر بلادهـم ومعاقلهـم: النفير النفير إليها والإسراع نحوهـا، وخلوا بلادهم وأعمالهم خاليـة شاغرة من حماتها والحفظـة لها، ثم استصحبـوا من ذخائرهـم وأموالهم وعـددهم الشيء الكثير الـذي لايحصـى بحيـث يقال إن عـدّتهم ألـف ألـف مـن الرجـالة والفرسان، ويقـال أكثر من ذلك، وغلبـوا على أعمال قسطنطينية واحتـاج ملكهـا إلى الـدخـول في مـداراتهم ومسالمتهـم والنـزول على أحكـامهـم، وحين شـاع خبرهـم وأشتهـر أمـرهـم شرعـت ولاة الأعمال

المصاقبة لهم والأطراف الاسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الاسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤوا في تقدير خمسين ألفا ،ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا ،فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء ، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوّل، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه ،واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر اللّه تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما اللّه، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال : بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم اللّه فتقدّما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمهما اللّه تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهدّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهورإليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لايني في جهادهم ولايثني عن ذيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدّة وتضاعفت العدّة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء،وأحاطوا بهم في مخيمهم، ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلاّ صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم في المسالك ،وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولاحصر يلحقه بحيث لها أراييح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكـانوا قد أحـرقوا الربـوة والقبة الممدوديـة في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها اللّه عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعـالى على ما أولاهم من إجـابة دعائهم الـذي واصلوه في أيام هذه الشدّة فللّه الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الـرحمة اجتماع معين الدين مع نور الديـن عند قربة من دمشق للانجاد لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بـلاد الافرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفـرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومـن بساحل الشام من الفـرنج فاجتمعـوا وقصدوا مدينـة دمشق ونـازلوها ، ولايشـك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هـو أكثرهم عددا وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عددا وعددا، وإن كان غير ملكهـم أشرف منه عندهم وأعظم محلا، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابـق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليـس لـه مـن الأمر شيء، وإنما كـان الأمـر إلى مملـوك جـدّه طغتكين، وهو معين الديـن أنر، فهو كان الحاكم والمدبـر للبلد والعسكر، وكـان عـاقلا دينـا خيراً أحسـن السيرة، فجمـع العسكر وحفـظ البلـد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأوّل، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهـم، وكان فيمن خـرج الشيخ الفقيه حجـة الدين أبـو الحجاج يوسف بن دونـاس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشـق، وكان شيخا كبيرا زاهدا عـابدا خرج راجـلاً، فرأى معين الـدين فقصده وسلـم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور، ونحـن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعـت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قـول اللّه تعالى:(إن اللّه اشترى مـن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بـأن لهم الجنة)(٥٣)الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه اللّه عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنـج وتقدموا فنزلوا بالميـدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه، وكـان معين الدين قد أرسل إلى سيف الـدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القـدوم عليه ويعلمه شدّة الأمر، فجمع سيـف الدين عساكره وسـار مجداً إلى مدينة حمص،وأرسل إلى معين الدين يقـول له: قد حضرت ومعـي كل مـن يطيق حمل السـلاح مـن بلادي، فـإن أنا جئـت إليك ولقينـا الفرنج وليسـت دمشق بيد نـوابي وأصحابي وكانـت الهزيمة والعياذ بالله علينا لايسلم منا أحد لبعـد بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرهـا، فإن أردتم أن ألقـاهم وأقاتلهـم فتسلم البلد إلى مـن أثق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنـا على الفرنج أنني لاآخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقـدار ما يـرحل العدوّ عنهـا، وأعود إلى بـلادي ،فماطله معين الديـن لينظر ما يكـون من الفرنـج، فأرسل سيـف‌الدين‌إلى الفـرنج الغرباء يتهـدّدهم ويعلمهم أنه علي قصدهم إن لم يـرحلوا ، وأرسل معين الديـن إليهم أيضا يقول لهم: قـد حضر ملك الشرق ومعه من العسـاكر مالا طـاقة لكـم به، فـإن أنتم رحلتـم عنا والاسلمـت البلد إليـه وحينئذ لاتطمعون في السـلامة منـه، وأرسل إلى فـرنج الشـام يخوفهم مـن أولئك الفرنـج الخارجين إلى بلادهـم ويقول لهم: أنتم بين أمـرين مـذمومين إن ملك هـؤلاء الفرنج الغـرباء في دمشق لايبقـون عليكم مـا بأيديكـم من البـلاد، وإن سلمت أنـا دمشق إلى سيـف الديـن فأنتـم تعلمون أنكـم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلـوا ملك الالمان عـن دمشـق، فأجـابوه إلى ذلـك وعلمـوا صدقـه واجتمعوا بملـك الالمان وخوفوه مـن سيف الدين وكثـرة عساكره وتتـابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معـه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الـرحيل عـن دمشق فـرحل ورحـل فرنـج الساحـل وتسلموا حصـن بانياس مـن معين الدين وبقي معهـم حتى فتحه نور الـدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.

فصل

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن (على سرر متقابلين)(٥٤) وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله، وأما عبد الرحمن الحلحولي فقبره في بستان الشعباني في جهة شرقه، وهو المسجد المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت، وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله، وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشطي نهر داريا
أمور ما يواتينا
وأقوام رأوا سفك الـ
ـدماء في جلق دينا
أتانا مائتا ألف
عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس
وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور
ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتهم أبصر
ت أقواما مجانينا
و جازوا المرج والتعديـ
ـل أيضا والميادينا
تخالهم وقد ركبوا
فطائرها جرادينا (٥٥)
وبين خيامهم ضموا الـ
ـخنازير والقرابينا

ورايـــــات وصلبــــــانــــا
علىٰ مسجـــدخـــاتـــونـــا

وقلنـــــا إذ رأينـــــاهــــم
لعــــل اللّــــه يكفينـــــا

سهامهم معين قـــــــــد
أعـــان الخلــــق والــــدينـــا

وفتيـــــــــــان تخالهم
لــــدى الهيجـــاء شيـــاطينـــا

فـــولـــوا يطلبــــون المر
ج مــــن شرقـــي جسرينـــا

ولكــــن غــــادروا اليـــأ
س تحت التراب مـــدفـــونـــا

وشيخـــــا فنــــدلاويـــا
فقيهــــا يعضــــد الـــدينـــا

وفتيـــانـــا تفـــانـــوا مــــن
دمشـــق نحـــو سبعينـــا

ومنهــــم مـــائتـــا علـــج
وخيــــل نحـــو تسعينـــا

وبـــــاقيهـــــم إلى الآ
ن مـــن القتـــل يفـــرّونـــا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها:

عـــرّج على نجـــد لعلـــك منجـــدي
بنسيمهـــا وبـــذكـــر سعـــدى مسعـــدي

يقول فيها:

مـــن قـــاتـــل الافـــرنـــج دينـــا غيره
والخيـــل مثـــل السيـــل عنـــد المشهـــد

ردّ الامان بكل ندب باسل
ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض
زمن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه
وغدا بحمده من شريعة أحمد

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين أوّل القصيدة:

الحق مبتهج والسيف مبتسم
ومال اعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّـ
ـنت العباد فأنت الحل والحرام
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها
معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا
كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا إلا من الاقبال في عدد
يؤود حاسبه والاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا
أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه
سياسة ما يعفي أثرها ندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة
بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم
والله يعصم من بالله معتصم

حتـــى إذا بـــدت الآراء ضـــاحكـــة
وأقبلـــت أوجـــه الاقبـــال تبتســـم
اتبعـــت جـــنّ سرايـــاهـــم مضمـــرة
فيهـــا نجـــوم إذا جـــدّ الـــوغـــى رجموا
والنصر دان وخيـــل اللـــه مقبلـــة
تـــرجـــو الشهـــادة في الهيجـــاء تغتنـــم
صـــاب الغمام عليهـــم والسهـــام معـــا
فما دروا أيما الهطـــالـــة الـــديـــم
سروا الينتهبـــوا الاعمار فـــانتهبـــوا
قتـــلا ويغتنمـــوا الامـــوال فـــاغتنمـــوا
وأقبلـــت خيلنـــا تـــردى بخيلهـــم
مجنـــوبـــة وعلى أرمـــاحنـــا القمـــم
وأدبـــر الملـــك الطـــاغـــي يـــزعـــزعـــه
حـــرّ الاسنـــة وهـــو البـــارد الشيـــم
وافـــوا دمشـــق فظنـــوا انها جـــدة
ففـــارقـــوهـــا وفي أيـــديهم العـــدم
وأيقنـــوا مـــع ضيـــاء الصبـــح أنهم
إن لم يـــزولـــوا سراعـــا زالـــت الخيـــم
فغـــادروا أكثـــر القـــربـــا ن وانجلفـــوا
وخلفـــوا أكبر الصبيـــان وانهزمـــوا
مستسلمين لأيـــدي المسلمين وقـــد
أغـــرى الفنـــا بتمادي خطفهـــم نهم
لا يملـــك الجســـم دمعـــا عـــن مقـــاتلـــه
كـــأنـــه حين يغشـــاه الـــردى صنـــم
وحـــاولـــوا المسجـــد الأدنـــى فما عبرت
عـــن مسجـــد القـــدم الأقصـــى لهم قـــدم

فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجدّين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوابأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الأفرنجية وبعدّة وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكـره وأثقاله وكراعـه ما أوجبته الاقدار النـازلة، وانهزم بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالما في عسكـره لم يفقد منه إلاّ النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلـب أياما بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبى طـي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نـور الدين من تقديم ابن الدايـة عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا، ومـرّ به نو الدين فقـال له: مـا هذا الـوقوف والغفلـة في مثل هـذا الوقـت والمسلمون قـد انكسروا ؟فقال: يـاخونـد ايش ننفع نحـن إنما ينفع مجد الـدين أبـو بكر فهو صـاحب الأمر، فاستـدرك نور الدين ذلـك وطيب قلب أسد الـدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتـل في هذه الكسرة شـاهنشاه بـن أيوب أخـو الملك النـاصر، وقيل في كسرة البقيعة.

قلت: وهـو والد عز الـدين فرخشـاه وتقي الـدين عمر والسـت عذرا المنسوب إليهـا العذراويـة داخل باب النصر بـدمشق، وقبره الآن بـالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق رحمهم اللّه.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمـت اعتذارا عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنـــــه مـــن مـــاء يغـــرا إن فـــرّ إلا
شـــابـــات ذاد عنهـــا انـــذلاقـــه

كـــان فيهـــا الليـــث العـــريـــن حمى الأ
شبـــال منـــه غضبـــان كـــالنـــار مـــاقـــه

وشبيـــــه النبـــــي يـــــوم حنين
إذ تـــلافـــا أدواءهـــم دريـــاقـــه

- ٧٦٥١ -

وهـــــي الحرب فحلهــــا بحســـن الكـــــــ
ـــــرة إن عـــض بـــأسهـــا الانيـــاقـــه

فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشدّ قتال، ثم أنزل اللّه نصرة على المسلمين، وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير.

وفي هذه الوقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

ونيرات الملك وهاجة
وطالع الدولة مسعود

وصارم الاسلام لاينثني
إلاّ وشلو الكفر مقدود

مناقب لم تك موجودة
إلاّ ونور الدين موجود

مظفر في درعه ضيغم
عليه تاج الملك معقود

نال المعالي مالكا حاكما
فهو سليمان وداود

ترتشف الأفواه أسيافه
إن رضاب العز مورود

وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود

والقوم إما مرهق صرعة
أو موثق بالقدّ مشدود

حتى إذا عادوا إلى مثلها
قالت لهم هيبته عودوا

طالب بثار ضمنته الظبى
فكل ما يضمن مردود

والكــرّ والفــرّ سجــال الــوغــى
فطــارد طــورا ومطــرود
وإنما الافــرنــج مــن بغيهــا
عــادوا وقــد عــاد لها هــود
قــد حصحــص الحق فما جــاحــد
في قلبــه بــأســك مجحــود
فكــل مصر بــك مستفتــح
وكــل ثغــر بــك مســدود

وقال أيضا قصيدة في نور الدين: وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الفرنج على يغرا، وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أوّلا بهذا الموضع أوّلها:

تفــي بضمانها البيــض الحداد
وتقضي دينهــا السمــر الصعــاد
وتــدرك ثــارهــا مــن كــل بــاغ
فــوارس مــن عــزائمهــا الجلاد
ويغشــى حــومــة الهيجــا همام
يشــدّ بضبعــه السبــع الشــداد
أظنــوا أن نــار الحرب تخبــو
ونــور الــديــن في يــده الــزنــاد
وجنــد كــالصقــور على صقــور
إذا انقضــوا على الابطــال صــادوا
إذا اخفــوا مكيــدتهم أخــافــوا
وإن أبــدوا عــداوتهم أبــادوا
ونصرة دولــة حــاميــت عنهــا
وهــل يخشــى وأنــت لها عماد
وإن تتلى القــوافي مــا تلتــه
بــإنــب مــا يــوّنبهــا اسنــاد



جـــرت بـــالنصر أقـــلام العـــوالي
وليـــس ســـوى النجيـــع لها مـــداد
وطـــالـــت أروس الأعـــلاج خصبـــا
فنـــادى السيـــف قـــد وقـــع الحصـــاد
أحطـــت بهم فكـــان القتـــل صبرا
ولا طعـــن هنـــاك ولا طـــراد
ولـــلا بـــرنـــس فـــوق الـــرمـــح رأس
تـــوســـد والسنـــان لـــه وســـاد
تـــرجـــل للســـلام ففـــرســـوه
وليـــس ســـوى القنـــاة لـــه جـــواد
غضيـــض المقلتين ولا نعـــاس
وغـــايـــرهـــا وليـــس بـــه سهـــاد
فسر واستـــوعـــب الـــدنيـــا فتـــوحـــا
فـــلا هضـــب هنـــاك ولا وهـــاد
وزر بينـــي الـــوغـــى مثـــوى حبيـــب (٥٦)
فما عـــن بـــاب مسلمـــه ذيـــاد
ولا في بـــاب فـــارس غير ثكلى
بفـــارسهـــا يضيء بها الحداد
لأنطـــاكيـــة يحمـــي ذراهـــا
وقـــد دانـــت لسطـــوتـــك البـــلاد
وإذعنـــت المالـــك واستجـــابـــت
ملبيـــة لـــدعـــوتـــك العبـــاد

قلت: ووقعة إنبّ هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيأتي ذكرها قريبا إن شاء اللّه تعالى.

فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هـذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بـأن صاحبهـا نور الـدين ابـن أتابـك أمر بـابطال حـي على خير العمل في أواخـر تأذين الغـداة، والتظاهر بسـب الصحابة، وانكـر ذلك إنكارا شديـداً، وساعده على ذلك جماعـة من أهل السنة بحلـب، وعظم هذا الأمـر على الاسماعيلية وأهل التشيـع وضاقت لـه صدورهم وهـاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف مـن السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

قلت:وأنشده ابن منير في رمضان:

فـداك مـن صـام ومـن أفطـرا
ومـن سعـى سعيـك أو قصرا
ومـا الـورى أهـلا فتفـدى بهم
وهـل يـوازي عـرض جـوهـرا
عـدل تسـاوى تحت أكنـافـه
مطـافـل العين واسـد الشرى
يـا نـور ديـن اللّـه كـم حـادث
دجـى وأسفـرت لـه فـانسرى
وكـم حمى للشرك لا يهتـدي الـ
ـوهم لـه غـادرتـه مجزرا
يـا ملـك العصر الـذي صـدره
افسـح مـن أقطـارهـا مصـدرا
وابـن الـذي طـاول أفـلاكهـا
فلـم يجد مـن فـوقـه مظهـرا
منـاقـب تكسر كسرى كما
تقصر عـن إدراكهـا قيصرا

مـــا عـــام في أوصـــافهـــا شـــاعـــر
إلاّ رأى أوصـــــافهـــــا أشعـــــرا
للّـــــه أصـــــل أنـــــت فـــرع لـــــه
مـــا أطيـــب المجنـــى ومـــا أطهـــرا
مـــا حلـــب البيضـــاء مـــذ صنتهـــا
إلاّ حـــــرام مثـــــل أمّ القـــــرى
شيـــــدت في معمـــــور أرجـــائهـــا
لكـــل بـــاغـــى عمـــره مشعـــرا
فـــأصبـــح الشـــادي إذا ثـــوّب الـــ
ـــداعي لـــــه هلـــــل أو كبرا
لاعـــدم الاســـلام مـــن كفـــه
كهـــف لمن أرهـــق أو أحصرا
كـــأنها ســـاحتـــه جنـــة
أجـــرت بها راحتـــه كـــوثـــرا
تصرّم الشهـــر الـــذي كنـــت في
أوقـــاتـــه مـــن قـــدره أشهـــرا
جهـــادليـــل في نهار غـــزا
إذ كنـــت فيـــه الأصبر الأشكـــرا
أصـــدق مـــا يـــرشفـــه ســـامـــع
مـــا هـــز مـــن أوصـــافـــك المنبرا
أبقـــاك للـــدنيـــا وللـــديـــن مـــن
خـــــلاك في ليلهما نيرا
حتـــى تـــرى عيســـى مـــن القـــدس قـــد
نجـــا إلى سيفـــك مستنصرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغراضهم والخوض في قضايا لا حاجة لها من المذاهب ما أوجب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد،وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر، وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجـدّدت المهادنـة في المحرّم مـدّة سنتين، وأنفذ نـور الديـن إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكيـة قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكـره إلى ظاهر حلب للقائه والحاجة مـاسة إلى معاضدتـه، فندب معين الديـن مجاهد الدين بُـزان بن مامين في فـريق وافـر من العسكـر الدمشقـي للمصير إلى جهته، وبـذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر مـن السنة وردت البشائر من جهة نـور الدين بما أولاه الّله تعالى، وله الحمد على حشد الفـرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلاّ من أخبر ببوارهـم، وتعجيل دمـارهم، وذلـك أن نور الـدين اجتمـع له مـن العساكر ستـة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتبـاع والسواد، فنهض بهم إلى الفـرنج في الموضـع المعروف بـإنّـب وهم في نحـو أربعمائة فارس وألـف راجل، فقتلـوهم وغنمـوهم ووجـد اللعين البرنس مقـدّمهم صريعـاً بين حماتـه وأبطالـه، فعـرف وقطع رأسـه، وحمل إلى نور الـديـن ، وكان هـذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بـالفروسية، وشدّة البأس وقوة الحيل، وعظم الخلقـة، مع اشتهار الهيبة وكثـرة السطوة والتناهـي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على بـاب انطاكية، وقد خلت من حماتها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثـرة عددهم وحصانة بلدهم، وتردّدت المراسـلات بينه وبينهم في طلـب التسليم إليه وإيمانهم وصيـانة أموالهم، فوقع الاحتجـاج منهم بأن هذا الأمر لايمكنهم الـدخول فيه إلاّ بعد انقطـاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على مـن يقصدهم، وحملـوا ما أمكنهم مـن التحف والمال، ثم استمهلـوا فأمهلوا، ثـم رتب نور الـدين

بعض العسكر للاقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في بقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان فأومنوا على أنفسهم وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأوّل، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية وقد إنتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ماقرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمقالع، وغيرها من المغانم الجمة، وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان في العسكر الدمشقي وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله وقتل البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يقتل من المسلمين من يقوم به، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كان آل فرنج أدركوا فلجا
في يوم يغراونال وامنية الظفر
ففي الخطيم خطمت الكفر منصلتا
أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرا نهابا وانتبهت لنا
على الخطيم نفوس المعشر الأشر
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا
قوامص الكفر في ذل وفي صغر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدّة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدّم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية ، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أمّ بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضا أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أوّلها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صـــافحـــت يـــابـــن عـماد الـــديـــن ذروتها
بـــــراحـــــة للمســـــاعـــــي دونها تعـــب
مـــازال جـــدّك يبنـــي كـــل شـــاهقـــة
حتـــى إبتنـــى قبـــة أوتـــادهـــا الشهـــب
للّـــه عـــزمـــك مـــا أمضـــى وهمك مـــا
أفضـــى اتســـاعـــا بها ضـــاقـــت بـــه الحقـــب
يـــاســـاهـــد الطـــرف والأجفـــان هـــاجعـــة
وثـــابـــت القلـــب والأحشـــاء تضطـــرب
أغـــرت سيـــوفـــك بـــالافـــرنـــج راجفـــة
فـــــؤاد روميـــــة الكبرى لها يجب
ضربـــت كبشهـــم منهـــا بقـــاصمـــة
أودى بها الصلـــب وانحطـــت بها الصلـــب
قـــل للطغـــاة وإن صمـــت مســـامعـــا
قـــولا لصـــم القنـــا في ذكـــره أرب
مـــا يـــوم إنـــب والأيـــام دائلـــة
مـــن يـــوم يغـــرا بعيـــد لا ولا كثـــب
أغـــرّكـــم خـــدعـــة الآمـــال ظنكـــم
كـــم أسلـــم الجهـــل ظنـــا غـــرّه الكـــذب
غضبـــت للـــديـــن حتـــى لم يفتـــك رضـــى
وكـــان ديـــن الهدى مـــرضـــاتـــه الغضـــب
طهـــرت أرض الأعـــادي مـــن دمـــائهـــم
طهـــارة كـــل سيـــف عنـــدهـــا جنـــب
حتـــى استطـــار شرار الـــزنـــد قـــادحـــة
فـــالحرب تضرم والآجـــال تحتطـــب
والخيـــل مـــن تحت قتـــلاهـــا تفـــر لها
قـــوائم خـــانهنّ الـــركـــض والخبـــب
والنقـــع فـــوق صقـــال البيـــض منعقـــد
كما استقـــل دخـــان تحتـــه لهب

السيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو ذمّة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته
كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
وللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق اللّه مهجته
لاقى العدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم
يارب حائنه منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم
ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهم
مسلوبة وكأنّ القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت
فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرّة ما سمت والليل معتكر
الا تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب
في كل يوم لفكري من وقائعه
شغل فكل مديحي فيه مقتضب

من باتت الاسد أسرى في سلاسله
هل يأسر الغلب إلاّ من له الغلب
فملكوا اسلب الابرنس قاتله
وهل له غير أنطاكية سلب
من للشقي بها لاقت فوارسه
وإن يسائرها من تحته قتب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة
برأسه إن أثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء أرهقه
أنبوبة في صعود أصلها صبب
ما فارقت عذبات التاج مفرقه
إلاّ وهي منه لا تاج ولا عذب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا
بدا الثعلبها من نحره سرب
كنا نعدّ حمى أطرافنا ظفرا
فملكتك الظبى ما ليس نحتسب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها
كان تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق
كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله
فإنما أنت بحر لجه لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة
من الظبى عن ثغور زانها الشنب
مازلت تلحق عاصيها بطائعها
حتى أقمت وأنطاكية حلب

حللت من عقلها أيدي معاقلها
فاستجفلت وإلى مشاقك الهرب
وأيقنت أنها تتلو مراكزها
وكيف يثبت بيت ماله طنب
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها
جري الجفون امتراها بارح حصب
وما ركزت القنا إلاّ ومنك على
جسر الحديد هزبر غيله اشب
فاسعد بما نلته من كل صالحة
يأوي إلى جنة المأوى لها حسب
إن لا تكن أحد الابدال في فلك الـ
ـتقوى فلا نتمارى أنك القطب
فلو تناسب أملاك السماء بها
لكان بينكما من عفة نسب
هذا وهل كان في الاسلام مكرمة
إلا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا للّه درّك أي درّ
صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذي استولى مشيحا
على ما بين فاميه وشيح
ووقعتك التي بنت العوالي
صوادر عن قتيل أو جريح
بإنب يوم أبرزت المذاكي
من النقع الغزالة في مسوح
غداة كأنما العاصي احمرارا
من الدم عبرة الجفن القريح

وقـــدوافـــاك بـــالابـــرنـــس حتــف
أتيـــح لـــه مـــن القـــدر المتيـــح

قتلـــت أشحهـــم بـــالنفـــس إذلا
يجود بنفســـــــه غير الشحيـــــح

مـــلأت بهم ضرائحهـــم فـــأمســـوا
وليـــس ســـوى القشـــاعـــم مـــن ضريـــح

وعـــــدت إلى ذرا حلـــب حميـــدا
سمـــو البـــدر مـــن بعـــد الجنـــوح

فـــإن جليـــت بغـــرتـــك الليـــالي
فكـــم لسنـــاك مـــن زمـــن مليـــح

رويـــدك تسكـــن الهيجـــا فـــواقـــا
بحيـــث تـــريـــح مـــن تعـــب المريـــح

فـــأنـــت وإن أرحـــت الخيـــل وقتـــا
فهمـــك غيرهـــم المستريـــح

قال أحمد بن منير يمدحه ،ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل رأسه إلى حلب ، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:

أقـــوى الضـــلال وأقفـــرت عـــرصـــاتـــه
وعـــلا الهدى وتبلجـــت قسماتـــه

وانتـــاش ديـــن محمـــد محمـــوده
مـــن بعـــد مـــا غُلّـــت دمـــا عبراتـــه

ردّت على الاســـلام عصر شبـــابـــه
وثبـــاتـــه مـــن دونـــه وثبـــاتـــه

أرســـى قـــواعـــده ومـــدّ عماده
صعـــدا وشيـــد ســـوره ســـوراتـــه

وأعـــاد وجـــه الحق أبيـــض نـــاصعـــا
اصـــلاتـــه وصـــلاتـــه وصـــلاتـــه

لما تـــواكـــل خـــربـــه وتخاذلـــت
أنصـــاره وتقـــاصرت خطـــواتـــه

رفعت لنور الدين نار عزيمة
رجعت لها عن طبعها ظلماته
ملك مجالس لهوه شداته
ومشوقه بين الصفوف شذاته
تغري بحثحثة اليراع بنانه
إن لذ حثحثة الكؤوس لداته
ويروقه ثغر العدى قان دما
لا الثغر يعبق في لماه لثاته
فصبوحه خمر الطلى وغبوقه
نطف النفوس تدرّها نشواته
فتح تعممت السماء بفخره
وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الاسلام بيض حجوله
واختال في أوضاحها جبهاته
وانهل فوق الابطحين غمامه
وسرت إلى سكينها نفحاته
للّه بلجة ليلة محصت به
واليوم ذبح وشيه ساعاته
حط القوامص فيه بعد قماصها
ضرب يصلصل في الطلى صعقاته
نبذوا السلاح لضيغم عاداته
فرس الفوارس والقنا غاياته
لمجرب عمريه غضباته
للّه معتصمية غزواته
تحيا الضيق صفاده اسراؤه
وتفيض ماء شؤونها نغماته
بين الجبال خواضعا أعناقها
كالذود نابت عن براه حداته

نشرت على حلب عقود بنودهم
حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكر جياده
واستوأرت حمالة حملاته
متساندين على الرحال كما انثنى
شرب أمالت هامه قهواته
لم تنبت الأجام قبل رماحه
شجراً فروع أصوله ثمراته
فليحمد الاسلام ما جدحت له
شربات غرس هذه نخباته
وسقى صداذاك الحيا صوب الحيا
خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ومهدت
لمقر منصبك السرى سراته
ما ضرّ هذا البدر وهو محلق
إن الكواكب في الذرى ضراته
في كل يوم تستطيل قناته
فوق السماء وتعتلي درجاته
وترى كشمس في الضحى آثاره
مجدا وألسنة الزمان رواته
أين الأولى ملأوا الطروس زخارفا
عن نزف بحر هذه قطراته
عذقوا بأعناق العواطل ماله
من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا اسمطا ببعض فتوحه
سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته
تمسي قنانيه بنات قيونه
فوق القوانس والقنا قيناته

صلتبان من دون الملوك تغرها
حركاته وتنيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه هماتهم
وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا مسجفة الحجال وأسكنت
زحل الرجال مع السها عزماته
لو لاح للطائي غرة فتحه
باءت بحمل تأوه بآآته
أوهب للطبري طيب نسيمه
لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدى سبأ خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح مقر ما خبت عذراته
فانقاد في خطم المنية أنفه
يوم الخطيم واقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت إنب همة
أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبوأكالغرنف فجآته
فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما
اغضت وقد كرت لها لحظاته
فجلوته تبكي الاصادق تحته
بدم إذا ضحكت له شماته
تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته
لاراك شاهد خفضه اخباته

مـــا انقـــاد قبلـــك أنفـــه لخزامـــه
كـــلا ولا همســـت لها هـــدراتـــه
طيـــان خلـــف السرج طـــال زئيره
نطقـــت سطـــاك لـــه فطـــال صماتـــه
لما بـــدا مســـود رأيـــك فـــوقـــه
مبيـــض نصرك نكســـت رايـــاتـــه
ورأى سيـوفـك كـالصـوالـج طـاوحـت
مثـــل الكـــريـــن فقلصـــت كـــراتـــه
ولى وقـــد شربـــت ظبـــاك كماتـــه
تحت العجـــاج وأسلمتـــه حماتـــه
تـــرك الكنـــائس والكنـــاس لنـــاهـــب
بـــالبيـــض نهب مـــا حـــواه عفـــاتـــه
لغـــلاب أروع لا يميـــت عـــداتـــه
داء المطـــال ولا تعيـــش عـــداتـــه
للـــوحـــش ملقـــى بـــالعـــرا يقتـــاتـــه
مـــاكـــان قبـــل بصيـــده يقتـــاتـــه
اليـــوم ملكـــك القـــراع قـــلاعـــه
متسنما مـــا استشرفـــت شرفـــاتـــه
وغـــدا تحل لـــك الحلائل اسهـــم
متـــوزعـــات بينهـــن بنـــاتـــه
اوطـــأت أطـــراف السنـــابـــك هـــامـــه
فتقـــاذفـــت بعنيفهـــا قـــذفـــاتـــه
لازال هـــذا الملـــك يشمـــخ شـــأنـــه
أبـــدا ويلفـــت في الحضيـــض وشـــاتـــه
مـــا أخطـــأتـــك يـــد الـــزمـــان فـــدونـــه
مـــن شـــاء فلتسرع إليـــه هنـــاتـــه
أنـــت الـــذي تحلى الحيـــاة حيـــاتـــه
وتهب أرواح القصيـــدهبـــاتـــه

فصل

قال ابن الاثير: وفيها سار نور الدين إلى حصن فامية، وهو للفرنج أيضا، وبينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبوها، فأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نو الدين إليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحو ه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذه ومدحه الشعراء وأكثر وا.منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنى الممالك ما اطلت منارها
وجعلت مرهفة الشفار دثارها

وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكنف عدله أقطارها

من عام سام الخافقين وحامها
مننا وزاد هوى فخص نزارها

مضرية طبعت مضاربه وإن
عدّته ذروة فارس اسوارها

آل الشرعية وهي تجهل آلها
وتعاف نطفتها وتكره دارها

فأقرّ ضجعتها وأنبت نيها
وأساغ جرعتها واثبت زارها

ملك أبوه سما لها فسما بها
وأجارها فعلت سهيلا جارها

نهج السبيـل لـه فـأوضـع خلفـه
وشـدا لـه يمـن العلى فـانـارهـا
أنشرت يـا محمـود ملـة أحمد
مـن بعـد مـا شمـل البلى اصحـارهـا
إن جـانـأت عـدل السنـان قـوامهـا
أو نـانـأت كـان الحسـام جبـارهـا
عقلـت مـع العصـم العـواصـم مـذ غـدت
هـذي العـزائم أسرهـا وإسـارهـا
وتكلفـت لـك ضمـر انضيتهـا
في صـونها أن تستردّ ضمارهـا
كـلأت هـواملهـا وردّ مطـارهـا
مـا أريشتـه وثقفـت آطـارهـا
كـم حـاولـت مـن كفتيهـا غـرّة
غلـب الأسـود فقلمـت أظفـارهـا
أنـى وحـامـي سرحهـا مـن لـو سمـت
للفلـك بسطتـه أحـال مـدارهـا
في كـل يـوم مـن فتـوحـك سـورة
للـديـن يحمـل سفـره أسفـارهـا
ومطيلـة قصر المنـابـر إن غـدا الـ
ـخطباء تنشـر فـوقهـا تقصـارهـا
همم تحجلـت الملـوك وراءهـا
بـدم العثـار ومـا اقتفـت آثـارهـا
وعـزائم تستـوثر الآسـاد عـن
نهش الفـرائس إن أحـس أوارهـا
أبـدا تقصر طـول مشرفـة الـذرى
بـالمشرفيـة أو تطيـل قصـارهـا
فغـزت أفـاميـة فما فهمتـه
كـوبـار أجنـاهـا الاران بـوارهـا

أرهفـت رائك فـوق رائك تحتهـا
فحططـت مـن شغفـاتها أعفـارهـا

أدركـت ثـارك في البغـاة وكنـت يـا
مختـار أمّـة أحمد مختـارهـا

عـاريـة الـزمـن المغير سماها
منـك المغيرة فـاستردّ معـارهـا

زأر الهزبـر فقيـدت عـانـاتها
عصر الضـلال وأسلمـت أعيـارهـا

ضـاءت نجـومك فـوقهـا ولـربما
بـاتـت تنـافثهـا النجـوم سرارهـا

أمسـت مـع الشعـرى العبـور وأصبحـت
شعـراء تستقلي الفحـول شـوارهـا

ولكـم فـرعـت بمقـربـاتـك مثلهـا
تلعـا وقلـدت الكماة عـذارهـا

حتـى إذا اشتملتـك أشرق سـورهـا
عـزا وحـلاهـا سنـاك سـوارهـا

خـرّ الصليـب وقـد علـت نغماتها
واستـوبلـت صلـواتـه تكـرارهـا

لما وعـاهـا سمـع انطـاكيـة
سرت الـوقـار وكشفـت أستـارهـا

فـاليـوم أضحـت تستـذمّ مجيرهـا
مـن جـوره وغـدت تـذمّ جـوارهـا

علمـت بـأن ستـذوق جـرعـة أختهـا
إن زرّ أطـواق القبـاء وزارهـا

مـاض إذا قـرع الـركـاب لبلـدة
ألقـت لـه قبـل القـراع ازارهـا

و إذا مجانقـه ركعـن لصعبـة الـ
ـملقاة أسجـد كـالجديـر جـدارهـا

ملأ البلاد مواهبا ومهابة
حتى استرقت آية أحرارها

يذكي العيون إذا أقام لعينها
أبدا ويفضي بالظبى أبكارها

أوما إلى رمم الندى فأعاشها
وهما السابقة المنى فأزارها

نبويّ تشبيه الفتوح كأنها
أنصاره رجعت له أنصارها

أحيا الصرح سلامها سلها نها
وأمات تحت عمارها أعمارها

إن سار سار وقد تقدّم جيشه
رجف يقصع في اللهي ذعارها

أو حلّ حلّ حبا القروم بهيبة
سلب البدور وبدارها أبدارها

وإذا الملوك تنافسوا درج العلى
أربى بنفس أفرعته خيارها

ونهى إذا هيضت تدلّ لجبرها
وسطى تذل إذا عنت جبارها

تهدى لمحمود السجايا كاسمه
لولز فاعلة بها لأبارها

الفاعل الفعلات ينظم في الدجى
بين النجوم حسودها اسمارها

ساع سعى والسابقات وراءه
عنقا فعصفر منتهاه عثارها

كالمضرجي إذا يصرصر رائبا
خرس البغاث وهاجرت أوكارها

عرفت لنور الدين نور وقائع
يغشى إذا اكتحلت به أبصارها

مشهورة سطعت وقد حاولتها الـ
ـأقدار عجزا أن تشق غبارها

للّه وجهك والوجوه كأنما
حطت بها أوقار هبت قارها

والبيض تخنس في الصدور صدورها
هبرا وتكتحل الشفور شفارها

والخيل تدلج تحت أرشية القنا
جذب المواتح غاورت أبارها

فبقيت تستجلي الفتوح عرائسا
متمليا صدر العلى وصدارها

في دولة للنصر فوق لوائها
زبر تنمق في الطلى أسطارها

فالدين مرماة رفعت بها الصوى
وحديقة ضمنت يداك ابارها

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنس الثعالب حين زجر مصحر
ملأ البلاد هماهما وزئيرا

تركوا مشاجرة الرماح لحاذق
جعلت مخافته القصور قبورا

لربيب حرب لم تزل فعلاته
كالراء يلزم لفظها التكريرا

أسد إذا ما عاد من ظفر بمفـ
ـترس أحدّ لمثله اظفورا

يتناذر الاعداء منه سطوة
ملأ الزمان تغيظا وزفيرا

عرفوا النور الدين وقع وقائع
وفي بها الاسلام أمس نذورا

أبــدا يظــافــرك القضــاء على الــذي
تبغــي فترجــع ظــافــرا منصــورا
قــوّضــت فــانتقــع الظهــائر ظلمــة
وقفلــت فــاشتعــل الــديــاجــر نــورا
وعلى العــواصــم مــن دفــاعــك عــاصــم
ينشــي الــرشيــد وينشر المنصــورا

فصل

في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصل معين الدين من عسكره بحوران ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الآخر لأمر أوجب ذلك ودعا إليه وأمعن في الأكل ، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مرض في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق، في محفة لمداواته فوصل، وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها.

قلت: قبره في قبة بمقابر العوينة شمالي دار البطيخ الآن واسمه مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم إليها، وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وكتب بها إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كــل يــوم فتــح مبين ونصر
واعتــلاء على الاعــادي وقهــر

صـدق النعـت فيـك أنـت معين الـ
ـدين إن النعـوت فـال وزجـر
أنـت سيـف الاسـلام حقـا فـلا كـل
غـراريـك أيها السيـف دهـر
لم تـزل تضمـر الجهـاد مسرا
ثـم أعلنـت حين أمكـن جهـر
كـل ذخـر الملـوك يفنـى وذخـرا
ك هما البـاقيـان أجـر وشكـر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفيئة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء النـاس له وشكرهم، قال: واستوحـش الرئيس مؤيـد الدولة مـن مجير الدين استيحاشـا أوجب جمع مـن أمكنه مـن سفهـاء الأحداث والغـوغاء وحملـة السـلاح من الجهلـة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زيـن الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتـم عليهما، وذلك في ثالـث عشر رجب، ووقعت المراسـلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيـب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجـدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد ، وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غـلاقه واطلقـوا مـن فيـه، واستنفروا جماعـة مـن أهـل الشاغـور وغيرهـم وقصدوا البـاب الشرقي وفعلوا مثل ذلـك، وحصلوا في جمع كثير، وامتـلأت بهم الأزقة والـدروب، فحين عرف مجير الـدين وأصحـابه هـذه الصورة اجتمعـوا في القلعة بالسـلاح الشاكي، وأخـرج ما في خزانتـه من السـلاح والعـدد وفرقـت على العسكـر، وعـزمـوا على الزحـف على جميـع الأوباش والايقاع بهم والنكـاية فيهم، فسأل جماعة مـن المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلـة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلـد من النهب والحريق، وألحوا عليـه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلـة والتلطف في إصلاح ذات البين، فـاشترط الرئيس وأخـوه شروطا أجيبـا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازماً لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولايركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدّمين والرعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة ثائرةوالمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابهما ،وعمها النهب والاخراب، ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لايكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقله.

ذر الاتـــراك والعـــربـــا
وكـــن في حـــزب مـــن غلبـــا

بجلـــق أصبحـــت فتـــن
تجر الـــويـــل والحربـــا

لئـــن تمت فـــوا أسفـــا
ولم تحزن فـــوا عجبـــا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زدعلـــوا في المجـــد يـــابـــن علي
هكـــذا مـــن أراد أن يتعـــالى

وغـــدت جلـــق تنـــاديـــك عجبـــا
هكـــذا هكـــذا والا فـــلا لا

لـــن تبـــالي مـــن بعـــدهـــا بعـــدو
إنما ذاك كـــان قطعـــا فـــزالا
قـــد حـــوى الـــدين يـــا مـــؤيـــده منـــ
ـــك هـــز بـــراً وديمـــة وهـــلالا
جئتهـــا في الظـــلام خيـــلا ورجـــلا
وحميـــت النفـــوس والامـــوالا
قـــد بلغـــت المراد مـــن كـــل ضـــد
وكفـــى اللّـــه المؤمنين القتـــالا

قال أبو يعلى التميمي: وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر في خامس جمادى الآخرة ، وولي الأمر بعد ولده الأصغر أبو منصور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولي الوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

فصل

في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابن الاثير:كان أتابك الشهيد، يعني زنكي، ملك دارا وبقيت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة أربع وأربعين فحاصرها وملكها واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها، ثم حصر ماردين عازما على أن يدخل ديار بكر، ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده، فتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كانت أعياداً قد حصرنا غير مرة فلم يتعدّ هو وعسكره حاصل

السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:

رب دهـــــر بكيـــــت منـــــه فلما
صرت في غيره بكيـــــــت عليـــــــه

ثم إنـه راسل سيف الديـن وصالحه على ما أراد وزوجه ابنتـه الخاتون، ورحـل سيف الـدين عـن ماردين وعاد إلى الموصـل، وجهزت الخاتـون وسيرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مـريض فتوفي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكـان عمره نحو أربعين سنة، وكـان من أحسن الناس صورة، ودفـن بالمدرسة التي أنشـأها بباطن الموصـل، وخلف ولدا ذكر أخذه نـور الدين محمود عمـه فرباه فأحسـن تربيته وزوّجه ابنـة عمه قطب الدين مـودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفـوان شبابه فتوفي وانقرض عقـب سيف الـدين، وكـان كريما شجـاعاً ذا عـزم وحزم، وهـو أوّل من حمل على رأسه سنجـق من أصحاب الأطراف فإنـه لم يكن فيهم مـن يفعله لأجـل السلاطين السلجـوقيـة، وهو أوّل مـن أمر عسكـره أن لايركـب أحدهـم إلا والسيف في وسطه، فلما أمـر هو بـذلك إقتـدى به غيره من أصحـاب الأطراف، وبنـى بالموصـل المدرسة الأتـابكية العتيقـة وهي مـن أحسن المدارس وأوسعها، وجعلهـا وقفا على الفقهاء الشـافعية والحنفيـة نصفين، وبنى ربـاط الصـوفيـة بالموصـل أيضـا، وهـو الربـاط المجاور لبـاب المشرعة ووقف عليهما الـوقوف الكثيرة، وكان كـريما قصده شهاب الـدين حيص بيـص وامتدحه بقصيدتـه المشهورة وهي مـن جيد شعره فـأجازه عنها ألـف دينار أميري سوى الاقامـة والتعهد مدّة مقـامه وسوى الخلع والثياب.

قلت أوّل تلك القصيدة:

إلى م يـــــراك المجـــــد في زي شـــــاعـــــر

يقول في آخرها:

أتـــابـــك إن سميـــت في المهـــد غـــازيـــا
فســـــابقـــــة معـــــدودة في البشـــــائر

وفيـــت بها والـــدين قـــدمـــال روقـــه
وصـــدّقتهـــا والكفـــر بـــادي الشعـــائر

وعـزى أبو الحسين أحمد بـن منير نـور الديـن بـأخيـه بقصيدة تقـدّم بعضها أوّلها:

هـــــو الجدّ بـــــز التمام البـــــدورا

يقول فيها:

ســـوى كـــل مـــا جنـــت الحادثـــا
ت مـــاكنـــت ظـــلا علينـــا قـــريـــرا

أســـــأ ن وأحســـــن كـــــنّ الهلال
ومـــــلأننـــــا منـــــك بـــــدرا منيرا

إذا ثبـــــج البحـــــر أخطـــــأته
فـــلا غـــر وأن ينتشفـــن الغـــديـــرا

وأصغـــــر بفقـــــداننـــــا الـــــذاهبـــــ
ـــين مـــا عشـــت نـــاتيـــك ملكـــا كبيرا

ومـــا أغمـــد الـــدهـــر ذاك الحســـا
م مـــاســـلّ حـــداك عضبـــا بتـــورا

قسيـــــم عـــــلاك ونعـــــم القســـــ
ـــــيم أخ شـــاف نـــزرا وأعطـــى كثيرا

وكـــــان نظيرك غـــــار الـــــزمـــــا
ن مـــن أن يـــرى لـــك فيـــه نظيرا

فـــدتـــك نفـــوس بـــك استـــوطنـــت
مـــن الأمـــن نـــورا وقـــد كـــنّ بـــورا

وغيرك يمهـــــد بســـــط العـــــزا
ء ويـــــولي المسلمين سمعـــــا وقـــــورا

ومـــا نقـــص الـــدهـــر اعـــدادكـــم
إذا شـــف قطـــرا وأبقـــى بحـــورا

ولـــو أنصـــف المجـــد مـــوتـــاكـــم
لخط لهم في السماء القـــــــــــــورا

حيـــاتـــك أحيـــت رميـــم الـــرجـــا
وأمطـــــت مـــن الجود ظهـــرا ظهيرا

بقيـــــت معـــــزا مـــــن الهالكـــــ
ـــين تـــوقـــى الـــردى تـــوفي الاجـــورا

وللقيسراني قصيدة منها

مـــا أطـــرق الجوّ حتـــى أشرق الافـــق
إن أغمـــد السيـــف فـــالصمصـــام يـــأتلـــق

دون الاســـى منـــك نـــور الـــديـــن في حلـــب
مملـــك ينجلي عـــن وجهـــه الغســـق

هـــو الشقيـــق الشفيـــق الغيـــب حين ثـــوى
أراق مـــاء الكـــرى مـــن جفنـــك الارق

تلقـــى الاســـى مـــن لبـــاس الصبر في جنـــن
حصينـــــة تحتهـــــا الاحشـــــاء تحترق

ومـــدّة الاجـــل المحتـــوم إن خفيـــت
فـــإن أيـــامنـــا مـــن دونها طـــرق

وإنما نحـــــن في مضمار حلبتهـــــا
خيـــل إلى غـــايـــة الاعمار تستبـــق

وإذا ابتـــدر الاقـــوام غـــايتـــه
كـــان المؤخـــر فيهـــا مـــن لـــه السبـــق

إن كـــان صنـــوك هـــذا قـــد ثـــوى وذوى
ففـــي مغـــارســـك الاثمار والـــورق

أو أصبحـــت بعـــده الاهـــواء نـــافـــرة
أيـــدي سبـــا فعلى عليـــاك نتفـــق

مـــاغـــاب مـــن غـــاب عـــن آفـــاق مطلعـــه
الا ليفترّ عـــــن أنـــــوارك الافـــــق
مـــادام شمســـك فينـــا غير آفلـــة
فـــالـــديـــن منتظـــم والملـــك متســـق

فصل

قال ابـن الاثير: لما توفي سيـف الدين غـازي كان أخـوه قطب الـدين مـودود بالموصـل، فاتفقـت كلمة جمال الـدين وزيـن الديـن على توليتـه وتمليكه طلبـا للسلامـة منه، فـإنه كـان لين الجانب حسـن الأخلاق كثير الحلم كريـم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا لـه ونزل بدار المملكة،وحلـف له الأمـراء والأجناد واستقـر في الملك، وأطـاعه جميـع ما كـان لأخيه سيـف الـدين ، لأن المرجـع كـان في جميع المملكـة إلى جمال الديـن وزين الديـن، ولما ملك واستقرّ في الملـك تزوّج امرأة أخيـه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الـدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الـدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعـده على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكـانت هـذه الخاتون يحل لها ان تضـع خمارها عنـد خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادهـا وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثـم ذكرهـم ابن الاثير في كتـابه وسماهـم، وذكر أنها أشبهـت في ذلك فـاطمة بنت عبـد الملك بن مروان زوج عمـر بن عبد العـزيز رضي اللّـه عنه، وكـان لها أن تضـع خمارها عنـد ثلاثـة عشر خليفـة وهم مـن معاوية إلى آخـر خلفاء بني أمية سوى آخـرهم وهو مروان بن محمـد فإنه ابن عم لها ليس بمحـرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلـك إلاّ بعد ذكره أن أمها عاتكـة بنت يزيد بن معاويـة، فمعاوية جدّ أمها، ويزيـد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومـروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليـد وسليمان وهشام ويـزيد أخـوتها، وعمر بـن عبد العـزيز زوجهـا،

والوليـد بن يزيـد ويزيد بـن الوليـد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهـم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كلـه مبني على أصل فيه خلـل، وهو أن فاطمة بنـت عبد الملك ليست أمهـا عاتكة بنت يزيـد بن معاوية، بل أمهـا امرأة مخزومية، على مـا بيناه في تـرجمتها في تـاريـخ دمشق، ولكـن الصواب في ذلـك أن يقال كـان لفاطمة أن تضـع خمارها عنـد عشرة من الخلفاء، وهـم: مروان ابن الحكـم ونسله سوى، مـروان بن محمد، وأمـا عاتكة فـالجميع محرم لها سوى عمر بن العـزيز ومروان بن محمد،بقي اثنـا عشر خليفة كلهم محارم لها : معاويـة جدّهـا، ويزيـد أبوها، ومعـاوية بـن يزيـد أخوهـا، ومروان حموها، وعبد الملـك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجهـا، ويزيد ابـن عبد الملـك ابنها، والـوليد بـن يزيـد ابـن ابنها، ويـزيد بـن الوليـد وابراهيم بن الـوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيـف إلى ذلك الملوك من محارم عـاتكة أو فـاطمـة كالأخـوة والأعمام والأخوال وبنـي الاخـوة لتضاعـف العدد، كخالـد بن يزيد بن معاويـة أخي عاتكة، وعبد العزيـز بن مروان عم فـاطمة، ومسلمة وعبـد الله ابني عبد الملـك، وغيرهم، وذلك ظـاهر لمن عرف أنسـاب بني أميـة، وماذكـر ابن الاثير مـن أمر حسـام الديـن، فست الشـام بنت أيوب أكثـر منها محارم مـن الملوك يجتمع لها مـن ذلك أكثـر من ثـلاثين ملكـا من أخـوتها الأربعة: المعظـم، وصـلاح الديـن، والعـادل،وسيـف الاسـلام، ومـن أولادهـم وأولاد أولادهـم وأولاد أخيهـا الأكبر شاهنشـاه بن أيوب تقـي الديـن وذرّيته أصحاب حماه، وفـرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك.

فصل

قال ابـن الاثير: ولما ملك قطـب الدين الموصـل والبلاد الجزريـة، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقدّم والد شمس الدين بن المقدّم، وهو حينئذ دز دار سنجار، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارسا مُن أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهم اللبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلو إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد كأنهم تركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه، وسار مجداً إلى سنجار فوصلها وليس معه إلاّ نفر يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدّة تعبه، وأرسل إلى المقدّم بالقلعة يعرفه وصوله، وكان المقدّم قد استدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها فأرسلوا إليه، فوقف عدّة أيام فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل، وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتاخر في الطريق فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين فخاف فوات الأمر، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده، وبذل له قلعة الهيثم فسار إليه بجنده، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل، نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختيارا، فأعاد الجواب: إنني أنا الاكبروأنا أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلاّ لما تتابعت كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم – يعني الجمال والزين– فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدّدكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلاّ

بجندكم وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين الوزير، وقال: نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهددهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنج، ولنا بالشام حمص، وقد وصار له عندنا سنجار، فهذه أنفع لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه والرأي أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار وهو في ثغر بازاء الفرنج ويتعين مساعدته، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين لأن حمص كانت لأخيه ينال ، وهو مقيم بها، واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم، وكل واحد منهما لايصدر إلاّ عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال:أنت عندك من الكفاية ما يستغني به عن وزير ومشير وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك لأنّ عدوّك كافر فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي، فأجابه إلى ذلك فقال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة، فأمر له بها، فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت :وقرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الدين عند قدومه وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة:

هذا الذي ولدت له الافكار
وتمخضت فألا به الاشعار

وجرت له خيل النهى في حلبة
وردت وصفو ضميرها المضمار

واتت به نذر القوافي برهة
إن القوافي وحيها انذار

حكمت لسيفك بالممالك عنوة
حكما لعمري ما عليه غبار

يا أيها الملك المطيل نجاده
برّ يدين بهديه الابرار

يا بن السيوف وهل فخرت بنسبة
إلا سما بك للجدود فخار

فارقت دارا الملك غير مفارق
لك من علاك بكل أرض دار

في عسكر تخفي كواكب ليله
نقعا فيطلعها القنا الخطار

جرّار أذيال العجاج وراءه
وأمامه بل جحفل جرّار

تدني لك الغايات أكبر همة
نورية همم الملوك كبار

حتى ملأت الخافقين مهابة
دانت لعظم نظامها الاقطار

وملكت سنجارا وما من بلدة
إلا تمنت أنها سنجار

وبسطت بالأموال كفا طالما
طالت بها الآمال وهي قصار

وجرت بأمداد الجياد شعابها
جري السيول وما سواك قرار

وثنـــى الفـــرات إلى يـــديـــك عنـــانـــه
والبحـــر مـــا اتصلـــت بـــه الانهار
وملكـــت رحبـــة مـــالـــك فتبرجـــت
منهـــا العينـــك كـــاعـــب معطـــار
جـــاءتـــك في حلـــل الـــربيـــع وحليهـــا
قبـــل الـــربيـــع شقـــائق وبهار
نشـــرت عليـــك هـــوى القـــلوب محبـــة
وتـــودّ لـــو أنّ النجـــوم نثـــار
فـــأقمـــت كـــالشمـــس إن نـــأت
عـــن أفقهـــا فلهـــا بـــه أقمار
مـــن كـــان نـــور الـــديـــن ثـــم أجنّـــة
ليـــل السرى حفـــت بـــه الانـــوار
تـــدعـــو البـــلاد إليـــك ألسنـــة الظبـــى
فيجيبـــك الانجـــاد والاغـــوار
حتـــى عمـــدت الـــديـــن يـــابـــن عماده
بقنـــا أسنتهـــا عليـــه منـــار
وقفلـــت مـــن أسفـــار جـــدّك قـــادمـــا
كـــالصبـــح نـــمّ بثغـــره الاسفـــار
يغشـــى البصـــائر نـــور وجهـــك بعـــدمـــا اعـــ
ـــتركت على قسما تـــه الأبصـــار
حتـــى عمـــرت بكـــل قلـــب صـــدره
حيـــث الصـــدور مـــن القلـــوب قفـــار
إن تمس في حلـــب ريـــاحـــك غضـــة
فلهـــا بـــأنطـــاكيـــة إعصـــار
وغـــدت جيـــادك بـــالشـــآم مقيمـــة
ولها بـــأطـــراف الـــدروب مغـــار
همم سبقـــت بها إلى مهـــج العـــدى
صرف الـــردى ومسيره إحضـــار

وأرى صباح القمص كان خديعة
فطغى وجاور ليس ثم وجار
سأل الصنيعة غير محقوق بها
والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عائثا
اقدام من لم يدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوّك بغيه
بالغدر يطعن في الوغى الغدّار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل
كالليل فيه من الصفيح بهار
جند على جرد أمام صدورها
صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصره
ولكل هادي أمّة أنصار
ملك له من عدله ووفائه
جيش به تستفتح الامصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية
وأرادها خفت به الاقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة
قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه:
ترنح معطف الزوراء لما
دعاك لزور سنجار لمام
وزلزلت الصعيد وراء مصر
غداة علتك في قطنا الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف
ولو قد شئت ضمهما قرام

بعيشك يا مبيد الخيل ركضا
حمام هن تحتك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنئه بتسلم قلعة حمص من ينال، وأنشده في القلعة قصيدة أوّلها:

ارحها فهي أزلام المعالي
لهنّ إلى الوغى توق المغالي

أما ومقيلهن بكل نقع
يقوّض بالهدى عمر الضلال

وأي سيوفك الحمر الحواشي
منزلة متى دعيت نزال

مواض إن سللن جزما
نفاه من الطلى لفظ اعتلال

لقد غلب الصليب بحر حرب
يشيب أوارها لمم الليالي

وشمت لنصر هذا الدين بأساً
يحرّم منه كل حمى حلال

وقايع أترعت في كل فج
وقايع جوّها دامي العزال

ومنها:

تسائل حمص عن منسي دين
تقاضاه لك الحجج الخوالي

فواتت وهي أخت النجم بعدا
ووعدا صيغ من مطل مطال

تشامخ أنفها عزاًوشدّت
على أن لا تنال يداينال

فما زالت رقاك تجدّ نقضا
لما تثنيه من مرر الحبال

إلى أن أطلق الحسناء كرها
وآل إلى ملاوحة المآلي

يصد الوجه عن شما القت
يد الاشم ذي باع طوال

شغلت بها يمينك والمواضي
تكفل أن مصرا للشمال

إذا فتح القتال عليك أرضا
أباحك أختها لا عن قتال

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس، وبعض العساكر بيعفور، فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرّروا معهم الانجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعرف نور الدين خبرهم، فلم يحفل بهم وقال: لاأنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العيث والافساد في الضياع ،وأمر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأودية وزادت الأنهاروامتلأت برك حوران ودارت أرحيتها، وعاد ما صوح من الزرع والنبات طرياً ، وحشد الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته، ثم رحل من منزله بالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجيرالدين والرئيس وقال: إنني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم ولايسعني مع ما أعطاني اللّه ، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالأفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم، وهذا لا يرضي اللّه تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بدّ من المعونة من ألف فارس مزاحي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة : ليس بيننا وبينك إلاّ السيف، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا، فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجب منه والانكار له، وعزم على الزحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم، فأرسل اللّه من الامطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرّم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرما محترما، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعاده الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما دبر

قلت وفي ذلك يقول القيسراني:

لك اللّه إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحا عدّ من حزمك الصلح

وهل أنت إلاّ السيف في كل حالة
فطورا له حد وطورا له صفح

سقيت الردينيات حتى رددتها
ترنح من سكر فخلّ القنا تصحو

وما كان كف العزم إلاّ اشارة
إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح

وقد علم الاعداء مذ بت جانحا
إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو

إذا ما دمشق ملكتك عنانها
تيقن من في إيليا أنه الذبح
متى التف نقع الجحفلين على الهدى
فلا مهمة يحوي الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين في الجيش عازما
فقولا لليل الافك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها
فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر غير مغبة
فسيق إليك الملك يسعى به النجح
كأنّ القنا تجلو له وجه أمره
ولو أمهلت بلقيس ما غرّها الصرح
بدولتك الغرّاء أصبح ضدّها
بهيا ولولا الحسن ما عرف القبح
وكم من قريح القلب لو بات واردا
موارد هذا العدل ما مسه قرح
سخابك هذا الدهر جودا على الورى
على أنه ما زال في طبعه شح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة
ونحن نراه اليوم يثبت ما يمحو
بك ابتهج الالباب وانتهج الحجى
وأثمرت الآداب واطرد المدح
ولاذت بك التقوى، وعاذت بك العلى
ودانت لك الدنيا وعز بك السرح
فلا قلب الا قد تملكته هوى
ولا صدر إلاّ قد جلاه لك النصح
وما الجود في الاملاك إلاّ تجارة
فمن فاته حمد الورى فاته الربح

ولم اختصر ما قلت إلاّ لأنني
اعبر عما لا يقوم به الشرح

فصل

في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب قتالها إلى أن سهل اللّه تعالى ملكها بالأمان ، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائدا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأوّل.

قلت:وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أوّلها:

فدتك القلوب بألبابها
وساح الملوك بأربابها
كتائب ترمي جنود الصليـ
ـب منها بتقطيع أصلابها
إذا ما انثنت من قراع الكما
ة كست وفدها وشي أسلابها
تبرنس منها البرنس الثيا
ب وحلته من وقع احلابها
عشية غصت على إنب
نفوس النصارى بغصابها
وقام لأحمد محمودها
بجذع موازن أحزابها

تجلى لها حيدري المصاع
أغلب مود بغلابها
مورث أركاسها من أب
أكول الفوارس شرابها
همام إذا أعصوصبت نبوة
دهاها بها شم أعصابها
مضى وجنى لك حلو الشها
د مما تمطق من صابها
وأوصى بها لك من بعد ما
تجرّع ممقر أو صابها
واقسم جدّك أن لا يليـ
ـق بغيرك ملبس أثوابها
صبحت دمشق بمشق الجياد
زبور الوغى بين أحدابها
واصلت رأيك قبل الحسا
م مخمد جمرة أجلابها
فأعطتك ما لم تنله يد
وفازت رقاك بأصحابها
وأنت تصرف فضل الزما
م من حمص تأخير ركابها
تخوّنها الجور فاستدركت
بعدلك أغبار ظبظابها
وفاجأت قورس بالشائلات
تمج القنا سم اذنابها
فما رمت حتى رمت بيضها
إليك أزمة ضرابها
وعزت عزاز فأذللتها
بمجرى مضيق لاسهابها

ـاشمخ من أنفها منكبا
وأكثر من عدّ طورابها
دلفت لعيطا أم النجو
م في الأمر ايطناء أترابها
وعذرا مذ عمرت ما اهتدت
ظنون الليالي لاحزابها
تفرعتها بفروع الوشـ
ـيج مثمرة هام أوشابها
وعوج إذا انبضت اغمضت
ذكاء لارسال نشابها
ومحدود بات تطير الخطوب
ملافظ ألسن خطابها
تصوّب عقبان ريب المنون
متى بنتها باعقابها
وما ركعت حول شم الهضا
ب الاسجدن لانصابها
فلاذت بمعتصم بالكتا
ب وهوب المهالك سلابها
بمعتصمي الذرى والهدى
هموس السّرى غير هيابها
محلى المحل بوصف الفتو
ح ووصف التهاني وأربابها
وتعجز مداحه أن يحيـ
ـط بآدابه فلك آدابها
بدائع لورد دهر رمـ
ـين بنات حبيب باحبابها
وأين ابن أوس وآياته
من الـلاء أودت بحسابها

مـــن الـــلاء عـــاد عتيـــق لها
وردّ عليهـــا ابـــن خطـــابها
فـــأيـــامـــه مـــن حبـــور تكـــا
د يطير بها فـــرط إعجـــابها
لـــك الفضـــل إن راسلتـــك الجيـــا
د وقـــامـــت أدلـــة أنجـــابها
إذا أغتسقـــت هـــمـــم الجائريـــن
أتيـــت السيـــادة مـــن بـــابها
أبـــوك أبـــوهـــا وأنـــت ابنهـــا
العـــريـــق ودميـــه محرابها
أقـــول لمـــؤجـــره بـــالغـــرو
ر تمطـــت هـــواهـــا فـــأهـــوى بها
حـــذار فعنـــد ابتســـام الغيـــو
ث تخشـــى صـــواعـــق الهابها
ولا تخدعـــوا بـــافترار الليـــو
ث فـــالنـــار في بـــرد أنيـــابها

وبقي أطول من هذا:

فصل

في صفة أسر جوسلين

قال ابـن الأثير: سار نـور الديـن إلى بلاد جـوسلين وهي القـلاع التي شمالي حلب، منهـا: تل بـاشر، وعين تاب، وعـزاز، وغيرها مـن الحصون، فجمع جـوسلين الفرنج فـارسهم وراجلهم ولقوا نـور الدين وكـان بينهم حرب شديـدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنـج، وأخذ جوسلين سلاح دار كـان لنور الديـن أسيراً، وأخذ ما معـه من السلاح فـأنفذه إلى

السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك الأعمال، وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد انفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره، فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم إن هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا وإما أسراً، فاتفق أن جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانعهم على مال بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين، فأرسل جوسلين في إحضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهراً وكان نور الدين حينئذ بحمص، وكان أسره من أعظم الفتوحات على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين وكان هو يتقدّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدّة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر لايقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه ،فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره وحاق به مكره (ولايحيق المكر السيء إلاّ بأهله)(٥٨)فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب و،عزاز وقورس ،والراوندان ،وحصن البارة، وتل خالد،وكفر لاثا وكفر سود ،وحصن سرفوت بجبل بني عليم ،ودلوك ،ومرعش ،ونهر الجوز، وبرج الرصاص.

قال: وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصناً لايرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء.

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى من غره النهي والأمر
فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى
فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجدّ أمسى دون غايته المنى
فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها
حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
وخطب العلى بـ السيف مادونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا
عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة
نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الأمن والعدل نحلة
فامست ولا اسر تخاف ولا إصر

فــان صـافحـت يمنـاك مــن بعـد هجـرهــا
فــاحلى التــلاقــي مــا تقــدّمــه هجــر
وهـــل هـــي الا كـــالحصـــان تمنعــت
دلالا وان عـــز الحيـــا وغــــلا المهـــر
ولكـــن إذا مـــا قستهـــا بصـــداقهـــا
فليـــس لـــه قـــدر وليـــس لها قـــدر
هـــي الثغــر أمســى بــالكــراديـس عــابثــا
وأصبـــح عـــن بـــاب الفــراديـــس يفتر
على انها لـــو لم تجيـــك إنـــابـــة
لارهقهـــا مـــن بـــأســك الخوف والـــذعــر
فـــامــا وقفــت الخيـــل نـــاقعـــة الصــدى
على بـــردا مـــن فـــوقهـــا الـــورق النضر
فمـــن بعـــد مـــا أوردتها حـــومـــة الـــوغـــى
وأصـــدرتها والبيـــض مـــن علـــق حمر
وجللتهـــا نقعـــا أضـــاع شيـــاتها
فـــلا شهبهـــا شهـــب ولا شقـــرهـــا شقـــر
على النهـــر لماكـــاثـــر القصـــب القنـــا
مكـــاثـــرة في كـــل نحـــر لها نحـــر
وقـــد شرقـــت أجـــرافـــه بـــدم العـــدى
إلى ان جـــرى العـــاصي وضحضـــاحـــه غمـــر
صـــدعتهـــم صـــدع الـــزجـــاجـــة لا يـــد
لجابـــرهـــا مـــا كـــل كسر لـــه جبر
فـــلا ينتحـــل مـــن بعـــدهـــا الفخـــر دائل
فمـــن بـــارز الابـــرنـــز كـــان لـــه الفخـــر
ومـــن بـــز انطـــاكيـــة مـــن مليكهـــا
أطـــاعتـــه ألحاظ المؤللـــة الخزر
أخـــو الليـــث لـــولا غـــدرة نـــزعـــت بـــه
إلى الـــذئب إن الـــذئب شيمتـــه الغـــدر

أتـــى رأســـه ركضـــا وغـــودر شلـــوه
وليـــس ســـوى عـــافي النســـور لـــه قبر
وقـــد كـــان في استبقـــائه لـــك منـــة
هـــي الفتـــك لـو لم تغضـــب البيـــض والسمـــر

كما أهـــدت الاقـــدار للقمـــص اسره
وأسعـــد قـــرن مـــن حـــواه لـــك الاسر
طغـــى وبغـــى عـــدوا على غلـــوائه
فـــأوبقـــه الكفـــران عـــدواه والكفـــر
والقـــت بـــأيـــديها إليـــك حصـــونـــه
ولـــو لم تجب طـــوعـــا الجاء بها القسر
وأمســـت عـــزاز كـــاسمهـــا بـــك عـــزة
تشـــقّ على النسريـــن لـــو أنها الـــوكـــر
فسر واملأ الـــدنيـــا ضيـــاء وبهجـــة
فبـــالافـــق الـــداجـــى إلى ذا السنـــا فقـــر
كـــأنـــي بهذا العـــزم لا فـــل حـــده
وأقصـــاه بـــالأقصـــى وقـــد قضي الامـــر
وقـــد أصبـــح البيـــت المقـــدس طـــاهـــرا
وليـــس ســـوى جـــاري الـــدمـــاء لـــه طهـــر
وقـــد أدت البيـــض الحداد فـــروضهـــا
فـــلا عهـــدة في عنـــق سيـــف ولا نـــذر
وصلـــت بمعـــراج النبـــي صـــوارم
مســـاجـدهـــا شفـــع وســـاجـد هـــا وتـــر
وإن يتيمـــم ســـاحـــل البحـــر مـــالكـــا
فـــلا عجـــب أن يملـــك الســـاحـــل البحـــر
سللـــت سيـــوفـــا أثكلـــت كـــل بلـــدة
بصـــاحبهـــا حتـــى تخوّفـــك البـــدر
إذا ســـار نـــور الـــديـــن في عـــزمـــاتـــه
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـــع الفجـــر

ولـــو لم يسر في عسكـــر مـــن جنـــوده
لكـــان لـــه مـــن نفســـه عسكـــر مجر

مليـــك سمـت شـــم المنابـــر بـاسمـــه
كما زهيـــت تيهـــا بـــه الأنجـــم الـــزهـــر

فيـــا كعبـــة مـــازال في عـــرصـــاتها
مـــواسـم حـــج لا يـــروّعهـــا النفـــر

خلعـــت على الايـــام مـــن حلـــل العلى
مـلابـس مـن أعـلامهـا الحمـد والشكـر

وتـــوّجـت ثغـــر الشـأم منـك جـلالـة
تمنـــت لها بغـــداد لـــو أنها الثغـــر

فـــلا تفتخـــر مصر علينـــا بنيلهـــا
فيمنـــاك نيـــل كـــل مصر بها مصر

رددت الجهـــاد الصعـــب سهـــلا سبيلـــه
ويـــا طـــالما أمســـى ومسلكـــه وعـــر

وأطمعـت في الافـرنـج مـن كـان بـأسـه
يخوّف أن يعتـــاده منهـــم فكـــر

وأقحمـت جـرد الخيـل أعلى حصـونها
ولـــولاك لم يهجـــم على كـــافـــر كفـــر

ومـــن يـــدعـــي في قتلـــك الشرك شركـــة
إذا لم يكـــن عنـــد القـــوافي لـــه ذكـــر

هـــي القـــانتـات الحافظـات فـروجهـا
فشـاهـدهـا عـدل ورائقهـا سحـر

ولـــو لم يكـــن في فضلهـــا وكمالها
ســوى أنها مـن بعـد عمـر الفتـى عمـر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أوّلها:

أمـــا وخيـــال زار ممـــن أحبـــه
لقـــد هـــاج مـــن ذكـــراه مـــا لا أغبـــه

إذا مــا صبــا قلـب المحـب إلى الصبـا
ذكــرت نسيما بـــا لثغــور مهبــه
فيـــا نفحـــات الشـــأم رفقــا بمهجــة
يحامـــى عليهـــا مــدنــف القلــب صبــه
فـــلا تســـألــن الصـــب أيـــن فـــؤاده
فـــإن فـــؤاد المرء مـــع مـــن يحبـــه
وفي شعـــب الاكـــوار مـــن هـــو عـــالم
غـــداة استطـــار البرق مـــن طـــار لبـــه
يشيـــم ثغـــورا المزن تهمـــى كـــانها
سنـــا بشر نـــور الـــديـــن تنهـــل سحبــه
إذا مـــا سما في مبهـــم الخطـــب وجهــه
تمزق عـــن بـــدر الـــدجنـــة حجبـــه
تـــولـــد بين الغيـــث والليـــث والتقـــى
منـــافســـة أي الثـــلاثـــة تـــربـــه
يعـــدّ مضـــاء في الظبـــى لا وضربـــه
بها قلـــل الاعـــداء مـــا السيـــف ضربـــه
مكين الحجـــى أرضـــى الـــزمـــان بنفســه
إلى الآن حتـــى لان وانقـــــاد صعبـــه
حمى قبـــة الاســـلام بـــالخيـــل فـــاغتـــدت
وأوتـــادهـــا جـــرد الطعـــان وقبـــه
فكـــم هبـــوة أوقعـــن بـــالكفـــر تحتهـــا
فما انقشعـــت الا وللـــذل جنبـــه
كيـــوم الـــرهـــا الـــورهـــاء والهام يـــانـــع
مليّ بـــرعـــي الهنـــد وأنـــى خصبـــه
وشهبـــاء هـــاجتهـــا وغـــى صرخـــديـــة
ثنـــاهـــا وليـــل الحرب ينقـــض شهبـــه
وعـــارم يـــومـــا بـــالعـــريمـــة فـــاغتـــدت
كـــوادي ثمـــود إذ رغـــا فيـــه سقبـــه

وعـــاصي على العـــاصي بـــأرعـــن خـــاطـــب
دم الأفـــك حتـــى أنكـــح النصـــل خطبـــه
بـــانّـــب لما أكســـب المال وانثنـــى
بصـــاحـــب أنطـــاكيـــة وهـــو كسبـــه
غـــداة هـــوى شطـــريـــن للسيـــف رأســـه
وللـــرّمـــح حتـــى تـــوّج الـــرأس قلبـــه
على حين للخطـــيّ فيـــه عـــوامـــل
يعـــاقبـــه خفـــض الحســـام ونصبـــه
وقـــائع محمـــوديـــة النصر لم تـــزل
غـــريبـــا بها عـــن مـــوطـــن السيـــف غـــربـــه
يقـــوم مقـــام الجيـــش فيهـــا وعيـــده
وتفعـــل افعـــال الكتـــائب كتبـــه
وحين انتضتـــه عـــزمـــة مـــن قـــرابـــه
مضـــى وهـــو نصـــل والممالك قـــربـــه
إلى أن دعتـــه ربها كـــل بلـــدة
فليـــس مـــن الأمصـــار مـــا لا يـــربـــه
ولما تـــرى بـــالقمـــص عجـــب هـــوى بـــه
على أم رأس البغـــي والغـــدر عجبـــه
فـــأصبـــح في الحجلين ينكـــر خطـــوه
بعيـــد على الـــرجلين في السعـــي قـــربـــه
تعـــاقبـــه البشرى بـــأخـــذ حصـــونـــه
فيـــا عـــانيـــا ضرب البشـــائر ضربـــه
تنـــاجـــي عـــزاز بـــاسمـــه تـــلّ بـــاشر
فيلعنـــه لعـــن الصريـــح وسبـــه
فـــان يكـــن المقهـــور مـــن ثـــل عـــرشـــه
فهـــذا عمـــود الكفـــر قـــد طـــاح طنبـــه
فقـــل للمـــلـــوك الخافقين نصيحـــة
كـــذا عـــن طـــريـــق الليـــث يـــزأر غلبـــه

وخلوا عن الافاق فالشرق شرقه
بحكم الردينيات والغرب غربه
ولا يعصم بالدرب طاغ على القنا
فإن القنا في ثغرة النحر دربه
رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره
إذا ضاق من صدر الملك رحبه
عفوّ عن الجاني يكاد الذي جنى
بكرّبه شوقا إلى العفو ذنبه
أمتخذ الاخلاص للّه جنة
ومن يعتصم باللّه فاللّه حسبه
أبوك استردّ الشأم بالسيف عنوة
وللروم بأس طالما غال خطبه
إذا ذب عن أضغاث دنياه مالك
فانت الذي عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خير مغبة
فأفرجت عن رأي يسرك غبه
وأوضحت ما بين الفريقين سنة
بها عرف المربوب من هو ربه
وبينت نور الدين ما كان يبتغي
دليلا بأن اللّه من أنت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:
هيهات يعصم من أردت حذار
أني ومن أوهاقك الاقدار

ومنها:
طلعت عليك بجوسلين ذريعة
لاسحل انشاها ولا امرار

وسعـــادة مـــازلـــت تمرى خلفهـــا
فيشـــف وهـــو النـــاتـــق المدرار
فـــارتـــك مـــا يجنـــي الـــوفيّ وفـــاؤه
وأرتـــه كيـــف تحين الغـــدّار
عـــود أمـــرّ على ابـــارك طلعـــه
فـــاحيـــل ذاك البر وهـــو. بـــوار
مـــازلـــت تنعـــم وهو يكفر عـــاتيـــا
واللـــه يهدم مـــابنـــى الكفـــار
حتـــى أتـــاح لقـــومـــه مـــاجـــرّه
لثمـــود مـــن عقـــر الفصيـــل قـــذار
اسرى فـــأصبـــح في بـــراثـــن اسره
لازال يـــدمـــي ظفـــره الاظفـــار
يهب التـــلاد مـــن البـــلاد ومـــا حـــوت
إن السماحـــة للبحـــار بحـــار
يقظـــان يخشـــى اللّـــه في خلـــواتـــه
لامترف لاه ولا جبـــار
نصـــب المراقـــب للعـــواقـــب نـــاظـــرا
فيهـــا الـــذلـــك تـــربـــأ الابـــرار
لا كـــالـــذيـــن تعجلـــوا حســـواتها
وتغلســـوهـــا بعـــد وهـــي خســـار
درجـــوا وأدرج في ملـــف رفـــاتهم
ســـوءى تســـاء لـــذكـــرهـــا الآثـــار
والمرء مـــن يطـــوي فينشر طيـــه
مـــا أودعتـــه صـــدورهـــا الاخيـــار
قـــل لـــلأولى نـــامـــوا على نـــامـــاتـــه
مـــاكـــل هبـــة بـــارح اعصـــار
لا تـــأمنـــوا في اللّـــه بطشـــة ثـــائر
للّـــه مـــلء سريـــره اسرار

صـــاف إذا كـــدر المعـــادن عـــادل
إن حـــاف حكـــام الملـــوك وجـــاروا
أعلى أبـــوه لـــه النجـــاد وشيـــد في
صهـــواتها مـــا ابتنـــاه منـــار
محمـــودا المحمـــود آثـــارا إذا
نظمـــت على جيـــد الـــدجـــى الاسمار
دانـــت لـــه الايـــام صـــاغـــرة كما
دانـــت لـــه ظلـــه الامصـــار

له من أخرى أوّلها:
مـــا الملـــك الا مـــا حـــواك نجـــاده

يقول فيها:
وتـــديـــن حســـده لمحكـــم آيـــة
والفضـــل مـــا شهـــدت بـــه حســـاده
شمـــس إذا مـــا الحرب زر جيـــوبها
حـــل المعـــاقـــد كـــرّه وطـــراده
ألـــوى ألـــدّ حمى الشريعـــة جهـــده
وأذل نـــاصيـــة الضـــلال جهـــاده
صعـــق البرنـــس وقـــد تـــلالأ بـــرقـــه
واطـــار ســـاكـــن جـــأشـــه ارعـــاده
ولي وقـــد سلـــت فسلـــت ضغنـــه
زبـــر تلقـــى فـــودهـــن فـــؤاده
مستلئما مستسلما لا عـــدّه
ردّ المنـــى عنـــه ولا استعـــداده
وبجوسلين احتثهـــن فـــاصبحـــت
نهبـــى لهن بـــلاده وتـــلاده
جـــاءت بـــه بعـــد الشماس عـــوابـــس
قـــود يلين لعنفهـــنّ قيـــاده

بـــــه تصيـــــد لـــــك السعـــــود وقلما
ينجـــو بخير مـــــن أردت مصـــــاده
دانـــــى لــــه قينـــــاه أدهـــــم كلما
غنـــــاه طــــار شما تـــــه عـــوّاده
سلبـــت عـــزاز عـــزاءه وبقـــورس
محجـــوبـــة فـــرشـــت لــــه اقتـــاده
وبتـــل خـــالــــديــوم تـــل جبينهـــا
خلــط الثـــرى بجبينــــه اخــــلاده
وغـــــدا ييــــاشر تــــل بـــاشر قلبـــه
بـــاحـــرّ مـــا حمل القلـــوب عــداده
منـــت أمـــانيـــه بشـــائرك التـــي
عـــــادت لهن مـــــآتما أعيـــــاده
وجبـــوت ملكـــك مـــن نظيـــم ثغبـوره
حليــــا تتــــايـــــه تحتــــه أجيــــاده
لا يخدعنـــك فـــانما اصــــلاح مـــن
يخشـــى انتشـــاط خنـــاقـــه افســـاده
أنـــزلــــه حيـــث قضـــت لـــه غـــدراتـــه
واحلــــه طغيــــانــــه وعنـــــاده
في حيـــث لا يـــأوي لـــه سبحـــانـــه
حنقـــا ويكشـــط جلــــده جـــلاده
وثـــن هـــدمـــت بنـــي الضـــلال بهدمـــه
وعـــدت عبـــادك عنـــوة عبـــاده
فتكـــت بـــه آيـــات مـــن لمحمـــد
ولـــــدينـــــه ابـــــداؤه وعـــــواده
او انشـــط البلـــد الحرام تـــواءمـــت
تثنـــي عليـــه تـــلاعـــه ووهـــاده
ولـــــو ان منبره أطـــــاق تكلما
نطقـــت ببـــاهــــر فضلـــه اعـــواده

نام الخليفة واستطال لذبه
عن سدتيه واستطير رقاده
رجعت لك العز القديم سيوفه
ما زان رونق مائها اغماده
من بعد ما نعق الصليب لحزبه
ورأيت زرع الملك حان حصاده
انى تميل الحادثات رواقه
بهبوبها وابن العماد عماده

فصل

قال ابن الاثير : لما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ملك بعضا، وأبقى بعضاً ، فاجتمعت الفرنج فالتقوا مع نور الدين بدلوك فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها:

هي الخيل خير عتاد الكريم
يحضر للهم احضارها
ضغمت فأدررت أفواهها
وسرت فقلمت أظفارها
الام ولم تبق مما غزو
ت قلوبا تكابد إذ عارها
أما في مفصل آي القرا
ع أن تضع الحرب أوزارها
عسى إن يُحم لهذا الحما
م أن يتوكر أوكارها
وما يوم من غلته واحد
فتودعه اللسن أشعارها
وأين المقاول مما فعلت
ولو شفع الفطراء كثارها

فكــــم اجلبـــت خلفـــك الجافخـــا
ت(٥٩) فصلصل فخرك فخارها

أعــــدت بعصرك هـــــذا الانيــــ
ــــق فتــوح · النبـــي واعصـــارهـــا

وكـــان مهـــاجـــرهـــا تــــابعيــــ
ــــك وانصــــار رأيــك انصـــارهـــا

فجـــــــدّدت اســـــلام سلمانها
وعمـــــر جــــدك عمارهـــــا

ومـــا يـــوم إنــــب الا كتيـــــ
ــــك بــل طــال بــالبــوع اشبــارهـــا

وأيــــامـــك الغـــرمـــن بعــده
يعيـــد إلى الطـــي اغـــرارهـــــا

ولما هبيــــــــت بيصرى سمكــــــت
بـــاهبـــاء خيلــــك أبصـــارهـــا

ويــــــوم على الجون جــــون السرا
ة عـــز فسعطهـــاعـــارهـــا

صــدمـــت عـــريمتهـــا صـــدمـــة
أذابـــت مـــع الماء أحجـــارهـــا

وفي تبـــل بـــاشر بـــاشرتهم
بــزحـــف تســور أســـوارهـــا

وإن دالكتهـــــم دلــــوك فقـــد
شـــدّدت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

وشـــب التـــدامـــر حتـــى طلعـــت
عليهـــا فـــولتـــك أدبـــارهـــا

مشـــاهـــد مشهـــورة نمنمـــت
على صفحـــة الـــدهـــر اسطـــارهـــا

يلــــذ الاغـــاني تــــرجيعهـــا
ويستسفـــر السفـــر أسفـــارهـــا

بنيـــت لـــوفـــد المنـــى كعبـــة
تجير المعلـــــق استـــــارهـــــا
وملكـــــــــــت الاراضي مغبرة
تكــــــاد تحدّث أخبـــــارهـــــا
فمازلـــت تـــدجـــن حتـــى محو
ت دجـــاهـــا وشعشعـــت أنـــوارهـــا
وصلـــت فـــأعـــززت مسكينهـــا
وصلـــت فـــأذللـــت أبـــارهـــا
وصغـــت حلى مـــن عـــلاً أحكمـــت
على عنـــق الـــدهـــر أزرارهـــا

قـال أبو يعلى : في رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفـره بعسكر الأفـرنج النازلين بازائه قـريبا من تـل باشر، وعظيم النكايـة فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مضايقه ومنازله.

قال : وفي أيـام من محرم وصـل جماعة مـن حجاج العـراق وخراسـان : المأخوذين في طريق الحج عند عودهـم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة مـا نزل مثلها بـأحد في السنين الخاليـة، ويكون أبشع منهـا، وذكر أنه كـان في هذا الحاج مـن وجوه خـراسان وأعيـانها وفقهائهـا وعلمائها وقضاتها وخواتين أمراء العساكـر السلطانية والحرم العدد الكثير، والاموال الجمـة والأمتعة الـوافـرة فـأخذ جميـع ذلـك وقتـل الأكثر، وسلـم الاقـل، وهتكـت النساء وسلبـن وهلـك من هلـك بـالجوع والعطـش، فضاقـت الصدور لهذه النازلـة فكسي العاري منهم وأطلق لهم ما استعـانوا به على عودهـم إلى أوطانهم مـن أصحاب المروءة بـدمشق(ذلـك تقديـر العزيـز العليم)[٦٠].

فصل

قـال: وكان مجاهـد الديـن بزان قـد تـوجه إلى حصنـه صرخد ليتفقـد أحـواله، فعـرضـت نفرة بين مجير الـديـن والرئيـس بسعـايات أصحـاب الاغراض والفساد، واقتضت الحال استدعـاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلـك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يـوسف صاحب مجير الديـن عن البلد مـع أصحابه، و تـوجهوا ولم يتعرض لشيء مـن أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها.

قـال: ووردت الأخبـار من مصر بـالخلـف المستمـر بين وزيرهـا ابـن مصال وبين الأمير المظفـر ابن السلار، ووقـوع الحرب وسفك الـدماء إلى أن أسفـرت الحال عن قتـل ابـن مصال الـوزيـر وانتصـاب ابن السـلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيهـا في سابع عشر رجب تـوفي القاضي بهاء الدين عبـد الملك ابن الفقيه عبد الـوهاب الحنبلي، وكان إماما فاضلا منـاظرا مستقلا مفتيا على مذهـب الامامين أحمد وأبي حنيفـة بحكم مـا كان عليـه عند إقـامته بخراسان لطلب العلم والتقدّم، وكـان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حسـن الحديث في الجدّ والهزل، وكان لـه يوم مشهود ودفـن في جوار أبيه وجدّه في مقابر الشهداء.

قال: وتوفي عقيـب وفاته القاضي النقيـب فخر الدولة أبـو الحسين بن أبى الجنّ ، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

ودخلت سنة ست وأربعين

ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماه وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها:

اخليفة اللّه الذي ضمنت له
تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره
والمستطال إليه شقة صرصر
يا نور دين اللّه وابن عماده
والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دار أشائب
عقلوا جيادك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا
نارا تحش بهم غدا في المحشر
اذكوا بجلق حرها واستعرت
لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا
ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذي اد
رع الضلال على أغر مشهر
قلده ما اهدى علي لمرحب
فلقد تهكم في الخداع الخيبري
ما الغش ممن أمه نصرانة
لم تختتن كالغش من متنصر
اذكت لنا هذي العزائم لا خبت
ما غار من سنن الملوك الغبر

اثقـــــاب اراء المعـــــز وخفـــــق را
يـــات العـــزيـــز ويقظـــة المستنصر
شمـــر فقـــد مـــدّت إليـــك رقـــابها
لا يـــدرك الغـــايـــات غير مشمـــر
أولســـت مـــن مـــلأ البسيطـــة عـــدلـــه
واجتـــب بـــا المعـــروف أنـــف المنكـــر
حـــدب الاب البر الكبير ورأفـــة الـــ
ـــأم الحفيـــة بـــاليتيـــم الاصغـــر
يـــا هضبـــة الاســـلام مـــن يعصـــم بها
يـــؤمـــن ومـــن يتـــول عنهـــا يكفـــر
كـــانـــوا على صلـــب الصليـــب سرادقـــا
انبـــت بنيتـــه بكـــل مـــذكـــر
آثـــارهـــم نجـــس اذا لمسجـــد الـــ
ـــأقصى فصـــن مـــادنســـوه وطهـــر
جـــار الخليـــل ومـــن بغـــزة هـــاشـــم
بلهـــامـــك المتـــدمشـــق المتمصر
بعـــرمـــرم صلمـــت وعـــاوعـــه عـــرى
اسماع جيحـــون وسيـــف البربـــر
يفتر عـــن ملـــك الملـــوك منحـــل الـــ
ـــأنـــواء بـــل سعـــد السعـــود الأكبر
عـــن طـــاعـــن الفـــرســـان غير مكـــذب
ومتمـــم الاحســـان غير مكـــدر
بـــدر الجحـــافـــل والمحـــافـــل فـــارس الأ
ســـاد في غـــاب الـــوشيـــج الاسمـــر
ملـــك تســـاوى النـــاس في أوصـــافـــه
عـــذر المقـــلّ وبـــان عجـــز المكثـــر
يـــا أيها الملـــك المنـــادي جـــوده
في ســـائر الآفـــاق هـــل مـــن معسر

إن القصـــائد أصبحـــت أبكـــارهـــا
في ظـــل ملكـــك غـــاليـــات الأمهـــر
إن كنـــت أحييـــت ابـــن حمدان لها
فـــانـــا الـــذي غبرت في وجـــه السري
ولأنـــت أكـــرم مـــن أنـــاس نـــوّهـــوا
بـــاســـم ابـــن أوس واستخصـــوا البحتري
ذلـــت لـــدولتـــك الـــرقـــاب ولا تـــزل
ان تغـــز تغنـــم أو تقـــاتـــل تظفـــر

وكتب إليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول:

أبـــوك أب لـــو كـــان للنـــاس كلهـــم
أبـــا ورضـــوا وطء النجـــوم لفنـــدوا
ومـــا مـــات حتـــى سـد ثلمـــة ملكـــه
بـــك اللّـــه تـــرمـــي مـــا رمـــاه فتصرد
صـدمـت ابـن ذي اللغـديـن فـانحـل عقـده
وكـــا السلـــك قـــد أمســـى يحل ويعقـــد
يقلـــب خلـــف السجـــف عينـــا سخينـــة
ويبكـــي بـــأخـــرى ذات شتر ويسهـــد
ولا غـــرو قـــد أبقـــى أبـــوه وجـــده
لـــه كـــل يـــوم ثـــوب عجـــز يجدّد
فيـــا راكبـــا أمـــا عـــرضـــت فبلغـــن
بيـــوتـــا على جيرون بـــالـــذل تعمـــد
وقـــل لمبيـــد الـــديـــن وهـــو مجيره
بـــزعـــم لـــه وجـــه الحقيقـــة أربـــد
حملـــت الصليـــب بـــاغيـــا ونبـــذتـــه
وثغـــرك مطـــووس يبـــاب وأدرد
وحـــاربـــت حـــزب اللّـــه واللّـــه نـــاصر
لنـــاصره وديـــن أحمد أحمد

تنصرت حينـــا والبـــلاء مـــوكـــل
ولابـــد مـــن يـــوم بـــه تتهـــوّد
وأقســم مـــا ذاق اليهـــود بـــا يليـــا
ومـــوضعهـــا مـــن بختنصر أســـود
كبعــض الــذي جــرّعتــه فسرطتــه(٦١)
وأيـــد فيـــه مـــن عماك المؤيـــد
ولايتـــه عـــزل اليـــك مـــوجـــه
وتصحيفـــه قتـــل عليـــك مـــؤبـــد
رمـــاك بيـــاقـــلا دمشـــق فلـــم تكـــن
ســـوى بقلـــة حمقـــاء بـــالحمـــق تحصـــد
وجـــالـــدت جـــلادا وأنـــت مـــؤنـــث
تـــذكـــرت والجلاد أدهـــى وأجلـــد
تطـــاولـــت لأنفـــس تسمـــى ولا أب
وراءك زحفـــا إنها أنـــت مقعـــد
امسعـــاة نـــور الـــديـــن تبغـــي ودونها الـــ
ـــأسنة تبر والعـــوامـــل تعضـــد
بمحمـــودا المحمـــود سيفـــا وســـاعـــدا
حملـــت لقـــد نـــاجتـــك صما مـــؤيـــد
وهـــل يستـــوي ســـارتـــأســـد طـــاويـــا
ونشـــوان يعلـــو معصما ويـــؤيـــد
تنصرت أمـــا بـــل تمجســـت والـــداً
وعماً فعـــرق الكفـــر فيـــك مـــردّد
تخذت بنـــي الصـــوفي أسرا وأسرة
لكـــي يصلحـــوا مـــا في يـــديـــك فـــأفســـدوا
لعمـــري لنعـــم العبـــد أنـــت تجيعـــه الـــ
ـــموالى وتـــوليـــه هـــوانـــا فيحمـــد
إليكـــم بنـــي العـــلات عـــن متشـــاوس
لـــه الشـــأم مـــرفـــا والعـــراق مـــرفـــد

مـــا مصر إلاّ بعــض امصــاره التـــي
إلى أمـــره تسعـــى قماء وتحفـــد
انيبـــوا إليـــه فهـــو أرحـــم قـــادر
لـــه الصفـح ديـن واقبلـوا النُصح ترشـدوا
ولا تـــرشفـــوا انفـــس المؤيـــد إنـــه
عـــن الخير يـــروي أو إلى المين يسنـــد
وفـــرّوا إلى مـــولاكـــم والـــذي لـــه
عليكـــم أيـــادو سمهـــا ليـــس يجحـــد
ولا تكفـــروه إنما أنتـــم لـــه
ومنـــه ويـــوم عنـــد حـــوران يشهـــد
غـــداة على الجولان جـــول وللظبـــى
رعـــود فـــريـــص الموت منهـــن يـــرعـــدُ
ولما اكفهـــرّ اليـــوم واربـــدّ وجهـــه
وعـــوّز مـــرهـــون وفـــر مـــز بـــد
وأيقـــن مـــن بين الســـديـــر وجـــاسـم
بـــان الحرار الســـود بـــا الجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخـــدّ خيلـــه
وقـــد أبصرت بصرى رداهـــا وصرخـــد
وطـــاروا تهز المرهفـــات طـــلاهـــم
كما انصـــاع مـــن اســـد نعـــام مشرد
وليلـــة ألقـــى الشريـــك بـــا لمرج بـــركـــه
ومـــازج نيران الـــوغـــى تتـــوقـــد
رمـــى وأخـــوه مغـــرب الشمـــس دونكـــم
بمشرقهـــا غضبـــان يعـــدو ويسئـــد
فمـــذ وردت مـــاء الارنـــط مغـــذة
أثـــارت بثـــور اغلـــة ليـــس تبرد
أيـــا سيـــف شـــامتـــه يـــدا الملـــك صـــارمـــا
فيمهمـــد إذ يسري ويسري فيهمـــد

دمشـــق دمشـــق إنّما القـــدس سرحـــة
ومـــركـــزهـــا صرح عليهـــا ممـــرد
حموهـــا الكـــي يحمـــوا وقـــد بلـــغ المدى
بهم أجـــل حتـــم وعمـــر محدّد
متـــى انـــاراء طـــائر الفتـــح صـــادحـــا
يـــرفـــرف في أرجـــائهـــا ويغـــرد

وله من قصيدة أخرى:
نـــذرك بـــالغـــوطتين قـــد ضمنـــت
ربـــوتهار بعـــه ومقـــراهـــا
أطلـــع لها الشمـــس مـــن جبينـــك لم
تـــرج ســـواهـــا في النـــوم جفنـــاهـــا
فـــالخيـــل صـــور إلى تســـاهـــم سهميـــ
ـــها وملهـــى في بيـــت لهيـــاهـــا
دولـــة مـــن دانـــت البـــلاد لـــه
وعمهـــا ظلـــه فـــأغنـــاهـــا
لا بســـواهـــا تليـــق بهجتهـــا
ولا ســـواه تبغـــي رعـــايـــاهـــا

قال أبـو يعلى: وفي عاشر المحـرم نزلت أوائل عسكـر نور الـدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها ، وفي الغـد قصد فريق وافر منهم ناحية السهـم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشـق، فلما خرج منها إليهم أسرع النـذير إليهم فحذرهـم وقد ظهر الكمين فانهزمـوا إلى البلد، وفي الغـد نزل نـور الـدين بعسكـره على عيون فـاسريـابين عذرا ودومـة، وامتـدوا إلى تلك الجهـات ونـزلـوا من الغـد في أراضي حجيرا وراويـة في الخلـق الكثير والجم الغفير، وانبسطـت أيـدى المفسـديـن مـن العسكـر الدمشقي والأوباش من أهل العيث والفساد في زروع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفنـوها بلا مـانع ولادافـع ، وتحرك السعر وانقطعت السـابلة،

ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلاّ صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلَم يعد الجواب إليه بما يرضاه فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس.قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدنو منها، ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوّة عزمه على لقائهم، وصار العسكر النوري في عدد لايحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لايأذن لأحد من عسكره في التسرع والظهور، ولايعودون إلاّ خاسرين مغلولين ، وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجرارا لهم وأفرق من عسكره فريقا يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدّمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الأفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم، واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوّل ودخل منهم خلق كثير

إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الدين ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملكهم وخواصه وما صادفا عنده شيئا مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوّة ، وتقرّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ، ثم رحل عسكر الافرنج إلى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم واختلافهم، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف إليهم من العرب في خلق كثير ناحية الافرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الأفرنج إلى لجاة حوران للاعتصام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا إلى دمشق، وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقي، وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها، فلم يتهيأ ذلك لهم وظهر إليهم سرخاك واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الافرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه مارحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة من العدّة، وذكر أن عدّة مراكبة سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد انفق عليه فيما حكي وقرب ثلاثمائة ألف دينار.وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به،واستولوا على عدّة وافرة من مراكب الروم والأفرنج ، ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكل مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الاسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده

إليها لمضايقتها، وحدث نفسه بملكها لعلمه بضعفها وميل الأجناد والرعية إليه، واشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفا مقاتلة ، ثم رحل ونزل بالدلهمية من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الاجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلاّ اليسير ممن كان يخرج أوّلا، ثم تقدّم ونزل القطيعة وما والاها ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غيرزحف ولا شدّ في محاربة تحرجا من قتل المسلمين، وقال: لاحاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا وأنا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلم نائبه الامير حسان المنبجي مدينة تل باشر بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأوّل، وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال وترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات ، وتردد فيها الفقيه برهان الدين على البلخي والأمير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرّ الحال على قبول الشروط المقترحة، ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضى به في عاشر ربيع الآخرة، ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بصرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب لأن واليها سرخاك كان قد شاع عصيانه وخلافه ومال إلى الأفرنج فاعتضد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره.

قلت: ولابن منير في نو ر الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة أوّلها :

مابرقت بيضك في غمامها
إلا وغيث الدين لابتسامها

يقول فيها:

محمـــود المحمـــود جـــداً وجـــداً
أرخـــص جلـــد الارض حكـــم عـــامهـــا

ملـــك أزل الـــروم عـــن صلبـــانها
دفـــاعـــه وكـــب مـــن أصنـــامهـــا

جـــال على الجولان أمـــس جـــولـــة
صفـــرت الأدحـــيّ مـــن نعـــامهـــا

والجون قـــد جـــرعهـــا أجـــونـــه
وفـــل مشحـــوذا مـــن اعتـــزامهـــا

وشـــدّ في القـــدّ لـــه مليكهـــا
قـــود عتـــود القـــوط في شبـــامهـــا

وفي الـــرهـــا صـــابـــت لـــه سحـــابـــة
صـــاروا جفـــاء خـــف في التطـــامهـــا

وهـــب في هـــاب لـــه عـــواصـــف
تجهمتهـــا الهف مـــن جهـــامهـــا

وكفـــر لاثـــالاث في جبينهـــا
لثـــم ظبـــى أتـــت على لثـــامهـــا

وقـــايـــع يـــرفـــض تحت وقعهـــا
نظـــم الثـــريـــا في فضـــا مصـــامهـــا

فســـاعـــة البيـــض إذا عـــدّدهـــا
ســـوط عـــذاب صـــب في أيـــامهـــا

واعجبـــا العصـــب الشرك التـــي
لم يعصـــب الـــرشـــد على أحـــلامهـــا

حكمـــة استـــواؤهـــا في غيهـــا
في نقـــض مـــا أحصـــد مـــن ابـــرامهـــا

مظفـــر الـــرايـــات والـــرأي إذا الـــ
ـــحرب مشـــت تعثـــر في خطـــامهـــا

عـــدّت بـــه حـــدّ العـــلاء همم
هـــن النجـــوم أو نـــواصي هـــامهـــا

جلـــت لـــه الـــدنيـــا على زبـــرجهـــا(٦٢)
عفـــوا فلـــم يلـــو على حطـــامهـــا
رأتـــه وهـــو الليـــث يـــدمـــي ظفـــره
انفـــذ في المشكـــل مـــن حكـــامهـــا
فتـــوّجتـــه العـــز في مـــرتبـــة
تمنطـــق الجوزاء في نظـــامهـــا
غضبـــان لـــلاســلام لا يغيظـــه اســـ
ـــتسلامها للقسر مـــن إســـلامهـــا
خـــط على مثـــل أب طـــاعـــت لـــه الـــ
ـــآفاق واستشرف لاغتشـــامهـــا
تصرف الـــدنيـــا على إيثـــاره
عـــراقهـــا مستردفـــا بشـــامهـــا
لـــو لم يكـــن دون منـــى فـــات المنـــى
واقعـــد الفـــائز مـــن قـــوّامهـــا
وامتـــك مـــاء مكـــة رواضـــع
يقصر بـــاع الـــدهـــر عـــن فطـــامهـــا
وصـــار كـــالجمـــرا الجمار وخـــلا
مـــن أهلـــه الأشرف مـــن مقـــامهـــا
ودونها لا ازلـــت تـــرقـــى في حمى
مـــن مـــؤلم الارداء أو لمامهـــا
تلبـــس بيـــت اللّـــه وشـــي يمـــن
يقـــرأ آيـــاتـــك مـــن أعـــلامهـــا
فـــإنها الـــديـــن رحـــى قطبتهـــا
وبـــازل مكنـــت مـــن زمـــامهـــا
امـــت بنـــا الآمـــال منـــك كعبـــة
سلـــم الليـــالي آيـــة استســـلامهـــا
وارشفتنـــا بـــك ثغـــر نعمـــة
لا نســـأل اللّـــه ســـوى دوامهـــا

وقال أيضا يمدحه:

بجــــدك اصحـــــب الجد الحزون
واطلــــع فجـــره الفتـــح المبين

وفي كنفيـــك ســـولت الليـــالي
وفـــارق طبعـــه الـــزمـــن الخؤون

ومنـــك تعلـــم القطـــع المواضـــي
وقـــد زبنـــت بها الحرب الـــزبـــون

وأنـــت السيـــف لم تمســـه نـــار
ولا شحـــذت مضـــاربـــه القيـــون

تـــرقـــرق فـــوق صفحتـــه الامـــاني
ويقطـــر مـــن غـــراريـــه المنـــون

وقبلـــك مـــا سمعـــت بـــذي فقـــار
يثير الفقـــر كـــان ولا يكـــون

ولا غيـــث سماوتـــه سريـــر
ولا ليـــث وســـادتـــه عـــريـــن

ولا قمـــر لـــه الهيجـــاء هـــال
ولا تـــاج لـــه الـــدنيـــا جبين

جبلـــت نـــدى وعفـــواً وانتقـــامـــا
ومـــاء كـــل مجبـــول وطين

وملكـــك عمـــر الأقطـــار قطـــرا
فـــأمـــرعـــت الأواعـــث والحزون

تـــلالأ تحتـــه غـــرر الليـــالي
إذ الايـــام عنـــد ســـواك جـــون

وأنـــت أقمـــت للجـــدوى منـــارا
يبين لشـــائميـــه ولا يبين

وعنـــدك مشرب النعمـــى زلال
إذا عبقـــت مشـــاربها الأجـــون

تحكـــم في عطـــائك كـــل عـــاط
وقـــد شيـــدت مـــن المنـــع الحصـــون

لقــــد أشعــــرت ديـــن اللّـــه عـــزا
تتيــــه لـــه المشـــاعـــر والحجـــون
وقـــام بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قـــويّ منـــــــك في الجلى أمين
رجعـــت ملـــوكهـــم وهـــم خيـــوف
أسير في صفـــــادك أو كنـــــــون
فبرنســـت البرنـــس لقـــاع خســـف
وجـــرّع مـــرّ جـــوســـك جـــوسلين
إذا مـــا الفعـــل عـــلّ تـــلاه حـــذف
يتـــاح لمنتهـــــاه أو سكـــــون
غنـــوا حتـــى غـــزوتهم فغنـــى الصـــ
ـــدى في أرضهـــم حـــف القطين
وكـــم عبر الصليـــب بهم صليبـــا
فـــردّتـــه قنـــاك وفيـــه لين
ومـــا خطـــرت بـــدار الشرك إلاّ
هـــوى النـــاقـــوس وارتفـــع الأذيـــن
مـــلأت عظـــام ســـاحهـــم عظـــامـــا
فكـــل مـــلا لقـــوك بـــه جـــريـــن
بـــإنـــب والقنـــا تجري نجيعـــا
كـــان عيـــون أكعبهـــا عيـــون
وبين حـــرار صرخـــد ذبـــن حـــرّا
لـــه في كـــل حبحبـــة كمين
وفين مـــن العـــريمـــة في عـــرام
لـــه في جـــونها الأقصـــى وجـــون
وكـــم حـــرم لحارم غـــادرتـــه
ودار تـــه لمنسفهـــا دريـــن
وفى شعـــراء قـــورس صغـــن شعـــرا
تـــدار على غـــراريـــه اللجـــون

وقــــائع صرن في صنعـــــاء طيرا
يـــوقعهـــا على عـــدن عـــدون
نماك أب إذا عـــدّ انتســـابـــا
تـــراقـــى مصعـــدا والنـــاس دون
شهالا كـــان أمـــلاك البرايـــا
وقـــد قيســـوا بـــه وهـــو اليمين
قضـــى وقضـــاؤه في الأرض حتـــم
فطـــاعـــة أهلهـــا لبنيـــه ديـــن
لهذا اليـــوم تنتخـــب القـــوافي
ويـــذخـــر نفســـه الـــدر المصـــون
ونحـــن أحـــق منـــك بـــأن نهنـــى
إذا قـــرّت بـــرؤيتـــك العيـــون
سلمـــت لنـــا فـــإنـــا كـــل صعـــب
نـــوازيـــه بـــأن تبقـــى يهون
تـــرابطنـــا بعقـــوتـــك التهـــاني
ويغبطنـــا بـــدولتـــك القـــرون

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديـار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهـد مثله فى حديث ولا قديم بحيـث أحصي المفقود منهم في سنة خمس وأربعين فبلـغ سبعة آلاف شخص، وفي سنـة ست وأربعين مثلهـم، فصار الجميـع أربعة عشر ألفـاً، وخلـت دور كثيرة من أهلهـا، وبقيت مغلقة لاساكن فيها ولا طالب لها.

وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القـاضي السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبى الحديـد خطيب دمشق، وكان خطيبا بليغا صيتـا عفيفاً، ولم يكن

له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبى الحسن الفضل ولد ولده، وهو حدث السن، فنصب مكانه ، وخطب وصلى بالناس واستمرّ الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة ، اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بصرى وحوران وما ولاها من سائر الجهات، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل نور الدين صاحبها، فأكرمه وبالغ في الجميل في حقه وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وفت لك الدنيا بميعادها
بأفلاذ أكبادها
وأوفدت غرّ سلاطينها
عليك في همة انجادها
تبغي سناء أقصدت قصده
طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتدّ أعمارها
يوم التلاقي يوم ميلادها
شامت دمشق بك برق العلى
فأرسلت أصدق روّادها
رأتك نور الدين نار الهدى
قد أشرق الأفق بإيقادها
فيممت منك حيا مزنة
بيض الأيادي ورد روّادها

فاسأل مجير الدين عن خبرة
أوردها محمود إيرادها

تبوّأت من عزها قبة
سمر القنا أطناب أوتادها

تنافس الناس على دولة
فتت بها أعين حسادها

يغدو المعادي كالموالي لها
فوالها إن شئت أوعادها

ياملكا يزهى بأسمائه
منابر تسمو بأعوادها

وتأخذ الاسماع أوصافه
عن جمع الدنيا وأعيادها

كم للمعالي فيك من رغبة
تفنى الأماني دون تعدادها

لك المساعي الغر ياجامعا
من طرفيها بين أضدادها

يغني الورى أفرس فرسانها
وفي التقى أزهد زهادها

فأنت نسكا غيث أبدالها
وأنت فتكا ليث آسادها

في أمّة أنت حمى دينها
حينا وحينا شمس عبادها

يطوى بك العمر إلى غاية
حسبك تقوى اللّه من زادها

هذا وكم من سنة بدعة
أعدمتها من بعد إيجادها

مآثر لو عدمت راويا
تكفل النظم بإسنادها

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعض التركمان على ظاهر بانياس، فخرج إليهم واليها من الأفرنج في أصحابه، وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا.

وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغاروا، فأنهض إليهم والي بعلبك رجاله فلحقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم، فاستخلصوا منهم الغنيمة.

قلت: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس فخرج أهل بانياس من الفرنج استنقذوا ما أخذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج، فأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ماأخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغارة على البقاع، والناس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغنائم والأسارى، واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب، وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه، فقدّم عليهم ولده شمس الدولة ، فخرج وأوقع بالفرنج، واتفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم، فهلك أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورّطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب، فقدّمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعا حسنا.

قال أبو يعلى: وفي ثاني شوال ، وهو الثاني من شباط وافت قبيل

الظهر زلزلة اهتزت لها الأرض ثلاث هزات هائلة، وتحركت الدور والجدران ثم سكنت.

قلت: وفي هذه السنة في غرّة جمادى الأولى كتب أحمد بن منير من حماه إلى نور الدين قصيدة يهينه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة ، على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، ويصف الفرس الأصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أوّلها:

لعلائك التأييد والتأميل
وللملك التأبيد والتكميل
أبداً تهم وتقتفي فتنال ما
عز الورى إدراكه وتنيل
إما كتاب يستقل به الكتائب أو رسول للنجاح رسيل
لك من أبي سعد زعيم سعادة
فمن تفاءل فيك ليس يفيل (٦٣)
نعم الحسام جلوته وبلوته
يرضيك حين يصل ثم يصول
سهم تعوّد في الكنانة عودة
ويقصر المطلوب وهو طويل
سدّدته فمضى وقرطس صادرا
كالنجم لا وهل ولا تهليل
فثنا القلوب إلى ولائك حوّل
منه بما يجنى رضاك كفيل
وأقام ينشر في العراق ودجلة
آيات أوّلها لمصر النيل
وكساك من رأي الخليفة جبة
لا النقص يوهيها ولا التقليل
كنت الشريف أفضت في تشريفه
ماء عليه من سناك دليل

أليـــوســـف لما طلعـــت مقـــرطقـــا
طمثـــت حصـــان واستخـــف أبيـــل
أم عـــن سليمان يفـــرج ضـــاحكـــا
سجـــف الـــرواق وضعضـــع الكيـــول (٦٤)
ومملـــك في السرج أم ملـــك سطـــت
لبهـــائه عقـــل وتـــاه عقـــول
وبـــرزت في لبـــس الخلافـــة كـــالهلا
ل جـــلاه في حلـــل الـــدجـــى التهليـــل
خلـــع خلعـــن على القلـــوب مسرة
ســـدكـــاتها (٦٥) التعظيـــم والتبجيـــل
نثـــرت نضـــارا جـــامـــداً أعـــلامهـــا
وتكـــاد تجري رقـــة وتسيـــل
لقضـــى لها ان لا عـــديـــل لفخـــرهـــا
ربّ بـــراك فما تـــلاك عـــديـــل
أنـــت المهنـــد منـــذ سلتـــه العلى
لم يخل مـــن مهـــج عليـــه تسيـــل
مـــذ هـــز قـــائمـــه الامـــام تـــألقـــت
غـــرر شـــدخـــن لملكـــه وحجـــول
واليـــت دولتـــه فتهـــت بـــدولـــة
متكلـــل بصعيـــدهـــا الاكليـــل
ونصرتـــه فحـــلاك أبيـــض دونـــه
صرف الـــزمـــان إذا استكـــل كليـــل
قلـــدتـــه وكـــلاكما متلهـــذم
عضـــب فـــزان المغمـــد المسلـــول
وحبـــا ركـــابـــك حين قـــرّ بـــزحفـــه الـــ
ـــقرآن واستخـــذى لـــه الانجيـــل
بـــأقـــبّ أصفـــر مشرف الهادي لـــه التـــ
حجيـــل لـــون والليما تحجيـــل

قسيم الدجى بين الغدائر والشوى
واعتام رونقه الاصيل أصيل
وتقاسم الراؤوه تحتك أنه
حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال في حبك الحليّ مخيلا
إن الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه
طرف بأطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه
إن شبّ زفر واستجش صهيل
لم يحب مثلك مثله مهد ولم
يشلل على برق سواه شليل (٦٦)

وأنشده في هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها:
الدهر أنت ودارك الدنيا ومن
في العدّ بعده مؤمّل معدود
وأزمّة الاقدار طوع يديك والـ
ـأيام جندك والانام عبيد
فت الورى وعقدت ناصية المدى
بمذمر الشعرى فأين تريد
تال أباك فهل سليان يرى
في الدست مهد ملكه داود
جلى وسدت مصليا لا يرفع الـ
ـمعدوم ما لم يشفع الموجود
لم يخترم جدّ نماك ولا أب
إن النباهة في الخليف خلود
شمخت منارك في اليفاع وأمّها
من لم يسد فأرته كيف يسود

وهبيــــت لــــلاســـلام وهــــو مصـــوّح
فـــاهتـــزهضـــاب ورق نجـــود
وفتـــأت جمرة صـــا الميـــة بصيلـــم
نصـــع الأجنـــة يـــومهـــا المشهـــود
خطمتهـــم فـــوق الخطيـــم لـــوافـــح
نفـــس الاريـــن لـــو أرهـــنّ بـــرود(٦٧)
ورمـــوا على الجولان منـــك بجـــولـــة
تـــوئيـــدهـــا نسر الضـــلال وئيـــد
ولحا عظـــامهـــم بعـــرقـــه عـــارق
مـــازلـــت تمخـــض جـــوّه فيجـــود
وشللـــت بـــالـــروج السروج وفـــوقهـــا
زرع لمحصـــده الـــرمـــاح حصيـــد
وعلى عـــزاز عنـــوا وثـــل عـــروشهـــم
ملـــك مقيـــد مـــن عصـــاه مقيـــد
وبتـــل بـــاشر بـــاشروك فعـــافســـوا
أهـــب الاســـاود حشـــوهـــنّ أســـود
أودوا كما أودى بعـــــــادغيهـــــا
زعقـــوا كما استغـــوى الفصيـــل ثمـــود
إن آلموا عقـــرا فـــانـــك صـــالـــح
أو آلموا غـــدرا فـــانـــك هـــود
وزعتهـــم فبكـــل مهبـــط تلعـــة
خـــدّ بـــه مـــن وازع أخـــدود
وعصبتهـــم بعصـــائب مـــل ء الملا
شتـــى و إن خـــلّ البســـالـــة عـــود
أثـــارهـــا محمـــودة وآثـــارهـــا
مشهـــودة وشعـــارهـــا محمـــود
لبســـت مـــن اسمـــك في الكـــريهة ملبســـا
يبلي جـــديـــد الـــدهـــر وهـــو جـــديـــد

قصيرة الآجـــال طـــوّل بـــاعهــــا
بـــوع يســـامـــى هـــامهـــا وقـــدود
مطـــرورة الأســـلاب مـــذ هـــزعتهـــا
تـــاه الهدى وتبختر التـــوحيـــد
أشرعتهـــــا فعلى شريعـــــة أحمد
ممـــا جنتـــه بـــوارق وعقـــود
ولكـــم نثـــرت نظيمهـــا في مـــوقـــف
تغـــريـــد صـــالى حـــره التغـــريـــد
يجلـــو سنـــاك ظـــلامـــه ويحل مـــا
عقـــدت قنـــاه لـــواؤك المعقـــود
في هبـــوة زحـــم السماء رواقهـــا
والارض تـــرجـــف تحتـــه وتميـــد
ضربـــت مخيمهـــا فكـــان كما تها
أوتـــاده القصـــوى وأنـــت عمـــود
في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك صادح
هـــزج الغنـــاء وطـــائر غـــرّيـــد
تهدي لعـــانـــة كـــاســـه فـــرغـــانـــة
وتسيـــغ زبـــدة مـــا شـــداه زبيـــد
فغـــرار سيفـــك لـــلاحـــابـــش محبـــس
ومثـــار نقعـــك للصعيـــد صعيـــد
لا تعـــدمـــن هـــذا المقلـــد أمّـــه
ملقـــى إليـــه لـــرعيهـــا الاقليـــد
الـــوردقـــرو المســـارح رحبـــة
والـــرفـــد مـــدّ والظـــلال مـــديـــد
والعيـــش أبلـــج مشرق القسمات والـــ
ـــأشجار غـــروا الاصـــائل غيـــد
والملـــك ممـــدود الـــرواق منـــوّر الـــ
آفـــاق وضـــاء المنـــى محســـود

في دولـــة مـــذهـــب نشر ربيعهـــا
نشر الـــرفـــات وأثمـــر الجلمـــود
محمـــودة الآثـــار محمـــوديـــة
كـــل المواســـم عنـــدهـــا تعييـــد

وقـال يهنيه بليلة الميلاد ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب بقصيدة منها:

هنيـــت روزى ذراك صـــومـــك والـــ
ـــميلاد جـــاء والسعـــد في نســـق
فـــذاك انحلـــت فيـــه كـــل يـــد
وذاك أخملـــت فيـــه كـــل تقـــى
وجـــه كصـــدر الحســـام تصبـــولـــه الـــ
ـــعين وينقـــد القلـــب مـــن فـــرق
ومقلـــة شـــوقهـــا ليقظتهـــا
شـــوق لحســـادهـــا إلى الارق
ومـــرتقـــى تعجـــب السماء لـــه
إذا استطـــالـــت إليـــه كيـــف رقـــى
تـــوّجـــت شهبـــاءهـــا بمشرقـــه
مشرفـــة شهبهـــا على الافـــق
جـــوّ تهادى منـــه كـــواكبـــه
طـــرفـــه طـــرف رجـــوم مسترق
فـــوارس تـــذهـــل الفـــوارس إن
تهافتـــت مـــن ارشـــاقهـــا الـــرشـــق
مـــن راكـــض في الهواء أهـــوى
ومـــن الفتـــح مجرّ مـــن تحتـــه لبـــق
شـــاومـــن الخصر لـــو تحاولـــه الـــ
ـــخضر لـــزلـــت عـــن مـــوطـــىء زلـــق
يقـــول مـــن دينـــه الفـــروســـة مـــا
لاقـــك الاضرب مـــن الالـــق

بـــــــــــدائع تغبـــــــــــط السماء بها الأر

ض وتـــذكـــــي الاشفـــاق في الشفـــــق

في دولـــــــة جمعـــــت ايـــــالتهـــــا

مـــــن بـــــــدا الحســــــن كــــــل مفترق

تــــــذرّ أطـــــــواقهـــــا على ملـــــك

مكتفـــــــل رزق كــــــل مــــرتــــــزق

محمـــــــــــود اسما وميسما ونـــــــــــدى

واعتصـــــب الـــــدم كـــــل مـــــرتفــــق

طبـــق طـــــوفـــــانـــــه فلســـت تــــرى

إلاّ مغيثـــــا مشـــــــف على غـــــــرق

يـــــابحـــــر لا خلـــق يـــدعـــي شبهـــــا

فـــات المدى مـــا حـــويـــت مـــن خلـــق

ملكـــــــــك هـــــــذا الــــــذي تملأه

صبـــــاه يجري والــــدهــــر في طلـــــق

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الأفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير، وانهزم الباقون. قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحمور، وعوده عنهما فذكر قصيدة منها:

أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكا
وتؤوب منه مؤيدا منصورا
تدني لك الأمل البعيد سواهم
محقت اهلتها وكن بدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو أربع
في الجوّ مطلبها الكن طيورا
نبذت علائقها بحمص واعلقت
سحراً بمعرق عرقه الأظفورا
وغدون صافيتا لاح شوارهما
قد اتلعت عنقا اليك مشيرا
القلب أنت فإن تعامى عن هدى
عضو أهاب به فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم
يغري بياض أديمها الديجورا
أين الذبال من الغزالة أشرقت
وجها وطبقت البسيطة نورا

غضبـــان اقســـم لا يشيـــم حســـامـــه
والارض تحمــــل في الكفــــور كفــــورا
غســـل العـــواصـــم أمـــس مـــن أدرانهم
واليــــوم ردّ بـــــه الســـواحـــل بـــورا
لم يبـــــــــق بين الحولتين وآمـــــــــد
وتـــــرا المضطغــــن ولا مــــوتــــورا
اخلى ديــــار الشرك مـــــن أوثــــانها
حتـــى غـــدا ثـــالـــوثهـــن نكيرا
رفـــع القصـــور على نضـــائدهـــامهـــم
مـــن بعـــدمـــا جعـــل القصـــور قبـــورا
بشـــواحـــب الاليـــاط تقطـــو في الظـــلا
م قطــــاوتهوى في الصبــــاح نشـــورا
غـــادرت انطـرســوس كـــالطـرس انمحـــى
رسما وحمر ردعهــــــــا يحمـــــــورا
وهـــي الـــزنـــاد لفتنـــة كـــانـــت على الــــ
ـــــــاسلام أحكـــــــم كسره اكسيرا
هتمـــت طـــرابلســـا فـــاصبـــح ثغـــرهـــا الـــ
ـــبسام مــــن عـــز الثغـــور ثغيرا
اقليـــدهـــاكـــانـــت وقـــد انطيتــــه
واســـأل بــــه ممـــن دهتـــــه خبيرا
إن الاولى امنـــوا وقـــاعـــك بعـــدهـــا
غـــرّوا وقـــد ركبـــوا الاغـــرّ غـــرورا
الـــق العصـــا فيمـــن أطـــاع ومـــن عصـــى
منهـــم ودمـــر أرضهـــم تـــدميرا
لا يلههـــم إن قـــد مننـــت وشنهـــا
شعـــواء تصلي الكـــافـــريـــن سعيرا
بـــاكـــر بـــركـــزقنـــا تنســـف اسهـــا
والخيـــل صـــور كـــي تـــزيـــرك صـــورا

وتـريـك لامعـة التريـك بسـاحـة الـ
ـأقصى مطهـرة لها تطهيرا
أولسـت مـن قـوم إذا هـزوا القنـا
فتلـوا معـاصمهـم لها تسـويـرا
وإذا هـم خطبـوا اليراع عـزيـزة
سـاقـوا الشفـار على المهـار مهـورا
القـى قسيا هـم إليـك أزمـة الـ
ـملك المطـل على السهـا تـأثيرا
ضحكـت لـك الأيـام واكتـأب العـدا
قلقـا فجئـت مبشرا ونـذيـرا
لاملـك الاملـك محمـود الـذي
تخذ الكتـاب مظـاهـرا أو وزيـرا
تمشي وراء حـدوده أحكـامـه
تـأتمهـن فيحكـم التقـديـرا
يقظـان ينشر عـدلـه في دولـة
جـاءت لمطـوى السماح نشـورا
خلـف الخلائف قـائما عنهـم بما
عيـوا بـه ألـوى الـدّ غيـورا
البر والمعصـوم والمهـدي والـ
ـمأمون والسفـاح والمنصـورا
بشروابـه فعهـودهـم وعهـادهـم
يمتحـن تحت لـوائه منشـورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أوّلها:

المجـد مـا ادّعـت ثـراك هضـابـه
وتثقفتـك شعـوبـه وشعـابـه
ملـك تكنـف ديـن أحمد كنـه
فـأضـاء نيره وصـاب شهـابـه

فالعدل حيث تصرفت احكامه
والأمن حيث تصرمت أسرابه
متهلل والموت في نبراته
يرجى ويرهب خوفه وعقابه
عقد اللواء وسار يقدمه وما
حلت عقود تميمها أترابه
أسد فرائسه الفوارس والظبا
أظفاره والسمهرية غابه
طبع الحديد فكان منه جنانه
وسنانه وإهابه وثيابه
ويهش إن كبت الوجوه كأنما
أعداؤه تحت الوغى احبابه
نشرت بمحمود شريعة أحمد
وأرى الصحابة ما احتذاه صحابه
ما غاب اصلع هاشم فيها ولا الـ
ـفاروق باء بخطبه خطابه
أبناء قيلة قائمون بنصره
إن اجلبت من قاسط أحزابه
صبحوا محلقة البرنس بحالق
حرش الضباب من القلوب ضبابه
ما زال يغلب من بغاه ضلاله
حتى اتيح من الهدى غلابه
ملقى بوحش الاصرمين تزيلت
آراؤه وتزايلت آلابه
دون الأرنط سخت به نجداته
ونجاده وقرابه وقرابه
سلبته درّة تاجه يد ضيغم
لم تنجه من بأسه اسلابه

واتتــــه تجلـــب جـــوسلين جنـــائب
هبـــت فقـــلّ إلى القتـــال هبـــابـــه

اسرتــــــه لامنعـــــــت سراه وغــــره
بـــالقـــاع إن رام الـــوررودسرابـــه

يمشي فتسمعــــــه قعـــاقـــع قيـــده
هـــزجـاً تقـــي ءدمـــاً لـــه أنـــدابـــه

لاتـــــل بـــــاشره ولا كيســــونـــه
صـــدّت منـــى عنـــه ولا عنتـــابـــه

ضمنـــت شقـــاوتـــه سعـــادة صـــافـــح
غطـــى على أعنـــاتـــه اعتـــابـــه

مـــازال يغـــدر ثـــم يعـــذر قـــادرا
حتـــى أتـــاه بجـــامـــح أصحـــابـــه

قصر الأمـــــاني إن يمـــلأ عصرك الـــ
ـــاسلام مضروبـــا عليـــه حجـــابـــه

مجر يجرّ إلى الغنـــــــائم قبـــــــه
وحمى يـــزار على الفتـــوح قبـــابـــه

وأنشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها:

لقـــد أوطـــأت ديـــن اللّـــه عـــزا
أديـــم الشعـــريين لـــه رغـــام

دعـــاك وقـــد تنـــاوشـــت الـــرزايـــا
لـــه اهـــب يـــوزعهـــا العـــذام

فقمـــت بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قيـــام ذم مـــا اقترفـــت فئـــام

جـــذبـــت بضبعـــه مـــن قعـــريـــم
لـــه مـــن فـــوق مقسمـــه التطـــام

وملـــت على معـــاقلهـــم فخّـــرت
ولاء مثـــل مـــا انتقـــض النظـــام

بصرخـــد والخطيـــم وفي عـــزاز
وقـــائع هـــز مشهـــدهـــا الانـــام

ولـــو لم يعترف ويشـــم لأمســـى
وأصبـــح لاعـــراق ولا شـــآم

صبيـــت على الصليـــب صليـــب بـــأس
قـــواه تحت كلكلـــه حطـــام

ويـــوم بـــالعـــريمـــة كـــان حتفـــا
على الاشراك أمقـــره العـــرام

لقـــوك كـــأنّ مـــا سلـــوه شيـــح
ومـــا اعتقلـــوه مـــن خـــور ثمام

وهـــاب وقـــورس ويكفـــر لاثـــا
ذممـــت وأنـــت للجليّ ذمـــام

صـــدمتهـــم بـــأرعـــن مـــرجحـــنّ
كـــان مطـــارا أنسره غمام

وأيـــة ليلـــة لم تلـــف فيهـــا
لهم طيفـــا يـــروع بـــه منـــام

بنـــور الـــديـــن أنشر كـــل عـــدل
تعفـــت في الثـــرى منـــه الـــرمـــام

وعـــاد الحق بعـــد كـــلال حـــدّ
حمى مـــن أن تـــراع لـــه ســـوام

تـــألـــق عـــدلـــه وذكـــت سطـــاه
فـــلا حيـــف يخاف ولا اهتضـــام

بقـــاؤك خير مـــا يـــرجـــوه راج
وأنفـــع مـــا يبـــلّ بـــه أوام

فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سماه أحمد وهناه ابن منير في بعض قصائده، ثم توفي بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضي الله

عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر البـاب الصغير، وقصيدة ابن منير قد تقدّم بعضها في أوّل الكتاب ومنها في ذكر المولود:

تـــوالـــت الأعيـــاد لازلـــت لها
تبلي ديـــابيـــج البقـــاء وتجد
الفطـــر والميـــلاد والمولـــود لـــو
قـــابلـــه بـــدر التمام لسجـــد
ثـــلاثـــة تعـــرب عـــن ثـــلاثـــة
لمثلهـــا يـــذكـــر حمدا مـــن حمد
فتـــح مبين وطـــلاب مـــدرك
ودولـــة مـــا تنتهـــي إلى أمـــد

وله من أخرى يقول:

وجئـــت بـــأحمد فمـــلأت حمدا
مـــوارد كـــان معـــذبها عـــذابـــا
تهلـــل وجـــه ملكـــك يـــوم أهـــدت
قـــوابلـــه لـــك الملـــك اللبـــابـــا
شبيهـــك لا يغـــادر منـــك شيئـــا
سنـــا وحيـــا وبـــذلا واستـــلابـــا
قسيـــم الحمـــد الا انّ حـــرفـــا
مـــن اسمـــك زاد للمعنـــى منـــابـــا
ألا للّـــه يـــوم فـــرّ عنـــه
وركـــب نـــص بـــالبشرى الـــركـــابـــا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الـدين في العسكر ومعه مؤيد الديـن الوزير إلى نـاحية حصـن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخـاك واليه لمخالفتـه وجوره، وأراد مجير الـدين المصير إلى حصن صرخـد لمشاهـدته، فاستأذن مجاهـد الدين واليه في ذلـك فقال له: هذا المكـان بحكمك وأنا

فيه وال من قبلك، وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه ويلقى مجير الدين بما يجب له، فخرج في أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل إليه في خواصه وسرّ بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك، وعاد إلى مخيمه على بصرى وحاربها عدّة أيام إلى أن استقرّ الصلح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

وفيها في شوّال توفي الأمير سعد الدولة أبو عبد اللّه محمد بن المحسن ابن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد، وتقدّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الاجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان، وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاص بك أن يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمذان واجتمع به وخدمه خاص بك خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا واستقرّ محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين، وبقي مطروحا حتى أكلته الكلاب، وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان، فمال إليه وقدّمه حتى فاق سائر الامراء واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الـوزير يحيـى بـن هبيرة في كتـاب الافصاح أنـه لما تطـاول على الخليفـة المقتفـي أصحـاب مسعود وأسـاؤوا الأدب ولم يمكـن المجاهـرة بالمحـاربة اتفق الـرأي على الدعاء على مسعـود بن محمد شهـراً، كما دعا رسول اللّـه صلى اللّه وسلم على رعـل وذكوان شهـراً فابتدأ هـو والخليفة سرا كل واحد في موضعـه يدعو سحرا من ليلة تسـع وعشرين من جمادى الأولى سنـة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمـرّ الأمـر على ذلـك كل ليلـة، فلما كـان ليلة تسـع وعشرين مـن جمادى الآخرة كـان موت مسعـود على سريره لم يـزد عن الشهر يومـاً ولاينقص يومـا، ووصل القصاد بذلـك من همذان إلى بغداد في ستـة أيام، فـأزال اللّه يـده ويد أتبـاعه عـن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك اللّه رب العلمين، مجيب دعوة الداعين.

قـال: وكان الشيـخ محمد بـن يحيـى يقول: لاأدل على وجـود موجـود أعظم من أن يدعى فيجيب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج خذلهم اللّه عسقلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه اللّه سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوّة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في احزاب الشرك والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرّم ، واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف، وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الأفرنج والأرمن ، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور لدين فقضى اللّه تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقهم، ولاعسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوّل، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدّة وافرة من مراكب الفرنج في

البحر، وهـم على حالهم في محاصرتها ومضايقتهـا والزحف بـالبرج إليهم، واستمرّ ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليهـا من بعض جوانب سورهـا، فهدموه وهجموا البلـد وقتل من الفـريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج من أمكنه الخروج في البرّ والبحر إلى نـاحية مصر وغيرهـا، وقيل إن في هـذا الثغر المفتتـح من العدد الحربيـة والاموال والميرة والغلال مـا لايحصر فيذكر، ولما شـاع هذا الخبر في الأقطـار سـاء سماعه، وضـاقـت الصـدور وتضاعفـت الأفكـار بحدوث مثله، فسبحـان من لايردّ نافـذ قضائه، ولايدفع محتـوم أمره عند نفوذه ومضائه.

فصل

قال: وعـرض بين الرئيس ابـن الصوفي وبين أخويـه عز الدولـة وزين الدولة مشاحنات ومشاجـرات اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الديـن إلى الرئيس يستدعيه للاصـلاح بينهم في القلعة فامتنـع من ذلـك وجلس في داره، وهـمّ بالتحصـن عنه بـأحداث البلـد والغوغاء وآلت الحال إلى تمكن زين الدولـة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرّر بينهما إخراج الرئيس من البلـد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الديـن بزان واليـه، بعد أن قـرر له بقـاء داره وبستانـه وما يخصـه ويخص أصحابـه، وتقلد أخوه زيـن الدولة مكـانه وأمر ونهى ونفـذ الاشغال على عـادتـه في العجـز والتقصير وسـوء الأفعـال، والتماس الـرشـا على أقـل الأعمال، ورأى مجير الدين عقيب ذلك التـوصل إلى بعلبك لتطييب نفس واليهـا عطاء الخادم واستصحـابـه معه إلى دمشـق لينـوب عنه في تـدبير الأمور، وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الـدين بزان أن نية مجير الدين قد تغيرت فيه، فـاستوحـش من عـوده إلى البلد بغير يمين يحلـف له بها على أمانـه في نفسه، فـوعد بـالإجابـة ، فعاد إلى داره بـدمشق، ثـم هجس في خاطره من مجير الـدين وأصحابه ما أوحشه منهـم فدعاه ذلك إلى الخروج

من البلد سراً طالباً صرخد، فحين عرف خبره أنهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد، فقبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق وأعتقل بها اعتقالاً جميلاً، ثم تجدّد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره أشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة من القضاء النازل به لسوء أفعاله وقبح ظلمه وخبثه، ثم عدل به الجاندارية إلى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبراً وأخرج رأسه ونصب على حافة الخندق، ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السرور بمصرعه، وابتهج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه ومخازن غلاته وأثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى، وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك إلاّ النزر اليسير، وورد أمر الرياسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في إخراب منازل الظالم، ونقل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الأمور ومدّ يده في الظلم، وأطلق لسانه بالهجو وأفرط في الاحتجاب، وقصر في قضاء الاشغال، فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال، ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السلار الذي كان رتبته قد علت ومنزلته في الوزارة قد تمكنت ، كان لزوجته ولد

يعرف بالأمير عباس قد قدّمـه واعتمد عليه في الأعمال، ولعباس هذا ولد قدّمه الوزيـر وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير أذن إليـه، فدخل عليه وهو نـائم في فراشه فقطع رأسـه، وحصل عباس في منصب العـادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هـو أبو الحسـن علي بن السلار وزيـر خليفة مصر، وهـو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندريـة للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه اللّه ، وكان قتلـه في سادس المحـرّم بمواطـأة من الخليفـة الملقب بـالظافـر بن الحافظ.

وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهـان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفيـة، ودفن في مقـابر البـاب الصغير المجاورة لقبـور الشهداء، وكـان من التفقـه على مذهبـه ما هـو مشهور شـائع، مع الـورع والديـن والعفاف والتصوّف، وحفـظ ناموس العلم والتودد إلى النـاس على طريقة مرضية وسجية محمودة.

قال: وورد الخبر مـن ناحيـة حلب بوفـاة الأديب أبي الحسـن أحمد بن منير الشـاعر في جمادى الآخـرة، ووصل في ثـاني عشر شعبان إلى دمشـق الأديـب الشاعـر أبو عبـد اللّـه محمد بـن نصر بن صغير القيسراني مـن حلب باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان.

قلـت: هما شـاعـرا الشـام في وقتهما، وقـد شبههما العماد الكـاتـب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة ، ومات جـرير بعـد الفرزدق بقليـل، وقد سبـق من شعـرهما في مدح نـور الـدين رحمه اللّـه قصـائد حسنة، وسيـأتي غير ذلـك في مـوضعه لغـرض سنذكره، ومما قاله ابن منير من قصيدة له:

أيـا سيفـا أعـز الـديـن منـه الـ
ـغرار العضـب والنـوم الغـرار
مـلأت جـوانـح الاقطـار رجفـا
كـأن الأرض خـامـرهـا دوار
عـلاك حلى على الـدنيـا فتـاج
بمفـرقهـا وفي يـدهـا سـوار
أضـاءت شمـس عـدلـك في دجـاهـا
فكـل زمـان سـاكنهـا نهار
فتحـرق مـن عصـاك وأنـت مـاء
وتغـرق مـن رجـاك وأنـت نـار
الا للّـه وجهـك والمنـايـا
مكلحـة وللبيـض افترار
هتكـت حجـابـه والنصر غيـب
وللهبـوات طـيّ وانتشـار
بطعـن للقلـوب بـه انتظـام
وضرب للـرؤوس بـه انتشـار
تبـادره كـأن الموت غنـم
ومـا مـن عـادة البـدر البـدار
أنخـت على الصليـب مطـا صليبـا
بـه مـن صـك مبركـه هـدار
بمشرفـه المنـاكـب مقـربـات
لهن بمتـن كـل وغـى حصـار
جنين بـإنـب أنـب العنـاصي (٦٨)
وإضـن وللقنـا منهـا ثمار
وفي هـاب أبـت بها فجـاءت
كما أجلى مـن الكسـم الصـوار (٦٩)
وكـم في فـج حـارم مـن حـريـم
عفتـه فـلا جـديـر ولا جـدار

وانطاكية استنت إليها
فأجفل خيطها وله عرار (٧٠)
وصبح في عزاز بها عزاز
فأمسى وهو وعث أو خبار (٧١)
يشق بها دجى الغمرات عسفا
جواد لا يشق له غبار

وله من أخرى:
وما يوم الفرنجة منك فذ
فتحصر عده خطط الحباب
أجاش الاربعاء لهم خميسا
بعيد الغور ملتطم العباب
وأحكم بالخطيم لهم خطاما
أمر بريمه مرّ الضراب
مشو متساندين إلى صليب
يبرقع هبوة الصنم الصلاب
تلفهم المنايا في الثنايا
وتفجأهم شعوب من الشعاب
أطاشت سهم كبشهم هناة
فكنت ذباب طائشة الذباب
حللت التاج عنه وحل تاجا
مكان العقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى
وأبهى منه في ظل العقاب
فأشرف وهو عن شرف معوق
واصعد وهي غاية الانصباب
تكاشره الشوامت وهو مغض
ثناه منناه عن رجع الجواب

بعيـــــــداً مــــــن قـــــــراع واقتراع
يــــــؤوب لــــــه إلى يـــــوم المآب
وكــــم ســـوط بخيلـــك اقبلـــوه الصــــــ
ــــدور فكـــان ســـوطـــا مـــن عـــذاب
تـــركتهـــم بـــأرض الشـــام شـــامـــا
لظفــــــر تتقيـــــــه أولنـــــــاب
هتكـــت حجـــابهم والشمـــس وسنـــى
بشمـــس لا تـــوارى بـــالحجـــاب
بـــأبيـــض مـــن حبيـــك الهنـــد صـــاف
مصـــونا لمتـــن مبتـــذل الـــذبـــاب
لـــه سمـــة الشيـــوخ صفـــاء شيـــب
وفي خطـــواتـــه تـــرف الشبـــاب
الايـــانـــاظـــر الـــدنيـــا بعين
أرتـــه عـــلابها (٧٢) خـــدع السراب

تبطنهـــا فطلقهـــا ثـــلاثـــا
على عـــــز التملـــــق والخلاب
فـــلا يـــأوي إلى رأي شعـــاع
ولا يثنـــى إلى أمـــل خـــراب
تـــرفـــع عـــن مجاورة الأمـــاني
وحلـــق عـــن محاضرة التصـــابي
صـــلاة اللّـــه كـــل درور شمـــس
على مثـــوى أبيـــك مـــن التراب
فقـــد ألقـــى إلى الاســـلام عضبـــا
يطبـــق في النـــوائب غير نـــابي
تجيـــش لـــه رواس كـــالـــرواسي
تمدّ لها جفـــان كـــالجوابي

وله من أخرى:

مظفـــر العـــزم ممــــدود الـــرواق على
معـــالم الـــديـــن يـــر فيهـــا و يبنيهـــا
ردّ الكنـــائس كنســـا للهـــدى فخبـــت
نـــار الضـــلال ووارتها أثـــا فيهـــا
وأورد العلـــم عـــدا مـــن ايـــالتـــه
فـــاستـــن وافتـــن عبـــا في صـــوافيهـــا
وبـــث للشرك اشراكـــا فما درجـــت
طـــريـــدة منـــه الا استـــوهقـــت فيهـــا
يـــا بـــدر مـــذ أشرقـــت في الـــدســـت غـــرتـــه
غيـــث الـــرعيـــة واخضلـــت مـــراعيهـــا
أقـــام أحمد مـــن محمـــودهـــا علما
بـــه استقـــام على البيضـــاء ســـاريها
محيـــي شريعتـــه مـــن بعـــد مـــا انهدمـــت
واستعجمـــت بعـــد إفصـــاح معـــانيهـــا
شـــابـــت مـــواهبـــه فيهـــا مهـــابتـــه
حتـــى استقـــرت على سمـــت ســـواريها

وله من أخرى:
عـــزت سيـــوفـــك فـــالعـــراق عـــراقهـــا
والشـــام غير مـــدافعـــات شـــامهـــا
إن أغمـــدت حـــل العـــزائم حلهـــا
أو جـــردت حـــرم الكـــرى احـــرامهـــا
شجنـــت (٧٣) عـــداك بها فـــلا اشراقهـــا
بمفـــازة منهـــا ولا إعتـــامهـــا
سريـــت فصبحهـــا بها يقظـــاتها
هـــدأت فمستهـــا بها أحـــلامهـــا
كـــا الماء إلا أن في رشفـــاتـــه
نـــاراً حشـــاشـــات النفـــوس ضرامهـــا

خفـــــت على أيمانكــــم أوزانها
يــوم الــوغــى واستثقلتهـا هــامها
حتـى أحلـن الشـام شـامـا صرصرت
فيـه جنـاد بها وصـدّح هــامهـا
ورحضـن أدران الجزيـرة بعـدمـا
غمـرت بها وهـداتها وآكـامهـا
شطـراً أبـرت ومثلـه أنظـرتـه
وقـع الخطـوب تكـرهـا أيـامهـا
بـالخابطـات الغـاب تـزأر أسـده
والمجفلي الحي اللقـاح صيـامهـا
أورتها أجمات أنطـاكيـة
عنقـا وقـد شبـب الصـدا اجمامهـا
تلقـى المشـافـر في مـراشـف كلها
بـردت بها الأكبـاد زادهيـامهـا
فغـدت وقـد عـز السراح سراحهـا
وتـوزعـت في كنسهـا آرامهـا
ومشـى الضـلال القهقرى واستـأصل الـ
ـاذان مـن رجـع الاذان صـلامهـا
وغـدا يخللهـا الخليـل سـواحبـا
عـذبـا يمـرّ لها العـذاب غمامهـا
غضبـا لـديـن اللّـه حـص جنـاحـه
بغيـا وأدمـى صفحتيـه لـدامهـا
فـالآن رد النـور فيـه نـوره
وانجـاب مـن تلـك الهنـات ظـلامهـا
محمـودا المحمـودا قـدامـا إذا
خـام الكماة وزلـزلـت اقـدامهـا
الفـارج الكـرب العظـام تضـاجمت
أشـداقهـا وفـرى القلـوب ضغـامهـا(٧٤)

وله من أخرى:

أما الرعايا فإنها رشفت
لديك نعمى عذبا ثناياها
سلكت نهج العدل القويم بها
فاحمدت دينها ودنياها
وكم اميتت خوفا فامنها
متالف الخوف خوفك اللّه
للّه أقطارك التي قطرت
لها مناها إلى مناياها
أنب في إنب فوارسها
تردي فتردي أولاك أخراها
أشجيت لهاة البرنس هبوتها
وكم عتا عاتيا فأشجاها
وجوسلين استساغ نطفتها
فاحتلب الذل تحت مغداها
ردّته صفرا من كل ما ملكت
يداه أيد مناضل مسراها
جويس جاستك أوجه لا رأت
بؤسا وجاد الحيا محياها
في سرية لو تكون فارسها
يومئذ ما انبعثت أشقاها
لازال ظل النعماء عن ملك
ما الشمس كفؤا له إذا باها
واللّه جازيه عن مقيدة
أعزها اللّه مذ تولاها
محمود المعتلي إلى فلك
الحمد وثيرا له ولاياها
أعطاكه جدّك المتوج بالجـ
ـدّ ونفس للّه مغزاها
نفس عزوف عن الخنا طبعت
نزهها اللّه يوم سوّاها

أنـــت الـــذي سلـــم الانـــام لـــه
يمنـــى طبـــاق العلى ويسراهـــا
وأنـــت مـــولى الملـــوك قـــاطبـــة
مـــن كـــل فنـــا خسرو وشـــاهنشـــاهـــا
والشهـــــر هـــــذا الاقـــــول أحمده
أوّه بـــديـــل مـــن قـــولتـــي واهـــا

وله من أخرى:

يـــابـــن الـــذي لم يـــال في نجـــدة الـــ
ـــإسلام ادلاجـــــا وتهجيرا
تكنـــف الشـــام وقـــد شـــام بـــر
ق الخوف انجـــادا وتغـــويـــرا
وكـــف كلـــب الـــروم مـــن بعـــد أن
انشبـــه نـــابـــا واظفـــورا
فـــاهلـــه رقـــك إن انصفـــوا
رقـــا بحـــدّ السيـــف مسطـــورا
بـــدر هـــوى واستخلـــف الشمـــس في
دستـــك اشراقـــا وتـــأثيرا

وله من أخرى:

ملـــك كســـى الاســـلام مـــن ذبـــه
بـــردا بتـــدبيـــح الظبـــى معلما
مـــن أصبـــح الشـــام بـــه شـــامـــة
يقطـــر مـــن قتـــل عـــداه دمـــا
لـــو لم يقـــم منصلتـــا دونـــه
لم تلـــق في أقطـــارهـــا مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب:

الـــدهـــر مـــارضتـــه بـــالجودوالبـــاس
مقســــم بين اغـــــراس واعــــراس
فتـــح تعـــافيـــه فتـــح ومطلـــب
دانـــي المنـــال وملـــك ثـــابـــت راسي
نصرابيصرى وصفحـــا عـــن حماةلقـــد
أحسنــــت للـــــداء حسما أيها الآسي
يـــابـــن الـــذي عنـــت الـــدنيـــا الـــدولتـــه
مـــن فـــاطمـــي اعـــزتـــه وعبـــاسي

وله فيه أيضا:

غـــداالـــديـــن بـــاسمـــك ســـامـــي العلـــم
أمين العماد مكين القــــــــــدم
لـــــذلـــــك لقبـــت نـــورا لـــه
وقـــد أغطـــش الظلـــم فيـــه الظلـــم
أضـــاءت بعـــدلـــك آفـــاقـــه
وفضـــت عـــرى الـــديـــن لما ادهـــم
ولم تمش رهـــــوالنصر الـــــرهـــا
ومثلـــــك أدرك لما عـــــزم
ويـــوم بســـوطـــا بسطـــت الحما
م على الهضـــب مـــن ركنهـــا فـــانهدم
وبصرى وصرخـــــدلـــــو لم تثـــر
دراكـــا الكـــانـــا رديفـــي ارم
ومـــذفـــض جيشـــك في الغوطتـــ
ـــين فـــض الصليـــب لـــه مـــا نظـــم
وفي كفـــر لاثـــا وهـــاب حللـــ
ـــت عقـــد البرنـــس ببيـــض خـــذم
معـــــــودة أنها لاتســـــــ
ـــــلّ الامقمقمــــة للقمـــــم

يـــــوم بسرفـــــود جـــــرّ عتهـــــم
أجـــــاجـــــا أغصهـــــم واصطلـــــم

وفـــــوق العـــــريمـــــة غشـــــاهـــــم
عـــــرام جيـــــوشـــــك سيـــــل العـــــرم

وأبـــــت بكلبهـــــم في الكبـــــو
ل مبـــــاح الحريـــــم مـــــذال الحرم

وبـــــارتهم أذنـــــت انها
ابـــــارتهم فليبـــــؤ بـــــذم

بنـــــوهـــــا واعلـــــوا ولم يعلمـــــوا
بما خـــــط في اللـــــوح منـــــك القلـــــم

وانـــــك خـــــارم مـــــا أحكمـــــو
ه ومـــــن ديننـــــا راقـــــع مـــــا انخـــــرم

تـــــرفـــــع مـــــن بعـــــد خفـــــض هـــــدى
وتخفـــــض مـــــن بعـــــد رفـــــع صنـــــم

سمكـــــت المدارس فـــــوق النجـــــو
م فكـــــم منجـــــم تحتهـــــا قـــــد نجـــــم

وعـــــاش الحنيفـــــي والشافـــــ
ـــــعي بما شـــــدّت منهـــــا وكـــــانـــــا رمـــــم

وإن لم تكـــــن هـــــاشمـــــي الاصـــــو
ل فـــــانـــــك فـــــرع الهزبـــــر الهشـــــم

ومـــــن يـــــدّعـــــى في العلى مـــــا ادّعيـــــ
ـــــت وأنـــــت ابـــــن مـــــن عـــــز لما احتكـــــم

واقســـــم مـــــا غـــــاب ميـــــت سقـــــت
مغـــــارســـــه عين هـــــذي الشيـــــم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ، ونفسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلي،وسيأتي شيء من شعره إلى أن قدم العماد الكاتب للشام في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الأمر ،

وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً، وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن الأثير: وفيها توفي صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن أرتق.

قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجدّ في ملكها أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان، وهي مدينة فلسطين حسنا وحصانة، ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولايقدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طريقه، وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط، وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق.

واستضعفوا مجير الدين وتابعو الغارة على أعماله، وأكثروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم أشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحب وطنه سار إليه، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدّو فلجأوا إلى الله تعالى ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه، على يد أحب عباده إليه وأحسنهم طريقة، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقا، نور الدين محمود، فحسن له السعي في ملك البلدة وألقاه في روعه، فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوّة والحصار تعذر عليه لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلت: وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدّم ذكر شيء منها، ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظن صلاح الدين فرسان جلق
كفرسانه وما الاسد مثل الثعالب
رجال إذا قام الصليب تصلبت
رماحهم في كل ماش وراكب
غدا يطلع الشام الفرنج بفيلق
مسعودة أبطاله للمصائب
لها الليل نقع والأسنة أنجم
فما غير أبطال وغير جنائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني صاحب حماه، أحد أصحاب زنكي وقد تقدّم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأوليين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زنكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها وإنضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فإن الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل، فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا وأظهر له المودّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلانا - ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره، فتارة يأخذ اقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه، فلما خلت دمشق من الأمراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهما شجاعا، وفوّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصغ إلى قوله وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم
لحور نسائهم منهم نساء

هي الفردوس أصبح هو عاف
من العافي ومن خال خلاء

جنان تعرف الجنات فيها
ولا رأي هناك ولا رواء

لاسمح صعبها ودنت قصاها
وامكنك إقتياد وامتطاء

ويا نعم العطاء عطاء رب
توسطه فأنشطه عطاء

تفاءل باسمه فالفال وعد
يكون على ظباك به الوفاء

هو السبب الذي شزرت قواه
وهذ به لخدمتك الصفاء

وسيف إن تشمه تشم حساما
وإن يغمد فنار بل ذكاء

جنته لك السعادة قطف رأي
لنقب الخادعيك به هناء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك، وعطاء هذا هو الذي ينسب إليه مسجد عطا ء خارج الباب الشرقي بدمشق، وجوزة عطاء ببيت أبيات وهي أرض فيها أخشاب كبار من الجوز تربى أوتاراً لجامع دمشق، وهي وقف عليه، وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار

إليهم وحاصرهم عشرة أيام، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، فإلى أن جمعوا وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي فدخله بالامان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكبير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرّفه بما جرى عليه، فسار نور الدين في عساكره وزحف إلى البلد من شرقيه، وكانت الحرب في عاشر صفر ، وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأنّ نور الدين كان من شرقها وجلّ العسكر مقابله، ورأى من كان مع نور الدين من الجاندراية والحلبيين إلى خلوّ السور من المقاتلة فتسرعوا إلى السور وتعلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال أن إمراة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى، ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين ، فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الدين أمرها وردّ إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

قال الرئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد

الديـن شيركوه رسـولاً من نـور الديـن إلى ظاهـر دمشق، وخيـم بناحيـة القصـب مـن المرج في عسكـر ينـاهـز الألـف، فـأنكـر ذلـك، ووقـع الاستبحـاش منـه واهمال الخروج إليـه لتلقيـه والاختـلاط بـه، وتحرّرت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفرعن سـداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطـاع الواصلين بالغلات، ووصـل نور الديـن في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفـاسريا عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الأبـار من الغـوطة ، وزحف إلى البلـد من شرقيـه، وزحف إليـه من عسكـره وأحـداثـه الخلـق الكثيرووقـع الطراد بينهـم، ثـم عـاد كـل مـن الفريقين إلى مكـانه، ثم زحف يـوما بعد يوم ، وتـأكد الزحف يـوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليـهالعسكر الدمشقي فاندفع بين أيـديهم حتى قربوا من سور باب كيسـان والدباغة من قبلي البلد وليـس على السور أحد من العسكريـة والبلديـة لسوء تـدبير صاحـب الأمر ، غير نفـر يسير لايؤبـه لهم، فتسرع بعض الـرجالة إلى السـور وعليه امـرأة يهودية، فأرسلـت إليه حبلا فصعـد فيه، وحصل على السـور ولم يشعر بـه أحد وتبعه مـن تبعه وأطلعـوا علما نصبوه على السـور وصاحـوا:نور الـدين يـامنصور، وامتنـع الاجناد والـرعية مـن الممانعة لما هـم عليه من المحبـة لنور الـدين وعـدله وحسـن ذكره، وبـادر بعض قطـاعي الخشـب بفأسـه إلى الباب الشرقـي فكسر أغلاقـه، وفتحه فدخل منـه العسكر وسعوا في الطرقـات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح بـاب توما، أيضا ودخل الناس منـه، ثم دخل نور الديـن وخواصه ، وسرّ كـافة الناس من الأجنـاد والعسكرية لما هـم عليه من الجوع وغـلاء الاسعار والخوف مـن منازلـة الفرنـج الكفار،وكـان مجير الدين لما أحس بـالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعـة وأنفذ إليه فـأومن على نفسـه ومـالـه، وخرج إلى نـور الـديـن فطيب نفسـه ووعـده الجميـل،ودخـل نور الـدين القلعـة في اليـوم المقدّم ذكـره وأمـر بالمنـاداة بالامان للرعيـة والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قـوم من الرعاع والأوباش إلى سـوق علي وغيره فعاثـوا ونهبوا، وأنفـذ نور الـدين إلى أهـل

البلد بما طيب نفوسهم وأزال نفرتهم، وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جدّه، وأقام أياما، ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقطاعه عدّة ضياع بأعمال حمص برسمه ورسم جنده، وتوجه إلى حمص على القضية المقررة، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقها والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه، ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار وأنشأ بذلك المنشور وقرى على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه ونصرة أعلامه.

وقال ابن الاثير: لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً.

قلت: قد تقدم ذكره في أوّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفّرقة فيما بعد.

قال: وألقى الاسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه، بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الأفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لايقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص

وتقرّبوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمره أن يتسلمها منهم، فسار إليها وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره، ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب إلى دمشق مع ولده النائب عنه في صرخد إلى داره معوّلا على لزومها وترك التعرّض لشيء من التصرفات والأعمال ، فبدا منه من الأسباب المعربة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السداد والرشاد ما كان داعيا إلى فساد النية فيه، وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه ، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوّته مع فهاق متصل وقلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابع ربيع الأوّل ودفن في داره، وإستبشر الناس بهلاكه والرحمة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبوه بالفائز ، وعباس الوزير، ثم ورد الخبر بأن الامير فارس الدين طلائع بن رزيك ، وهو من أكابر الأمراء المقدّمين الشجعان المذكورين لما انتهى إليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض وجمع واحتشد، وقصد العود إلى مصر، فلما عرف عباس بها جمع خاف الغلبة فتأهب للهرب في خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيأ من ماله، وسار مغذاً فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج إليه جماعة من خيالة الأفرنج فاغتر بكثرة من معه، وقلة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهزم أقبح هزيمة هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتل العادل بن السلار

مع ولده وحرمه وماله وكراعه، وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدّة، ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به، من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة، وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من ألجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر .

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمني من قصيدة له:

لكم يا بني رزيك لازال ظلكم
مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم
قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس، كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم، وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك فنهيته فاطلع والده على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به وقرّر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً، ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورموه بجب الدار، وأصبح عباس جاء القصر، ضحوة نهار للسلام، وجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر ، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر، وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام، فتبلد الاستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لاتجاوبني؟ قال: يامولاي مولانا ما ندري أين

هو، قال: مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال، فمضى ورجع فقال: ما وجدنا مولانا، فقال: يبقى الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد لنبايعه، فمضى وعاد، وقال: الموالى يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء والدنا عزله عنا، وجعله في الظافر والأمر لولده بعده، قال: أخرجوه حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول لأخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم ، فخرج الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الأستاذ، فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلاّ قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: انظر من هذا المقتول، فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، ثم إن واحداً شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرّد.

قال: وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره اللّه سبحانه، وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال: كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ومائتا جنيب، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء إلى

قصر السلطان إلى الإيوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يديه فقال للجمالين والخربندية والركابية:روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب، ففعلوا ذلك وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم، وكان ما جرى من تهميل الدواب لطفا من اللّه تعالى به فإنها سدّت الطريق بينه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين رجلا، وغلمان عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسلاح التام، وثمانمائة فارس من الأتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فراراً من القتال، فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال

والبغال ، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب النصر وجاؤوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره، وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة آلاف فارس يتقوّى بهم على المصريين، واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منعة وقوة، فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الأفرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لايقصده الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليهوأخذوامنه حسباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم أن له عودة إليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس، ويوم الأحد صبحهم الأفرنج، وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الأوسط وابنه الأكبر، وقتلوا خلقا كثيرا، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعزبن باديس الحميري، ويلقب بالأفضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل، ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته « الحمد لله وبه أثق» وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الورى
وأغنى غناء الغيث حيث يصوب(٧٥)

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:

وأنفق من انعامهم في هلاكهم
وأظهر ما قد كان عنه تنافق
ومدّ يداً قد طوّلوها إليهم
وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كاس المنايا وما انقضى
له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه أنه لاينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذي داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده.

وقال: قد حملت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعني ولده ناصر الدين وبأخواه ، فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبيس، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي إليك، وأنت ولي ما تراه فيهم، فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجاري الواسع وأحسن إليهم غاية الأحسان ، وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو يلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسب إلى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين، فأنفذإليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم

ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينة أسوان، وأنفذ إليك أهلك وأمدك بالأموال وهي كما علمت الثغر بيننا وبين السودان، وما يسدّ ذلك الثغر مثلك وأكثر من الوعد وذكر رغبته في قربه ورعايته وما بينه وبينه من قديم الصحبة، فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته فقال: يافلان ما تساوي الحياة الشتات والرجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان، ومنعه من ذلك بإحسانه ووعده أن يستخلص أهله، فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وتردّدت بينهما مكاتبات وأشعار متصلات إلى أن سيرهم وهم نيف وخمسون نسمة في الاكرام والاحترام إلى آخر ولايته .

وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه، ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكر النوري بحلب فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسرت بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه ولم يصلوا إلى دمشق إلاّ بأنفسهم، وأن متملك الافرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم، وأكتروا ظهراً إلى دمشق قال أسامة:

إلى اللّه أشكو فرقة دميت لها
جفوني واذكت بالهموم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى
وطارت بها الاشواق كل مطير
فلما قضى اللّه اللقاء تعرضت
مساءة دهري في طريق سروري(٧٦)

فصل

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيع الأوّل وصل الأمير مجد الدين أبو بكر

محمد نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج،وأقام أياما وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: مجد الدين هذا هو ابن الداية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخوته وسيتكرر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر أخوته، وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعوا ما مضى من قبل هذا المابعد
فأقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سمت أوصافه لعفاته
قرائن كل اثنين بينهما عقد
محياه والبشرى ويمناه والندى
ونجواه والدنيا وتقواه والزهد
ففي قربه الزلفى وفي وعده الغنى
وفي نيله الحسنى وفي رأيه الرشد
إذا وجه نور الدين قابل مجده
فقل في كمال البدر قابله السعد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته، وولي الحرمين ابنه قاسم بن هاشم، وهو الذي أرسل عمارة اليمني الفقيه الشاعر إلى الديار المصرية، وسيأتي ذكره.

قال أبو يعلى: وفي ثامن من جمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها، فهجمت عليها وقتلت وأسرت وسبت ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركتها صفراً، وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سلم واختفى وضاقت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

- ٧٧٧٣ -

قال: وفي شهر رمضـان ورد الخبر من ناحية حلب بوفـاة القاضي فخر الديـن أبي منصور محمـد بن عبـد الصمد بـن الطرسـوسي، وكان ذا همة ماضيـة ويقظة ومـروءة ظاهـرة، وفي داره وولده ومـن يلم بـه من غـريب ووافد، وقـد نفذ أمـره وتصرفه في أعمال حلب في الأيـام النوريـة، وأثر في الوقوف أثراً حسنا، توفر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك، ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان الضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتسلمها منه وألحقه بأصحابه.

قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة، وجعله في البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له ضحاك، فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق، فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية دمشق .

قلت: هذا وهم، تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين، فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق، وأما كونه ولي الشحنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكده ، قرأت في ديوان العرقلة وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق، وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي:

قلت لحسادك زيدوا في الحسد
قد سكن الدار وقد حاز البلد
لا تعجبوا وإن حل دار عمه
أما تحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوص الشام تابوا من ذنوب
تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا
فمولاي الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا:

رويدكم يا لصوص الشـ
ـآم إني لكم ناصح في مقالي
وإياكم وسمي النـ
ـبي يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدي النسـ
ـاء وهذا مقطع أيدي الرجال

قال ابن ابى طيّ: وولي صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن همام ، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطيف به في دمشق.

قلت: وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباسي في قصيدته، وأشار إلى حلق لحيته بقوله:

كأبي سالم بن همام لما
قام للنصح عاديمشي ملثم

ثم قال ابن أبي طيّ: واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لايفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج

أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قتلمش ملك قونية وما والاها ، فملك عدّة من حصونها وقلاعها بالسيف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند، ونصروا عليهم في وقعة كانت بأقصرا في شعبان، فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عظم عليه هذا الأمر، واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمكاتبة والانكار والوعيد والتهديد فأجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينهما مستمراً على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

قال: وولي الاسطول المصري مقدّم شديد البأس. بصير باشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابهم، ونهض بهم في عدّة من المراكب الاسطولية، وأقلع في البحر ليكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد منها في البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وأسر وانتهب وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت : وفي هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد، وهو المقتفي ، إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرّمة باب ساج جديدا، قد ألبس جميع خشبه فضة وطلي بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوباً يدفن فيه عند موته. وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت إلى زبيد، وعدت من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججت في الموسم منها فدفعت لأمير

الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعنـي مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية ، وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه ،فأرسل إليهم يعرّفهم قوّتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصة من حارم، فأبى أن يجيبهم إلاّ على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير ، وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فأما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة، وقد قرأت في ديوان ابن منير، وقال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم:

مافوق شأوك في العلى مزداد
فعلام يقلق عزمك الاجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا
فالشهب أطناب لها وعماد
أنت الذي خطبت له حساده
والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم اليلند
وانجلى للآثر الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها
ارج المهب ودوحها مياد

أحيا ربيع العدل ميت ربوعها
فالبرض نسج والهشيم مراد
فالعيش إلا في جنابك ميتة
والنوم إلا في حماك سهاد
وإذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا
كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها
جن الملا وكأنها أطواد
تدأى ومن وحي الكماة صفورها
فالزجر قيد والندى قياد
سحب إذا سحبت بأرض ذيلها
فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدي النواظر في دجنة نقعها
بدر بسرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يا نوره
عزّا له فوق السُّها إسناد
ما زلت تسمكه بمياد القنا
حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلة
فلهم إلى المرعى الوبيّ معاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهد
قامت به لظباكم الاشهاد

ملق بأطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حـــامـــوا فلما عـــاينـــوا حـــوض الـــردى
حـــامـــوا بـــرائش كيـــدهـــم أو كـــادوا
ورجـــا البرنـــس وقـــد تبرنـــس ذلـــة
حـــرمـــا بحـــارم والمصـــاد مصـــاد
ضجـــت ثعـــالبـــه فـــأخـــرس جـــرسهـــا
بيـــض تنـــاســـب في الحديـــد حـــداد
وســـواعـــد ضربـــت بهنّ وبـــالقنـــا
مـــن دون ملـــة أحمد الاســـداد
يـــركـــزن في حلـــب ومـــن افنـــانها
تجنـــي فـــواكـــه أمنهـــا بغـــداد
يـــا مـــن إذا عصفـــت زعـــازع بـــأســـه
خمدت جحيـــم الشرك فهـــي رمـــاد
عجبـــا لقـــوم حـــاولـــوك وحـــاولـــوا
عـــودا فـــواتـــاهـــم إليـــه مـــراد
ورأوا النصر فـــوقـــك خـــافقـــا
فـــأقـــام منهـــم في الضلـــوع فـــؤاد
مـــن منكـــر أن ينســـف السيـــل الـــربـــا
وأبـــوه ذاك العـــارض المدّاد
أو أن يعيـــد الشمـــس كـــاسفـــة السنـــا
نـــارلها ذاك الشهـــاب زنـــاد
لا ينفـــع الآبـــاء مـــا سمكـــوا مـــن الـــ
ـــعلياء حتـــى تـــرفـــع الأولاد
ملـــك يقيـــد خـــوفـــه ورجـــاؤه
ولقلما تتضـــافـــر الاضـــداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أوّلها:
للملـــك مـــا تشـــاء مـــن الـــدوام

يقول فيها:

حظيـــت مـــن المعـــالي بـــالمعـــاني
ولاذ النـــاس بعـــدك بـــالاســـامـــي
عـــزيـــز المنتمـــى عـــالي المراقـــي
بعيـــد المرتمى غـــالي المُســـامـــي
فما أحـــــد إلى العليـــاء يـــدلي
بمحتـــدك القسيمـــي القســـامـــي
أبـــوك المعتلي قمـــم الأعـــادي
إذا استعـــرت مـــذامـــرة القمام
زكـــا عـــرق العـــراق وقـــد تكنـــى
بـــه وأطـــال مـــن شمـــم الشـــآم
وجـــدك جـــدّ حتـــى قـــال قـــوم
على الفلـــك ابتنـــى عمـــد الخيـــام
فخـــرت ففـــت أبـــاء عظـــامـــا
إذا فخـــر المنـــافـــر بـــالعظـــام
وقفنـــا والنـــواظـــر مسجـــدات
وروح العـــــز ذاريّ الختـــــام
أســـاطـــر كـــالـــزبـــور مفصـــلات
كـــأنـــامـــن صـــلاة في نظـــام
لـــدى ملـــك سجـــايـــاه سجـــال
تعـــاقـــب بين عفـــو وانتقـــام
كـــريـــم أكثـــرت يـــده أيـــادى الـــ
ـــعفاة وقللـــت عـــدد الكـــرام
فـــأهللنـــا الســـالفتـــي هـــلال
وكفـــرنـــا الضـــاحكتـــي حســـام
ذهلنـــــا والسماط تخال سمطـــا
وقـــد سجـــد المقـــاول للســـلام
هـــل الـــدســـت استقـــل بليـــث غـــاب
أم الفلـــك ارتـــدى بـــدر التمام

يطرب به إلى العلياء نفس
غروب عن ملاءمة الملام
وخير سماعه ضرب مدام
إذا طرب الملوك إلى المدام
سقى اللّه العوامل من جبان
شققن النقع عن نقع الاوام
فكم انتجت من أمل عقيم
بها وحسمت من داء عقام
بأنب والرعال كأن ثولا
تطاوح تحت عير من أيام
مقام كنت قطب رحاه أرجى
مقام بين زمزم والمقام
رميتهم بأرعن مرجحنّ
ابارهم وكنت أبرّ رام
وقمت وقد تناعس كل راع
وقام وقد تقاعس كل حام
فأيدي الخيل تذرع بحر لج
من الدم من يد التثخين طام
أحلت الدين فيه وكان هما
عزيز القوم معتدل القوام
وفي شجراء حارم شاجرتهم
سواهم كالسهام بكالسهام
نظائر حممت لهم حماما
تطاير تحته مثل الحمام
فلو قد مثل الاسلام شخصا
لرشف ما وطئت من السلام
فاكذب مدّعين هفوا وغرّوا
بأن الأرض تخلو من همام

أولى لابصاركم هذا التعاشي
عن النور المبين بل التعامي
عن القمر الذي يجلوه ظل الـ
ـعواصم في ضيا الليل التهامي
هو المهدي لا من ضل فيه
كثير واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لاما تمنى
به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدين أنشر كل حق
أطيل ثواؤه تحت الرجام
وطالت قبة الاسلام حتى اسـ
ـتوت بين الفوارس والنعام
تطابق لاسمه لفظ ومعنى
أحلاه الطباق على الأنام
جرى قدّامه ابن سبكتكين
وقبل الوبل هينمة الرهام
وكان من النجوم بحيث تومى
إليه من عنايات التكامي
وجئت فصار أشمخ ما بناه
لما شيدت الطأمن رغام
أطاعك إذ أطعت اللّه جدّ
ركبت به الزمان بلا زمام
ألا يا ربما اتفق الاسامي
وفاضل بينها درج التسامي
جنى شرفا من استغواه حتف
إليك وكم حياة من حمام
ترشفك الكماة وأنت موت
كأنك من طعان في طعام

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤوس الأفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في بعض أيام رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها، واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ماكان حدث بينهما، وفي شوال تقرّرت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الأفرنج مدّة سنة كاملة، أوّلها شعبان وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية، وكتبتا المواصفة بذلك بعد أن تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة.

قال: وفي العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في البحر وقوّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات الخيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لايحصى فيذكر للحاجة إلى الرعي بها، والسكون إلى الهدنة المستقرّة، ووقع للمندوبين وبحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأقفروا أهله منه مع من أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين أمنين، واللّه عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم، وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس، كاتب الانشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه، ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصلاة.

وفاتر النية عنينها
مع كثرة الرعدة والهمزه
مكبر سبعين في مرة
كأنه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب:

مداده في الطرس لما بدا
قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللما
أو ذاب فيه الحجر الأسود

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لايتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلاّ في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والآداب والشعر.

قال: وفيها في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل من هذه السنة توفي الفقيه الزاهد أبو البيان نبأبن محمد المعروف بابن الحوراني، وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا إلى أن قضى متدينا نقيا عفيفا سخيا محباً للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب، وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضي الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار، وفي الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهنّ بحيث أحصين ست مرات، وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أوّل النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج افامية، بهذه الزلازل المباركة، وذكر أن الذي أحصي عدده منها تقدير الأربعين، وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصار الخالية، وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية في آخره، وفي أوّل شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل ، وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلة التي تلتها زلزلتان أوّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوّال زلزلة أعظم مما تقدّم، وفي سابعه وسادس عشره، ، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه، ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم، فله الحمد والشكر، لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها، وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم، وأمّا حماه فكانت كذلك، وأمّا باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة ، والله أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلـزلة عظيمة، وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشريـن واليوم بعدهـا، وتواصلت الأخبـار من الشام بعظيـم تأثير هذه الزلازل ، وفي ليلـة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافـت أربع زلازل، وضج الناس بـالتهليل والتسبيح والتقديـس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الأخبـار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثـرت في حلـب تـأثيرا أزعـج أهلها وأقلقهـم وكـذا في حمص وهـدمـت مواضـع فيها، وفي حماه وكفـر طاب وأفاميـة ، وهدمت مـا كان بنـي من مهدوم الزلازل، وحكـي أن تيماء أثرت فيها هذه الـزلازل تأثيرا مهولا، وفي رابـع رجب نهاراً وافـت بـدمشـق زلزلـة عظيمـة لم يـر مثلها فيما تقـدّم، ودامـت رجفاتها حتـى خاف النـاس على أنفسهـم ومنازلهم وهـربوا مـن الـدور والسقائف وانـزعجوا وأثـرت في مـواضع كثيرة، ورمـت من فـص الجامع الشيء الكثير الذي يعجـز عن إعادته، ثم وافت عقيبهـا زلزلة في الحال، ثـم سكنتـا بقدرة مـن حـركهـا،ثـم تبـع ذلك في أول ليلـة اليـوم المذكور زلـزلة، وفي وسطـه زلزلة، وفي آخـره زلزلة،وفي ليلـة الجمعة ثـامن رجب زلزلة مهـولة أزعجت الناس ، وتلاها في النصف منهـا ثانية، وعند انبلاج الصبـح ثالثة، وكـذلك في ليلـة السبت وليلة الأحـد وليلة الاثنين، وتتابعت بعـد ذلك بما يطول الشرح ، ووردت الاخبار مـن ناحية الشمال بما يسـوء سماعـه، ويرعـب النفـوس ذكـره بحيث انهدمـت حماه وقلعتهـا وسائر دورها ومنازلها على أهلها مـن الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهم العـدد الكبير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهـم إلاّ القليل اليسير، وأمّا شيزر فـان ربضها سلـم الا ما كان خرب أوّلا، وأمّـا حصنها المشهور فإنـه انهدم على واليها تاج الـدولة بن أبي العساكـربن منقذومـن تبعه إلاّ اليسير ممن كان خارجـا، وأمّا حمص فانّ أهلها كانوا قـد قد اختلفوا منها إلى ظـاهرهـا فسلمـوا، وتلفـت مساكنهـم، وتلفـت قلعتهـا، وأمّا حلـب

فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة وجبيل ، وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها،ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة اللّه تعالى ولطفه لكان الخطب أفظع، وقد نظم في ذلك من قال:

روّعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلادا كثيرة وحصونا
وثغورا موثقات البناء
وإذا ما رنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ما قضي من اللّه أمر
سابق في عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن كا
ن له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسبحا باكي العيـ
ـن مروعا من سخطه وبلاء
جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن المسقفة إلى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من ناحية حلبْ بأنّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجىء إليها وأنها دامت أياما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر، وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنّ، فلما كانت ليلة السبت العاشر من شوال، وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء، الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها، هزة خفيفة، وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل ، وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفرالناس من هولها إلى الجوامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة حماه وحصن شيزر فإنهما خربا بالمرّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرّة، وغيرها من البلاد والقرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لايحصه إلاّ اللّه تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن اللّه منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد، وإلاّ كان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال.

وقال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلمين بحماه ذكر أنه فارق المكتب لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على

الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ، وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة، قال وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحـ
ـنا نظن اليقين احلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي
تيقظوا كم ينام من ناما(٧٧)

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة المو
ت وإذ لا يسوغ في الحلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغفـ
ـلة حار الساري وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هذي الـ
ـلارض بالغافلين كي يستفيقوا(٧٨)

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور النزهة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من
هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم
ركاب بحر من الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم
لمصرع السلف الماضين يرتقب

تعـوّضــوا مــن مشيــدات المنـازل بـالــ
ــلاكواخ فهــي قبــور سقفهــا خشــب

كــأنها سفـــن قـــد أقبلــت وهـــم
فيهـــا فـــلا ملجــأ منهـــا ولا هـــرب (٧٩)

وقال: يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:
مــا استــدرج الموت قــومــي في هـــلاكهـم
ولا تخرمهـــم مثنـــى ووحـــدانـــا
فكنـــت اصبر عنهـــم صبر محتســب
وأحمد الخطــب فيهـــم عــز أو هــانـــا
واقتــدي بــالـــورى قبلي فكــم فقــدوا
أخــا وكــم فــارقـــوا أهـــلا وجيرانـــا
لكـــن سقــب المنــايــاوســط جمعهـــم
رغـــا فخـــروا على الاذقــــان اذعـــانـــا
وفـــاجـــأتهم مـــن الأيـــام قـــارعـــة
سقتهـــم بكــــؤوس الموت ذيفـــانـــا
مــاتـــوا جميعــا كــرجــع الطــرف وانقــرضــوا
هـــل مـــا تـــرى تـــارك الحين إنســـانـــا
اعــــزز علـي بهم مــــن معشر صبروا
على الحفيظـــة إن ذو لـــوثـــة لانـــا
لم يترك الـــدهـــر لي مـــن بعـــد فقــدهـــم
قلبـــا أجشمـــه صبرا وسلـــوانـــا
فلـــو رأوني لقـــالـــوا مـــات أسعـــدنـــا
وعـــاش للهـــم والاحـــزان اشقـــانـــا
لم يترك الموت منهـــم مـــــن يخبرني
عنهـــم فيـــوضـــح مـــا قـــالـــوه تبيـــانـــا
بـــادوا جميعـــا ومـــا شـــادوا فـــواعجبـــا
للخطـــب أهلـــك عمارا وعمـــرانـــا

هـــذي قصـــورهـــم أمســـت قبـــورهـــم
كـــذاك كـــانـــوا بها مـــن قبـــل سكـــانـــا

ويـــح الـــزلازل أفنـــت معشري فـــإذا
ذكـــرتهم خلتنـــي في القـــوم سكـــرانـــا
لا ألتقـــى الـــدهـــر مـــن بعـــد الـــزلازل مـــا
حييـــت إلا كسير القلـــــب حيرانـــــا
أخنـــت على معشري الادنين فـــاصطلمـــت
منهـــم كهـــولا وشبـــانـــا وولـــدانـــا
لم يحمهـــم حصنهـــم منهـــا ولا رهبـــت
بـــأســـا تنـــاذرة الأقـــران أزمـــانـــا
إن اقفـــرت شيـــزر منهـــم فهـــم جعلـــوا
منيـــع أســـوارهـــا بيضـــا وخـــرصـــانـــا
هـــم حموهـــا فلـــو شـــاهـــدتهم وهـــم
بها الشـــاهـــدت آســـادا وخفـــانـــا
تـــراهـــم في الـــورى أســـد ويـــوم نـــدى
غيثـــا مغيثـــا وفي الظلماء رهبـــانـــا
بنـــو أبي وبنـــو عمـــي دمـــي دمهـــم
وإن أروني منـــــاواة وشنـــــأنـــــا
يطيـــب النفـــس عنهـــم انهم رحلـــوا
وخلفـــوني على الاثـــار عجـــلانـــا(٨٠)

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:
بـــأبـــى شخصـــك الـــذي لا يغيـــب
عـــن عيـــانـــى فهـــو البعيـــد القـــريـــب
يـــا أخـــلاي بـــالشـــام إن غبـــــ
ـــتم فشـــوقـــي إليكـــم لا يغيـــب
غصبتنـــا الايـــام قـــربكـــم منـــــ
ـــا ولا بـــد أن تـــردّ الغصـــوب

كـــره الشــــام أهلـــه فهـــو محقـــو
ق بـــــأن لا يقيـــــم فيـــــه لبيـــــب

إن تجلـــت عنـــه الحروب قليـــلا
خلفتهـــــــا زلازل وخطـــــــــوب
رقصـــت أرضـــه عشيـــة غنـــى الـــ
ـــرعد في الجوّ والكــــريـــم طـــروب
وتثنـــت حيطـــانـــه إذا مـــالتـــ
ــها شمال بـــزمـــرهـــا وجنـــوب
لا هبـــوب لنـــائم مـــن أمـــانيـــ
ـــه وللعـــاصفـــات فيهـــا هبـــوب
وأرى البرق شـــامتـــا ضـــاحـــك الســـ
ــن وللجـــوّ بـــالغمام قطـــوب
ذكـــروا أنـــه يـــذوب بـــه السحـــ
ــب فما للصخـــور أيضـــا تـــذوب
أبـــذنـــب أصـــابها قـــدر اللـــ
ـــه فلـــلأرض كـــالأنـــام ذنـــوب
إن ظنـــي والظـــن مثـــل سهـــام الـــ
ــرمي منهـــا المخطـــى ومنهـــا المصيـــب
إن هـــذا الآن غـــدت ســـاحـــة القـــد
س ومـــا لـــلاســـلام فيهـــا نصيـــب
منـــزل الـــوحـــي قبـــل بعـــث رســـول اللـــ
ـــه فهـــو المحجـــوج والمحجـــوب
نـــزلـــت وسطـــه الخنـــازيـــر والخمـــ
ــرو بـــارى النـــاقـــوس فيـــه الصليـــب
لـــو رآه المسيـــح لم يـــرض فعـــلا
ذكـــروا أنـــه لـــه منســـوب
لهف نفسي على ديـــار مـــن السكـــ
ـــان أقـــوت فليـــس فيهـــا مجيـــب

أن تخصيصكـــم نـــوائب مـــازا
لـت لكـم دون مـن ســواكـم تنـوب

أبعـد النـاس عـن عبـادة رب النـــ
ـــاس قـــوم إلههــم مصلـــوب

فـاحتسـب مـا أصـاب قـومـك مجد
الـديـن واصبر فـالحادثـات ضروب
فكـذاك القنـاة يكسر يـوم الـ
ـروع منهـا صـدر وتبقـي الكعـوب

وقرأت في ديوان العرقلة كان المولى صلاح الـدين يوسف بن أيوب مع عبيد غـلام المولى، وكان عبيد هـذا موصوفا بـالثقل في بيت بمـدينة حماه يوم الزلزلـة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيـت الذي هما فيه، فقال العرقلة:

قـل لصـلاح الـديـن رب النـدى
بلـغ عبيـدا كـل مـا أملـه
بثقلـه لما تصـاحبتما
سلمـك اللّـه مـن الـزلـزلـة

قرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيـوخه أنه وقع بدمشق في ذي القعـدة سنـة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمـة، حكـى عنها نحو مما مضى ذكره، وأكثر ، نسأل اللّه تعالى تمام العافية.

فصل

قال الرئيس أبـو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأوّل توجه نـور الدين إلى نـاحية بعلبك لتفقد أحـوالها، وتقـرير أمـر المستحفظين لها، وتواصلـت الأخبار من نـاحية حمص وحماه باغارة الفـرنج الملاعين على تلك الأعمال،

وفي خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم في أوّل المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل اللّه نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لايحد كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوما مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به،

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدّمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأوّل، وفي

سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب، بأنّ الافرنج خذلهم اللّه تعالى أنهضوا سرّية من أعيان مقدّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم في قل، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلاّ اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الإثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة اللّه تعالى لايبطىء، والله يسهله ويعجله.

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة باتياس، وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وماحوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوافيه، فلما وصل ملك الأفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها،

وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأنّ الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف أنّ معسكر الكفرة الأفرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور، من الاتراك و العرب، وجدّ في السير فلما شارفهم وهم غارون وشاهدوا راياته قد اظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل اللّه نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت السيوف الرجالة ، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه اللّه فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله، والآخر غريب لايعرف، وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله، وقتل أربعة من شجعان الكفرة، وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدّة، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفي يده راية، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لايحصى لهم من عدد:الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي

عنهم المرامي دونهم، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنة ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

مــــارأينــــافيماتقــــدّم يـــومـــا
كـــامـــل الحســـن غـــايـــة في البهـــاء
مثــل يـــوم الفـــرنـــج حين علتهـــم
ذلـــــة الاسر والبـــــلا والفنـــــاء
وبـــرايـــاتهم على العيـــس زفـــوا
بين ذلّ وحسرة وعنـــــــــاء
بعـــد عـــزلهم وهيبـــة ذكـــر
في مصـــاف الحروب والهيجـــاء
هكـــذا هكـــذا هـــلاك الأعـــادي
عنـــد شـــنّ الاغـــارة الشعـــواء
شـــؤم أخـــذ الجشـــار كـــان وبـــالا
عمهـــم في صبـــاحهـــم والمســـاء
نقضـــوا هـــدنـــة الصـــلاح بجهـــل
بعـــد تـــأكيـــدهـــا بحسـن الـــوفـــاء
فلقـــوا بغيهـــم بما كـــان منهـــم
مـــن فســـاد بجهلهـــم واعتـــداء
لاحمى اللّـــه شملهـــم مـــن شتـــات
بمـــواض تفـــوق حـــدّ المضـــاء
فجـــزاء الكفـــور قتـــل وأسر
وجـــزاء الشكـــور خير الجزاء
ولـــرب العبـــاد حمد وشكـــر
دائم مـــع تـــواصـــل النعماء

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها، والله المعين والموفق.

وقـال ابن أبي طـي: في سنـة اثنتين وخمسين أغـارت الفرنـج على بلـد حمص وحماة، وأفسدوا وأكثـروا العيث، واتصل ذلـك بنور الديـن فأنهض إليهـم عسكرا كثيفـا فأوقـع بهم وهزمهـم إلى أرض بانيـاس، وخرج نـور الديـن حتى نـزل على بانيـاس وحاصرهـا أشدّ حصـار حتى افتتحهـا في الثامن والعشرين من ربيع الأوّل، وأخذ جميـع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمـة والأسارى مـع أسد الـدين إلى دمشـق، وأنفذ معـه مقدار ألـف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معـارضة أسد الدين قطعة من خيالتها ، واتصل هذا بأسد الديـن وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته، وتقدّم في جماعـة من ممـاليكه بين يـــدي العسكر، وأمـر الـرجال بلقـاء الفرنـج وناجـزهم الحرب فلم يتماسكـوا بين يديـه ورجعوا على أدبارهـم، وتبعـهم مقـدار فـرسخين يقتـل ويـأسر، وغنـم منهـم غنيمـة حسنـة ، وعـاد إلى أصحابه ظافراً، وتـوجه في وجهته مؤيدا.

فصل

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي الثاني عشر مـن جمادى الآخرة، تـواصلت الأخبار بوصـول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنـزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقـرير المهادنة بين نـور الدين وملك الأفـرنج، وتكرّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشـاجرات بحيث فسد الأمـر، ولم يستقرّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدّميه مع العرب بازاء أعمال المشركين.

قـال: وفي ثالـث رجب تـوجه نـور الـدين إلى نـاحية حلـب وأعمالها، لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر في حمايتهـا عندما عاث المشركون فيها، وقربت عســاكر الملك ابن مسعود منهـا ثم قال بعد ذلك: قـد تقدّم من ذكر نور الديـن ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بـلاد الشأم عند إنتهاء الخبر إليـه بتجمع أحـزاب الفرنـج خـذلهم الله وقصـدهم لها وطمعهـم

بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها، وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها، بحيث اجتمع إليه، العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد، فلما اشتد به وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدّمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة ، وشدّة البأس، ويكون مقيما بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرّرت اشتدّ به المرض فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، من فساد الأفرنج، وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وازعجت القلوب فتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلة وغيرهم وظهروا عليهم ، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه،فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إليه و إلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حيّ في نفسه، وما

كان إلى ما فعل حاجة، فقيل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلاّ صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين بالعود إلى جهاد الملاعين، وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حران وما أضيف إليها وتوجه نحوها، ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين، فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عصب الكفر والضلال.

قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يا زماني
وفزت بما رجوت من الأماني

فكم أصبحت مرتاعاً لخوف
فبدلت المخافة بالأمان

وجاءتنا أراجيف بملك
عظيم الشأن مسعود الزمان

فروّعت القلوب من البرايا
وصار شجاعها مثل الجبان

وثارت فتنة تخشى أذاها
على الاسلام في قاص ودان

ووافى بعد ذاك بشير صدق
بعافية المليك مع التهاني

فولى الخوف منهدم المباني
وعاد الأمن معمور المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ، وسلمها إلى مجد الدين بن الداية، وسار إلى سرمين، لأنه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفى منه ، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير ميران، ، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصفرخوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فعاد إلى خدمته مهنئا بالعافية، وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى حران، وجعل ولي عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار ، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من خلب وغيرها، والداخلين إليها.

قلت: ولابن منير تهنئة لنور الدين من مرض غير هذا:

يا شمس لا كسف ولا تكدار ولا خلت من نورك الانوار
البدر منقوص وأنت كامل لك السرايا وله السرار
برؤك للاسلام من أدوائه برو في أعدائه بوار
ما أنت إلّا السيف صد صدأ عن متنه مضربه البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس لحملته دونك الابصار
ولو فدت أرض السماء ساقت الـ ملوك في فدائك الامصار

أنـــت غيـــاث محلهـــم إن أجـــدبـــوا
وخيرهـــــم إن ذكـــــر الخيـــــار
وفي سريـــــر الملـــك منهـــا ملـــك
للّـــــــــــــــه في سرائه اسرار
خير ملــــــوك الأرض جـــــداً وأبـــــا
إن هــــز عطفـــي مـــاجـــد نجـــار
مـــــد على الـــــديــــن رواق دولـــة
تنــــازعـــــت أسمارهـــــا السمار
علـــت بنـــايـــاه وحلـــت في يـــده
فهـــــي عليـــــه الســـور والســـوار
محمـــــودا لمحمـــــود عصر ملكـــه
فللحيـــــا مـــــن مـــزنـــه اعتصـــار
يـــا نـــور ديـــن أظلمـــت آفـــاقـــه
لـــــولم تبلـــج هـــــذه الاثـــار
للّـــــه أيـــــامـــك مــــا تخطـــه
بـــا لمســـك مـــن اسفـــارهـــا الاسفـــار
سلمـــت لـــلاســـلام تـــرعـــى سرحـــه
إذا ونـــى رعــــاتـــه وجـــاروا
شكـــوت فـــالـــدنيـــا على سكـــانها
قـــرارة جـــانبهـــا القـــرار
كـــادت تموت الأرض مـــن اشفـــاقهـــا
لـــــولا شفــــاء ردّهـــــا تمار
زرّت عليـــك الترك حبيـــب نســـب
يحســـدهـــا بـــزيـــه نـــزار
لا عـــدمـــت منـــك الأمـــاني ريها
معطـــى مـــن الاقبـــال مـــا تختـــار
مـــا سمـــح الـــدهـــر بـــان تبقـــى لنـــا
فكـــل جـــرح مسنـــا جبـــار

- ٧٨٠٤ -

ولـه من قصيدة أخرى

لا نــــؤدي لا نعـــم اللّـــــه شكــــرا
بـــك يـــا أعظـــم البريـــة قـــدرا
زور عشر وافى لا قــــــــــلاع ذا
جعــــلا المنـــة المنـــاة عشرا
أم مغنـــــاك ضـــامنـــا أن أيـــا
مـــك تفنـــي الأحقـــاب عصرا فعصرا
في محل لـــــه السماكـــان سمـــك
وجـــــــدود لها المجــــرة مجرى
أيها العـــــادل المظفــــر لاقــــــ
ـــصت شبـا الـدهـر مـن شبـاتـك ظفـرا
جعــــل اللّــــه مـــا استهـــل مـــن الأشـــ
ـــــهرينهـــل في مغــــازيـــك نصرا
أبـــــدا ينشر التهـــــاني على ســـا
حتـــك الــزهـــر في المواســـم نشرا
أنـــت أسرى الملـــوك نفســـا وقنســـا[٨١]
وإلى أسرهـــم مـــن الطيــــف اسرى
ملـــك عنـــده المشـــارب تستمــــــ
ــــري واخـــلاف الجود تمرى فتفـــرى
فلـــك اللّـــه مـــن مثمــر بـــذر
يصطفـــي صـــالحا ويحصـــد أجـــرا
عـــش لملـــك أصبحــت في الـــدســـت منـــه
فـــوق كسرى عـــدلا وشعبـــا وكسرا
تفطـــر الطيبـــات للفطـــر فطـــرا
وتعـــم الاعـــداء في النحـــر نحـــرا
يقتنـــي مـــن كســـاك أنفـــس ملبـــو
س ويقنيـــك منـــه أطـــول عمـــرا

أنـــت تملي ونحـــن ننظـــم مـــا تنـــــ
ـــشره الغـــر مـــن مســـاعيـــك نثـــرا
صرف اللّـــــــه عنـــــك عين زمـــــان
بـــك صـــارت بعـــد الاصـــابـــة عبرى
وتـــــوالـــــت لـــــك الفتـــــوح إلى أن
تملا الخافقين نهيـــــــا وأمـــــــرا
كلما انهجـــت مـــــلابـــس نعمـــى
وتمليتهـــــن جـــــدّدت أخـــــرى

وقال القيسراني من قصيدة:
أشرق البـــــدر يـــــا جبين الهلال
فجـــلاه لـــــوجهـــــك المتـــلالي
عـــن ليـــال حجبـــن عنـــا سنـــاهـــا
إنما غيبـــــــــة الهلال ليـــــــالي
لم يكـــن مـــا ألم يـــا نجـــم شكـــوى
فتهنـــى لـــــوافـــد الاقبـــال
لا ولا كـــــان زائرا مـــــن سقـــام
إنما كـــان طـــائفـــا مـــن خيـــال
وعكـــة أقلعـــت وأنـــت صحيـــح
ويصـــح النسيـــم بـــالاعتـــلال
أو مـــا هـــــذه السماء سرار الـــــ
ـــبدر فيهـــا على طـــريـــق الكمال
نعمـــــة اللّـــــه لا يخص بها الخا
لـــق الا مـــن كـــان منـــه ببـــال
ولبـــاس مـــن المثـــوبـــة والغفـــــ
ـــران ألبســـت صـــافي الأذيـــال
فهنيئـــا لـــك البقـــاء وإن كـــا
ن هنـــاء يخص فيـــه المعـــالي

والتقى والندى ومعربة الخيـ
ـل وبيض الظبى وسمر العوالي

والخلال التي إذا ما تحلت
صدرت منك عن كريم الخلال

إن وقتك النفوس ما تتوقى
فحقيق فدى الموالي الموالي

أو تحصنت في شعار من التقـ
ـوى فما زلت منه في سربال

فشفى اللّه من أجل دوائـ
ـيه صريح الدعاء والابتهال

ملكا أبدل المخافة بالامـ
ـن وأضحى يعدّ في الابدال

وهو تاج الملوك فالملك العا
طل حال به على كل حال

وإذا النيران غابا فنور الديـ
ـن شمس فجرته الاصال

قد أرت وجهك العلى ما يريها
وهي مرآة صالح الأعمال

وقضى اللّه أن نجمك في الأنجـ
ـم سام وأن جدّك عال

كل يوم هذا المحيا محيى
بالتهاني على يد الاقبال

فصل

في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار، وهـو من أمنـع القلاع وأحصنهـا على حجر عـال ، له طـريق منقـور في طرف الجبل، وقـد قطع الطريق في وسطه وجعل عليـه جسر من خشب، فـإذا قطع ذلـك الجسر تعـذر الصعود إليـه، وكـان لآل منقذ الكنـانيين يتوارثـونه من أيـام صالح بـن مرداس إلى أن انتهى الأمـر إلى الأمير أبى المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقـذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقـي به مدّة طويلة إلى أن مات بشيـزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجـاعا كـريما صوامـا قوامـا، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبـا سلامة مرشـد بن علي وهو والد أسـامة، فقال: واللّـه لا وليتها ولأخـرجـن من الـدنيـا كما دخلتها، وكـان عـالما بالقـرآن والأدب ، كثير الصلاح، فولاهـا أخاه أبا العساكر سلطـان بن علي، وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمـان، فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسـادوا منهـم: عز الدولة أبو الحسـن علي، ومؤيد الدولة أسـامة بن مرشـد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطـان ولد ذكر إلى أن كبر فجـاءه أولاد ، فحسـد أخاه على ذلـك، فكـان كلما رأى صغـر أولاد أخيه وسيـادتهم ساءه ذلك وخـافهم على أولاده، وسعـى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيـه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيـه شعراً يعـاتبه على أشياء بلغته عنـه، فأجابه بأبيـات جيدة في معناها، وكلهـم كان أديبا شاعراً فمنها:

ظلـــوم أبـــت في الظلـــم إلاّ تماديـــا
وفي الصـــدّ والهجـــران إلاّ تنـــاهيـــا
شكـــت هجـــرنـــا في ذاك والـــذنـــب ذنبهـــا
فيـــا عجبـــا مـــن ظـــالم جـــاء شـــاكيـــا

وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولاً في هواها وواشيا
ومال بهاتيه الجمال إلى القلا
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها
وإن هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا
وأين من الستين لفظ مفوف
إذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخي يرعى بني واسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وذماميا
ويجزيهم ما لم أكلفه فعله
لنفسي فقد أعددته من تراثيا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك مني جفوة وتنائيا
فأصبحت صفر الكف مما رجوته
كذا اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على أنني ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذي السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فإنني
أراك يميني والانام شماليا
تهن بها عذراء لو قرنت بها
نجوم سماء لم تعد دراريا

تحلــت بــدر مــن صفــاتــك زانها
كما زان منظــوم الــلآلي الغــوانيــا
وعــش بـانيــا للجــود مــا كــان واهنــا
مشيــداً مــن الاحســان مــا كــان واهيــا

قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد، بعض الستر فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الأيام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهم من شيزر، وكان أعظم الاسباب في إخراجهم ما حدثت به عن مؤيد الدولة أسامة ابن مرشد، قال: كنت من الشجاعة والاقدام على ما علمه الناس، فبينا أنا بشيزر، وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بدحلة بغار بها أسد ضاريا، فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أعلم أحداً من الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت من الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه، فلما رآني قصدني، ووثب فضربته بالسيف على رأسه فانفلق، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاه فرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والدتي وألقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال، فقالت : يابني تجهز للخروج من شيزر، فوالله لايمكنك عمك من المقام ولا أحداً من أخوتك وأنتم على هذه الحال من الاقدام والجرأة ، فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده وألزمنا به إلزاما لامهلة فيه، فتفرّقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الدين وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه من أن تسلم شيزر إلى الفرنج، وبقي في نفسه، وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج، فاشتدّ ما في نفسه، وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن، فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده وعمرها وأسوارها وأعادها كأن لم تخرب، وكذلك أيضا فعل

بمدينة حماه وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلت: وسيأتي ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين، وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أنر أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أوّلها:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا أطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدّهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القسم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا القلت هم
لهم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدّلوا بي ولا ابغي بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا
بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

هلاّ انفت حياء أو محافظة
من فعل ما انكرته العرب والعجم
اسلمتنا وسيوف الهند مغمدة
ولم يروّ سنان السمهري دم
وكنت أحسب من والاك في حرم
لا يعتريه به شيب ولا هرم
وما طُمان بأولى من أسامة بالـ
ـوفاء لكن جرى بالكائن القلم
هبنا جنينا ذنوباً لا يكفرها
عذر فما إذا جنى الأطفال والحرم
القيتهم في رضى الأفرنج متبعا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم
جرّبهم مثل تجريبي لتخبرهم
فللرجال إذا ما جربوا قيم(٨٢)

وهي طويلة، وطُمان المذكور خادم تركي كان لأتابك ملك الأمراء زنكي بن أق سنقر، هرب من خدمته إلى دمشق فطلبه ولج فيه، فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وحماه، فلما لج فيه سيره إلى العرب وقام له بما يحتاج إلى أن ردّه لخدمته بدمشق، وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها مع عباس كما سبق ذكره، وأسر الفرنج أخاه نجم الدولة محمد بن مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانة في فكاكه، فلم يفعل ، قال: وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه اللّه فوهبه فارساً من مقدمي الداوية يقال له المشطوب، قد بذل الافرنج فيه عشرة آلاف دينار فاستخلص به أخاه من الأسر، وبلغ أسامة أن القاضي كمال الدين بن الشهزوري أنشد نور الدين:

ملك بني منقذ تولى
وكان فوق السماك سمكه

فـــاعتبروا وانظـــروا وقـــولـــوا
سبحـــان مـــن لا يـــزول ملكـــه

والمعروف ملك بني برمك فغيره المنشد لما تمثل به في غرضه فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكـــل ملـــك إلى زوال
لا يعتري ذا اليقين شكـــه
إن لم يـــزل بـــانتقـــال حـــال
أزال ذا الملـــك عنـــه هلكـــه
واللّـــه رب العبـــاد بـــاق
وهـــالـــك نـــده وشركـــه
فقـــل لمن يظلـــم البرايـــا
غـــرك امهـــالـــه وتـــركـــه
تنســـى ذنـــوبـــا عليـــك تحصـــى
يحصرهـــا نقـــده وحكمـــه
كـــم نـــاســـك نسكـــه ريـــاء
أو بقـــه في المعـــاد نسكـــه
فـــاحـــذر فما يختفـــي عليـــه
مـــن عنـــده صـــدقـــه وافكـــه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:

مـــع الثمانين عـــاث الضعـــف في جلـــدي
وســـاءني ضعـــف رجلي واضطـــراب يـــدي
إذا كتبـــت فخطـــي خـــط مضطـــرب
كخـــط مـــرتعـــش الكفين مـــرتعـــد
فـــاعجـــب لضعـــف يـــدي عـــن حملهـــا قلما
مـــن بعـــد حطـــم القنـــا في لبـــة الأســـد
وإن مشيـــت وفي كفـــي العصـــا ثقلـــت
رجلي كـــأني أخـــوض الـــوحـــل في الجلـــد

فقـــل لمن يتمنـــى طـــول مـــدتـــه
هـــذي عـــواقـــب طـــول العمـــر والمدد(٨٣)

فصل

في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصرت الأخبار بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضم إليه من عسكر الموصل وغيره بحيث قتل العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرقين مفلولين خاسرين بعد المضايقة والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السلطان غياث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، عقيب خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه، وكان يحب العدل والانصاف للرعايا وحسن السيرة ، جميل الفعل، وقد علت سنة وطال عمره، وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السنة إلى نور الدين بالتشوق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما منّ الله عليه به من خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي بلي به في أيدي الأعداء الكفرة من ملوك التركمان، ، بحيلة دبرها وسياسة أحكمها وقررها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفيها في شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص الدين أبي البركات عبد القاهر بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتبا بليغا حسن البلاغة نظما ونثرا مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء.

قال: وفي رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بأن واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته، وكان فيه إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لايغالب ولايدافع.

قال: وفيها في أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح الدين، وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة، وصواب الرأي، ولما علت سنة ضعف عن ركوب الخيل وألجأته الضرورة إلى الحمل في المحفة لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية، والإسراع في جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلما في كتابته أبو الحياة محمد ابن أبي القاسم بن عمر السلمي،ووعظ في جامع دمشق عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه، وحدة خاطره، وصفاء حسه.

قال ابن الأثير: وفيها في ذي الحجة توفي الأمير عز الدين أبى بكر الدبيسي، صاحب جزيرة ابن عمر، وكان من أكابر الأمراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلا حازما ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل أخو نور الدين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم اللّه تعالى بمضايقتهم لحصن حارم، ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف، وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العساكر الاسلامية، والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، وللّه المشيئة التي لاتدافع، والأقضية التي لاتمانع.

قال: وفي صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق ، واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والاقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والاخراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر، وقصدوا داريا للنزول عليها في انسلاخ صفر، واحراق منازلها وجوامعها والتناهي في إخرابها ، وظهر إليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والاسراع إلى لقائهم وكفهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكفار، خذلهم اللّه تعالى كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الاقليم، ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول سالماً في نفسه وجملته، ولقي بأحسن زي وترتيب وتجمل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا في شكر اللّه تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأوّل ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر اللّه تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسراً

بحيث لم يفلت منهم إلاّ اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لايكاد يحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة، يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما منّ اللّه تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها، وكان كثيرا ما يكاتبه طالباً منه إعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها وأول هذه القصيدة:

ألاهكذا في اللّه تمضي العزائم
وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها
ويوطى حماها والأنوف رواغم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما
مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
مفاوز وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى
عزيمته جهد الظما والسمائم
يهجر والعصفور في قعر وكره
ويسري إلى الاعداء والليل نائم

يبـــاري خيـــولا مـــا تـــزال كـــأنها
إذا مـــا هـــي انقضـــت نســـور قشـــاعـــم
يسير بها ضرغـــام في كـــل مـــارق
ومـــا يصحـــب الضرغـــام إلاّ الضراغـــم
ورفقتـــه عين الـــزمـــان وحـــاتـــم
ويحيـــى وإن لاقـــى المنيـــة حـــاتـــم
وواجههـــم جمع الفـــرنـــج بجملـــة
تهون على الشجعـــان فيهـــا الهزائم
فلقـــوهـــم زرق الاسنـــة وانطـــووا
عليهـــم فلـــم يـــرجـــع مـــن الكفـــر نـــاجـــم
ومـــا زالـــت الحرب العـــوان أشـــدّهـــا
إذا مـــا تـــلاقـــى العسكـــر المتضـــاجـــم
يشبههـــم مـــن لاح جمعهـــم لـــه
بلجـــة بحـــر مـــوجهـــا متـــلاطـــم
وعـــادوا إلى ســـل السيـــوف فقطعـــت
رؤوس وحـــزت للفـــرنـــج غـــلاصـــم
فلـــم ينـــج منهـــم يـــوم ذاك مخبر
ولا قيـــل هـــذا وحـــده اليـــوم ســـالم
نقتلهـــم بـــالـــرأي طـــورا وتـــارة
تـــدوسهـــم منـــا المذاكـــي الصـــلادم
فقـــولـــوا النـــور الـــديـــن لافـــل حـــدّه
ولا حكمـــت فيـــه الليـــالي الغـــواشـــم
تجهـــز إلى أرض العـــدوّ ولا تهن
وتظهـــر فتـــورا ان مضـــت منـــك حـــازم
فما مثلهـــا تبـــدي احتفـــا الأبـــه ولا
يعـــض عليهـــا للملـــوك الابـــاهـــم
فعنـــدك مـــن ألطـــاف ربـــك مـــا بـــه
علمنـــا يقينـــا أنـــه بـــك راحـــم

أعــادك حيــا بعــد أن زعــم الــورى
بــأنــك قــد لاقيت مــا اللّــه حـاتــم
بــوقــت أصــاب الارض مــا قــد أصــابها
وحلــت بها تلــك الــدواهــي العظــائم
وخيــم جيــش الكفــر في أرض شيــزر
فسيقــت سبــايــا واستحلــت محارم
وقــد كــان تــاريــخ الشــام وهلكــه
ومــن يحتــويــه أنــه لــك عــادم
فقــم واشكــر اللّــه الكــريــم بنهضــه
إليهــم فشكــر اللّــه للخلــق لازم
فنحــن على مــا قــد عهــدت نــروعهــم
ونحلــف جهــدا أننــا لا نســالم
وغــاراتنــا ليســت تفتر عنهــم
وليــس ينجــي القــوم منــا الهزائم
فــاسطــولنــا أضعــاف مــا كــان ســائرا
إليهــم فــلا حصــن لهم منــه عــاصــم
ونــرجــو بــأن يجتــاح بــاقيهــم بــه
ونحوي الأســارى منهــم والغنــائم

وكتب إليه أيضا:

يــا سيــدا يسمــو بهمــ
ـــته إلى الــرتــب العليــه
فينــال منهــا حين يحر
م غيره أوفى مــزيــه
أنــت الصــديــق وإن بعــد
ت وصــاحــب الشيــم الــرضيــه
نبيــك إن جيــوشنــا
فعلــت فعــال الجاهليــة

ســــــارت إلى الأعـــــــداء مــــن
أبطـــــالها مــــائتـــا سريـــــه
فتغير هــــــــــذي بكــــــــرة
وتعـــــاود الأخـــــرى عشيــــــه
فـــــالــــويــــل منهــــا اللفــــرنــــ
ـــج فقــــد لقــــوا جهــــد البليـــة
جــــــاءت رؤوسهــــــم تلـــــو
ح على رؤوس السمهــــــريـــــــة
وقـــــــلائع قـــــــد قسمـــــــت
بين الجنـــــود على الســـــويــــــه
وخـــــــلائق كثرت مـــــن الـــــ
ـــلأسرى تقــــاد إلى المنيــــــة
فــــانهض فقــــد أنبيـــت مجـ
ـــد الـــديـــن بـــالحال الجليــــه
وألم بنــــور الــــديــــن واعــــ
ـــلمه بهاتيـــــك القضيـــــة
فهــــو الــــذي مــــازال تخـ
ـــلص منــــه أفعــــالا ونيــــه
ويبيــــد جمع الكفـــــر بـــــالـــــ
ـــبيض الــــرقـــــاق المشرفيــــه
فعســــــاه ينهـــــض نهضــــة
يفنــــي بها تلـــــك البقيــــة
إمــــــا النصرة دينـــــــه
أو ملكـــــــه أو للحميــــــــه

وكتب إليه أيضا يقول:

أيها المنقـــــذي أنـــــت على البعـــــ
ـــد صـــديـــق لنـــا ونعـــم الصـــديـــق

ليس فيما تأتيه من بر أفعا
لك للطالب الحقوق عقوق

فلهذا نرى مواصلة الكتـ
ـب تباعا إليك مما يليق

ونناجيك بالمهمات إذ أنـ
ـت بالقائها إليك خليق

وأهم المهم أمر جهاد الـ
ـكفر فاسمع فعندنا التحقيق

واصلتهم منا السرايا فأشجا
هم بكور منا لهم وطروق

وأباحت ديارهم فأباد الـ
ـقوم قتل ملازم وحريق

وانتظرنا بزحفنا برء نور الديـ
ـن علما منا بأن سيفيق

وهو الآن في أمان من اللّـ
ـه وما يعتريه أمر يعوق

ما لهذا المهم مثلك مجد الديـ
ـن فانهض به فأنت حقيق

قل له لا عداه رأي ولا زا
ل لديه لكل خير طريق

أنت في حسم داء طاغية الكـ
ـفار ذاك المرجوّ والمرموق

فاغتنم بالجهاد أجرك كي يلـ
ـقى رفيقاً له ونعم الرفيق

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يا أمير الجيوش ما زال للاسـ
ـلام والدين منك ركن وثيق

أسمعت دعوة الجهاد فلبا
ها مليك بالمكرمات خليق

ملـــك عـــادل أنـــار بـــه الـــديـــ
ـــن فعـــم الاســـلام منـــه الشروق
مـــالـــه عـــن جهـــاده الكفـــر والعـــد
ل وفعـــل الخيرات شغـــل يعـــوق
هـــو مثـــل الحســـام صـــدر صقيـــل
لين مســـــه وحـــــد زليـــــق
ذو أنـــــاة يخالها الغـــــراهما
لا وفيهـــا حتـــف الأعـــادي المحيـــق
فـــاسلما لـــلاســـلام كهفين مـــاطـــ
ـــرز ثـــوب الظـــلام بـــرق خفـــوق (٨٤)

وكتب إليه أيضا:
قـــل لابـــن منقـــذ الـــذي
قـــد حـــاز في الفضـــل الكمالا
فلـــذاك قـــد أضحـــى الأنـــا
م على مكـــارمـــه عيـــالا
كـــم قـــد بعثنـــا نحـــوك الــ
ــــلأشعار مسرعـــة عجـــالا
وصـــــددت عنهـــا حين را
مـــت مـــن محاسنـــك الـــوصـــالا
هـــلا بـــذلـــت لنـــا مقـــا
لا حين لم تبـــــذل فعـــــالا
مـــع أننـــا نـــوليـــك صبـــ
ـــــــرا في المودّة واحتمالا
ونبثـــــك الأخبـــــار إن
أضحـــت قصـــارا أو طـــوالا
ســـارت سرايـــا نـــا القصـــ
ـــد الشـــام تعتســـف الـــرمـــالا
تـــزجـــي إلى الأعـــداء جـــر
د الخيـــل اتبـــاعـــاتـــوالا

تمضي خفـــــافــــا للمغـــــا
ر بها وتـــــأتينـــــا ثقـــــالا
حتـــــى لقـــــد رام الأعـــــا
دي مـــــن ديـــــارهـــــم ارتحالا
وعلى الـــــــــــوعيرة معشر
لم يعهـــــدوا فيهـــــا القتـــــالا
لما نـــــأت عمـــــن يحـ
ـــــف بها يمينـــــا أو شمالا
نهضـــــت إليهـــــا خيلنـــــا
مـــــن مصر تحتمـــــل الـــــرجـــــالا
والبيـــــض لامعـــــة وبيـــــ
ـــــض الهنـــــد والأســـــل النهـــــالا
فغـــــدت كـــــأن لم يعهـــــدوا
في أرضهـــــا حيـــــا حـــــلالا
هـــــذا وفي تـــــل العجـــــو
ل مـــــلأن بـــــالقتلى التـــــلالا
إذ مـــــر مـــــري ليـــــس يلـــــ
ـــــوي نحـــــو رفقتـــــه اشتغـــــالا
واستـــــاق عسكـــــرنـــــا لـــــه
أهـــــلا يحبهـــــم ومـــــالا
وسريـــــة ابـــــن فـــــرنـــــج الطـــــا
ئي طـــــال بهم وصـــــالا
ســـــارت إلى أرض الخليـــــ
ـــــل فلـــــم تـــــدع فيهـــــا خـــــلالا
فلـــــو أن نـــــور الـــــديـــــن يجـ
ـــــعل فعلنـــــا فيهـــــم مثـــــالا
ويسير الأجنـــــادجهـــــ
ـــــراً كـــــي ينـــــازلهم نـــــزالا
ووفى لنـــــا ولأهـــــل دولـــــ
ـــــته بما قـــــد كـــــان قـــــالا

لــــــرأيـــــت لـــــلافـــــرنـــــج طـــــ
ـــــرأفي معـــــاقلهـــــا اعتقـــــالا
وتجهـــــزوا للسير نحـــــ
ـــــو الغـــــرب أو قصـــــدوا الشمالا
وإذا أبـــــى الاطـــــرا
حـــــاً للنصيحـــــة واعتـــــزالا
عـــــدنـــــا بتسليـــــم الأمـــــو
ر لحكـــــم خـــــالقنـــــا تعـــــالى

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يـــــا أشرف الـــــوزراء أخـــــ
ـــــلاقا وأكـــــرمهـــــم فعـــــالا
نبهـــــت عبـــــدا طـــــالما
نبهتـــــه قـــــدرا وحـــــالا
وعتبتـــــه فـــــانلتـــــه
فخـــــرا ومجدا الـــــن ينـــــالا
لكـــــن ذاك العتـــــب يشـــــ
ـــــعل في جـــــوانبـــــه اشتعـــــالا
أسفـــــا لجد حـــــال عنـــــ
ـــــه إلى مســـــاءتـــــه ومـــــالا
أمـــــا السرايـــــا حين تـــــر
جـــــع بعـــــد خفتهـــــا ثقـــــالا
فكـــــذاك عـــــادوفـــــود بـــــا
بـــــك مثقلين ثنـــــا ومـــــالا
ومسيرهـــــا في كـــــل أر
ض تبتغـــــي فيهـــــا المجـــــالا
فكـــــذاك فضلـــــك مثـــــل عـــــد
لـــــك في الـــــدنـــــا ســـــارا وجـــــالا
فـــــاسلـــــم لنـــــا حتـــــى نـــــرى
لـــــك في بنـــــي الـــــدنيـــــا مثـــــالا

واشدد يديك بودنو
رالدين والق به الرجالا
فهو المحامي عن بلا
دالشام جمعا أن يذالا
ومبيد املاك الفرنـ
ـج وجمعهم حالا فحالا
ملك يتيه الدهر والدنـ
ـيا بدولته اختيالا
جمع الخلال الصالحا
ت فلم يدع منها خلالا
فإذا بدا للناظريـ
ـن رأت عيونهم الكمالا
فبقيتما للمسلمـ
ـين حما وللدنيا جمالا (٨٥)

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدّم ذكرها في الزلازل:

ولعمري إن المناصح في الديـ
ـن على اللّه أجره محسوب
وجهاد العدوّ بالفعل والقو
ل على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية في الأمـ
ـرين مذ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك في الطعـ
ـن ولا في الضراب يوما ضريب
وإذا ما قرضت فالشاعر المفـ
ـلق فيما يقوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا ينـ
ـكر إن التدبير منك مصيب

لــــك رأي بقظـــــان إن ضعـــــف الــــرأ
ي على حــــاملي الصليـــــب صليـــــب
فــــانهض الآن مسرعـــــا فبــــأمثـــا
لــــك مــــازال يــــدرك المطلـــــوب
ألــــق منــــا رســالـــة عنـــد نــور الـــديـــ
ـــــن مــــا في القـــائهــــا مــــا يــــريـــب
قـــــل لـــــه دام ملكـــــه وعليـــــه
مـــن لبــــاس الاقبــــال بــــرد قشيــــب
أيها العـــــادل الـــــذي هــــو للـــديـــ
ـــــن شبـــــاب وللحــــروب شبيـــــب
والــــذي لم يـــزل قـــديما عــــن الاســـ
ــــلام بـــــالعـــــزم منـــــه تجلى الكـــــروب
وغـــــدا منـــــه للفـــــرنـــــج إذا لا
قـــــوه يـــوم مـــن الــــزمــــان عصيـــب
إن يـــرم نـــــزف حقـــدهــــم فــــلا شطــــا
ن قنـــــاه في كـــــل قلـــــب قليـــــب
غيرنــــا مـــــن يقــــول مــــاليـــس يمضيـــ
ـــــه بفعـــــل وغيرك المكـــــذوب
قــــد كتبنـــــا إليـــك مــــا وضـــح الآ
ن بها ذا عـــــن الكتـــــاب تجيـــــب
قصـــــدنـــــا أن يكـــــون منـــــا ومنكـــم
أجـــــل في مسيرنـــــا مضروب
فلـــديـنـــا مـــن العســـاكـــر مـــاضـــا
ق بـــأدنـــاهــــم الفضـــاء الـــرحيـــب
وعلينـــــا أن يستهـــــل على الشـــــا
م مكــــان الغيــــوث مــــال صبيـــب
أو تــــراهــــا مثــــل العـــروس ثــــراهــــا
كلـــــه مـــــن دم العـــــدا مخضــــوب

لطنين السيوف في فلق الصبـ
ـح على هام أهلها تطريب
ولجمع الحشود من كل حصن
سلب مهمل لهم ونهوب
ويحول الاله ذاك ومن غا
لب ربي فانه مغلوب

وكتب إليه أيضا:

أيها السائر المجدّ إلى الشا
م تباري ركابه والخيول
خذ على بلدة بها دار مجد الـ
ـدين لا ريع ربعها المأهول
وتعرف أخباره واقرة منا
سلاما فيه العتاب يجول
قل له أنت نعم ذخر الصديق الـ
ـيوم لكنك الصديق الملول
ما ظننا بأن حالك في القر
ب ولا البعد بالملال يحول
لا كتاب ولا جواب ولا قو
ل به لليقين منه حصول
غير أنا نواصل الكتب إذ قصـ
ـر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذي فتح اللّـ
ـه علينا فالفضل منه جميل
جاءنا بعد ما ذكرناه في كتـ
ـب أتاكم بهن منا رسول
أن بعض الاسطول نال من الأفـ
ـرنج ما لا يناله التأميل

سـار في قلـة ومـازال بـاللّـ
ـه وصـدق النيـات تنمـي القليـل
ويقـايـا الاسطـول ليـس لـه بعـ
ـد إلى جـانـب الشـآم وصـول
فحـوى مـن عكـا وانطـرسـوس
عـدّة لم يحط بها التحصيـل
جمع ديـويـة بهم كـانـت الافـ
ـرنج تسطـو على الـورى وتصـول
قيـد في وسطهـم مقـدّمهـم يهـ
ـدى إلينـا وجيـده مغلـول
بعـد مثـوى جماعـة هلكـوا بـالـ
ـسيف منهـا الغـريـق والمفلـول
هـذه نعمـة الالـه وتعـديـ
ـد أيـادي الالـه شيء يطـول
أبلغـن قـولنـا إلى الملـك العـا
دل فهـو المرجـوّ والمأمـول
قـل لـه كـم تماطـل الـديـن في الكفـ
ـار فـاحـذر أن يغضـب الممطـول
سر إلى القـدس واحتسـب ذاك في اللّـ
ـه فبـالسير منـك يشفـى الغليـل
وإذا مـا أبطـا مسيرك فـاللّـ
ـه إذا حسبنـا ونعـم الـوكيـل

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـا أمير الجيـوش يـا أعـدل الحـ
ـكام في فعلـه وفيما يقـول
أنـت حليـت بـالمكـارم أهـل الـ
ـعصر حتـى تعـرف المجهـول

وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ
ـن فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد في النيابة والتحـ
ـريض وهو المفوّه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا
دت له الأرض والجبال تميل
وإذا عاقت المقادير فاللّـ
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل (٨٦)

وكتب الصالح إليه جوابا قصيدته الطائية التي أوّلها:
هي البدر لكن الثريا لها قرط
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ثم قال بعد وصف السيوف:
ذخرنا سطاها للفرنج لأنها
بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم
بحضرتنا ما ينبب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم
لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما
أثيثا فأسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا وإنما
يثبته في سرجه الشد والربط
فقولوا النور الدين ليس لجائف الـ
ـجراحات إلا الكي في الطب والبط (٨٧)
وحسم أصول الداء أولى بعاقل
لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة
بها أبدا يحظى سواهم ولم يحظوا

تــــأمــــل فكــــم شرط شرطــــت عليهــــم
قــــديما وكــــم غــــدر بــــه نقــــض الشرط
وشمــــر فــــانــــا قــــداعنــــا بكــــل مــــا
ســــألــت وجهــزنــا الجيــوش ولــن يبطــو[٨٨]

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبـو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمـان الفائز، وأوّل زمـان العاضـد، ملك مصر، واستـولى على أمر صـاحب القصر، ونفـق في زمانه النظـم والنثر، وقـرب الفضلاء، واتخذهم جلسـاء، ورحل إليـه ذوو الرجـاء، وأفاض على الـداني والقاصي العطاء، وله قصـائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشـام يذكر فيها قيـامه بنصر الاسلام، ومـا يصدق أحـد أن ذلك شعـره لجودته، وإحكـام معاني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن المهـذب ابن الزبير كان ينظم له وأن الجليس بـن الحباب كان يعينـه، وله ديـوان كبير وإحسان كثير، ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:

انظــــــر إلى ذي الــــــدار كــــــم
قــــد حــــل ســــاحتهــــا وزيــــر
ولكــــــم تبختر آمنــــــا
وســــــط الصفــــــوف بها أمير
ذهبــــوا فــــلا واللّــــه مــــا
يبقــــــــى الصغير ولا الكبير
ولمثــــل مــــا صــــاروا إليــــ
ــــه مــــن الفنــــاء غــــداً نصير (٨٩)

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيـع الأوّل من ناحية حلب بحـدوث زلزلـة هائلـة روّعت أهلهـا وأزعجتهم، وزعـزعت مـواضع مـن

مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى، وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدّم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأوّل جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر، كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من أثار قدرة اللّه تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة ، وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتا في مكانه في عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام، ونجى اللّه وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة اللّه تعالى،

وشدّة بـأسه وثبـات جاشه ومشهـور شجاعتـه، وعاد إلى مخيمـه سالماً في جماعته، ولام مـن كان السبب في انـدفاعـه بين يدى الفرنـج، وتفرق جمع الفـرنـج إلى أعمالهم، وراسـل ملكهـم لنـور الـديـن في طلـب الصلـح والمهادنة، وحـرص على ذلك، وتردّدت بين الفريقين مـراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالما.

قلت: وذكـر أبو الفتح بحـر بن أبـى الحسن بن بحـر الاشتري المعيد كان بالمدرسـة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور الديـن وقد تقدّم شيء منها رحمهما اللّه قـال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهـاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فقضـى اللّـه بـانهزام عسكـر المسلمين وبقـي الملـك العادل مع شرذمـة قليلة وطائفة يسيرة واقفـا على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار، فـوقف الملـك العادل بحـذائهم مـولياً وجهـه إلى قبلة الـدعاء، حـاضراً بجميع قلبه مناجيـاً ربه يقول: يارب العباد، أنا العبـد الضعيف ملكتني هـذه الولايـة، واعطيتني هـذه النيابـة، وعمرت بـلادك ونصحت عبـادك وأمـرتهم بما أمرتنـي به، ونهيتهـم عما نهيتني عنـه، فرفعـت المنكرات مـن بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهـم، وقد إنهزم المسلمون وأنا لاأقدر على دفع هـؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيـك محمد صلى اللّه عليـه وسلم، ولا أملـك إلاّ نفسي هـذه وقـد سلمتهـا إليهم ذابـا عـن دينـك ونـاصراً لنبيـك، فاستجـاب الله دعـاءه وأوقع في قلـوبهم الرعـب وأرسل عليهـم الخذلان، فوقفوا مواضعهم ومـا جسروا على الاقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكـر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكـر المسلين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فـوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعـالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كـان ينفلت واحـد من المسلمين، فـوقف عسكـر الكفار وبـرز اثنان

منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج إليهما فخرج وجال بينهما ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع إلى قريب صف الكفار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال: كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها، يعني في ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل، فلما وصل الكفار، وقربوا منا شمت البغلة رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه وباسوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع، وفي هذا الاقليم فإن جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلف هذ الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع، فلما عرف الكفار ذلك وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة ، قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم خلقا كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان، هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القدس، ودخل إلى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبـو يعلى: وفي رجب تجمـع قوم من السفهـاء العوام وعـزموا على التحريـض لنور الدين على إعـادة ما كان أبطـل وسامح به أهـل دمشق من رسـوم دار البطيخ، وعرصـة البقل والأنهار، وصانهم مـن اعنات شرار الضمان، وحـوالة الاجنـاد، وكرروا لسخـف عقولهم الخطـاب، وضمنـوا القيام بعشرة آلاف دينـار بيض، وكتبـوا بذلك حتـى أجيبوا إلى مـا راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك مـن المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتـدوا إلى صواب ولا نجـح لهم قصد في خطـاب ولا جواب، وعسفـوا الناس بجهلهم بحيـث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نـور الدين، فصرف همه إلى النظر في هذا الأمـر، فنتجت له السعادة وإيثـار العدل في الرعيـة لاعادة على مـا كان عليـه،فأمر في عـاشر رمضان بـاعادة الـرسوم المعتادة إلى مـا كانت عليـه من إمـاتتها، وتعفية أثـر ضمانها، وأضاف إلى ذلك تبرعاً مـن نفسه إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبـن ، ورسم بكتب منشور يقـرأ على كافة الناس بـإبطال هذه الـرسوم جميعها وتعفية ذكـرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه والنشرلمحاسنة .

قـال: وفي الحادي والعشريـن مـن رمضـان وصـل الحاجـب محمـود المسترشدي مـن ناحية مصر بجواب مـا تحمله من المراسلات مـن الملك الصالح متولي أمـرها، ومعه رسول من مقدمي أمـرائها ، ومعه المال المنفذ برسـم الخزانة النوريـة، وأنواع الثياب المصرية، والجيـاد العربية، وكـانت فرقـة من الفرنج خـذلهم الله قد ضربـوا لهم في المعابر ، فأظفـر الله بهم فلم يفلـت منهم إلاّ القليل النزر، ثـم تلا ذلك وورود الخبر مـن العسكر المصري بظفرة بجملـة وافرة من الفرنـج تناهز أربعمائة فارس وتـزيد على ذلك في نـاحية العريـش من الكفـار بحيث استولى عليهـم القتل والأسر والسلب.

قال: وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة ببروز ملك الروم منها في العدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الاسلامية، ووصوله إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، وبث سراياه للأغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن أفتتح من أعمال لاوين ملك الأرمن عدّة من حصونه ومعاقله، ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر اللّه ، ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة، فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملك شاه قصد همذان ودخلها في عسكر كبير ونهب، وأخذ نساء الأمراء الذين معه واولادهم، فاختلط العسكر وتفرقوا، وعاد محمد نحو همذان وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوّل المحدّث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

قال أبو يعلى: في أوّل يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها، وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوّته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفا عليه، وإشفاقا من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج، ولما أحس من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمت على وصية إليكم بما وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لاأرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له وانفذ رسله إلى أخيه باعلامه صورة الحال، ليكون لها مستعدا، ثم تفضل اللّه تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسلام عليه، وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها، فظفر المقيم في منبج برجل حمال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها ، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حجابه إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والاسراع إلى دمشق لتسلم إليه، فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين، وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة

الدين الفراة مجداً إلى دمشق فانهض أسـد الدين في العسكر المنصور لردّه ومنعه مـن الوصـول، فاتصـل به خبر عوده إلى مقـرّه عند معـرفته بعـافية أخيـه، فعاد أسـد الديـن إلى دمشق، ووصلـت رسل الملـك العادل مـن ناحية الموصل بجـواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفـارقوه وقد برز في عسكره متـوجها إلى نـاحية دمشـق، فلما فصل عـن الموصل اتصـل به خبر عافيته، فأقـام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الديـن أبا جعفر محمد ابن علي لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يـوم السبت الثامن من صفر في أحسن زي وأبهى تجمل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قـال: وهذ الـوزير قـد ألهمه اللّـه تعـالى من جميـل الأفعال وحميـد الخلال وكـرم النفـس، وإنفـاق أمـوالـه في أبـواب البر والصـدقـات والصـلات، ومستحسن الآثار في مـدينة الـرسول عليـه السلام، ومكـة ذات الحرم والبيت المعظـم شرفه الله تعـالى، ما قـد شاع ذكره وتضـاعف عليه حمده وشكره، واجتمـع مع نور الدين، وجرى بينهما مـن المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعـد الاكرام له، وتوفيته حقه من الاحترام، وأصحبه بـرسم قطـب الديـن أخيه وخـواصه مـن الملاطفة مـا اقتضته الحال الحاضرة، وتوجه معه الأمير أسد الدين.

وقـال ابن أبي طـي: لما وصـل الوزيـر جمال الـديـن إلى حلب تلقـاه موكـب نور الـدين وفيـه وجوه الـدولة وكبراء المدينـة، وأنزل في دار ابـن الصوفي وأكـرم غايـة الإكرام، وأعيـد إلى صاحبه شـاكراً عـن نور الـدين وسير معه الأمير أسـد الدين شيركـوه رسولا إلى قطب الـدين بالشكـر له والثناء عليـه، وأنفذت معـه هدايـا سنية، فسـار وعاد إلى حلـب مكرمـا فوجد نور الـدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغه مـن إفساد الفرنج في بلد حـوران ، فسار في صحـابته، ووصل نـور الديـن إلى دمشق فـأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسد الدين في قطعة من العسكر لـلاغارة على بلـد صيـدا ، فسـار وسار معـه أخـوه نجـم الديـن أيـوب

وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلاّ وهو قد عـاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهـذا هو ما تقـدم ذكره بعـد المرضة الأولى، وكأن ابـن أبي طي جعل المرضتين واحـدة بحلب، وأبو يعلى ذكـر أن الأولى بحلب والثـانية بدمشق، وهو أصح، واللّه أعلم

فصل

قال أبو يعلى: وكان قـد وصل من ملك الروم رسول مـن معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثـواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعـال ، وقوبل بمثـل ذلـك، وحكي عـن ملـك الفرنـج خـذله اللّـه أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرّرت، والمهـادنة انعقدت، واللّه يردِ بأس كل واحد منهما إلى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قـال ووردت أخبار مـن ناحـة ملك الـروم بـاعتزامـه على أنطاكيـة ، وقصد المعـاقل الاسلاميـة، فبادر نور الـدين بالتـوجه إلى البلاد الشـامية لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الـروم والأفرنج خذلهم اللّه تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماه وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأوّل وافت زلزلة هـائلة ما جت أربع موجات ، وأيقظت النيام، وأزعجت اليقظى، وخـاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفـة شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار صيفيهـا وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار ، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدّدت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرّر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدّمي الأفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم، وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه،من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية، ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائدا إلى بلاده مشكوراً محموداً، ولم يؤذ أحداً من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمانت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والأفرنج سماطاً عظيماً هائلا، تناهى فيه، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهودا في الحسن والتجمل، واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم ، فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في إثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم، ثم إنهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد إلى أربابه .

قال: وتقرّر الرأي النوري على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح، فرحل في عسكره أوّل جمادى الآخرة، فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها، وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في

أحوال أهلهـا، وسلمها لـلأمير زين الديـن على سبيل الإقطـاع ، وفوض إليه تدبير أمورها.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الاكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة ، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان ، جميل المحيا حسن البشر في اللقاء، وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلت: وله أوقاف على أبواب البرّ منها: المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدّد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك، وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، وهو المشهور بالتقدّم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام ، وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على أن القضاء، من بعض أدواته، واستقرّ أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده.

قلت: ولكمال الدين رحمه اللّه تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء

كل جمعة، وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدّة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه أخر كتابه، وفي هذه السنة توفي رحمه الله.

قال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله، فأقرّ ابن هبيرة على وزارته،

قال: وفيها حج زين الدين علي، وأحسن إلى الناس في طريق مكة ، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالّله ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا، فمدّ يده إلى كمرانه وأخرج ما شدّ به وسطه وقصر الجبة، فنظر المستنجد باللّه إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم.

قلت: وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفاء مصر، ووصل من الصالح بن رزيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه.

هناء عن نعمى قل عن قدرها الشكر
وصبراً لرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالـ
ـلإمامة فينا بعده العاضد الطهر
امام هدى للّه في نقل ذا إلى
كرامته وفي إقامة ذا سر

فعـــش أبـــدا واسلـــم لهم يـــا كفيلهـــم
تـــدافـــع عنهـــم كـــل حـــادثـــة تعـــرو (٩٠)

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام ، وخرج في تجمل عظيم وشارة رائعة واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة ، ويقال إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب، وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق ، وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما

وقال أيضا: وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال واحتاط على عمة العاضد.

قال. وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكن من الدولة تمكنا حسناً، ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السودان مالاً جزيلا حتى أوقعوا به الفعل، جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر، ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه،ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وعم رزء ابن رزيك، وملك

صرف الدهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منحوسة الجدّ، منكوسة الراية معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني وأنشر رميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها والتزم خصرها(٩١).

قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلمها إليّ:

انست بكم دهرا فلما ظعنتم اسـ
ـتقرت بقلبي وحشة للتفرق
وأعجب شيء أنني يوم بينكم
بقيت وقلبي بين جنبي ما بقي
أرى البعد ما بيني وبين أحبتي
كبعد المدى ما بين غرب ومشرق
ألا جدّدي يا نفس وجداً وحسرة
فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهر رمضان(٩٢).

قلت: ولعمارة اليمني ولغيره مدائح في الصالح ومراث جليلة، وقد أثنى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية، ولم يكن مجلس أنسه ينقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

قال: وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك ، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، يكرم جليسه ويبسط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفا قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة:

نحـن في غفلـة ونـوم وللمـو
ت عيـون يقظـانـة لا تنـام

قـد رحلنـا إلى الحمام سنينـا
ليـت شعـري متـى يكـون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الاسلام في دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر قصيدة أقول فيها:

أبـوك الـذي تسطـو الليـالي بحـدّه
وأنـت يمين إن سطـا وشمال

لـرتبتـه العظمـى وإن طـال عمـره
إليـك مصير واجـب ومـآل

تخالسـك اللحـظ المصـون ودونها
حجـاب شريـف لا انقضـى وحجـال

قال: فانتقل الملك بعد ثلاث إليه(٩٣)

قال: ومما رثيته به قولي:

أفي أهـل ذا النـادي عليـم أسـائلـه
فـإني لما بي ذاهـب اللـب ذاهلـه

سمعـت حـديثـا أحسـد الصم عنـده
ويـذهـل واعيـه ويخرس قـائلـه

فقـد رابنـي مـن شـاهـد الحال أنني
أرى الـدسـت منصـوبـا ومـا فيـه كـافلـه

وأنـي أرى فـوق الـوجـوه كـآبـة
تـدل على أن الـوجـوه ثـواكلـه

دعوني فما هذا بوقت بكائه
سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولم لا نبكيه وننـدب فقده
وأولادنا أيتامه وأرامله
فياليت شعري بعد حسن فعاله
وقد غاب عنا ما بنا الدهر فاعله
ايكرم مثوى ضيفكم وغريبكم
فيسكن أم تطوى ببين مراحله

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:

طمع المرء في الحياة غرور
وطويل الآمال فيها قصير

ومنها:

ولكم قدّر الفتى فأتته
نوب لم يحط بها التقدير

ومنها:

فض ختم الحياة عنك حمام
لا يراعي أذنا ولا يستشير
ما يخطى إلى جلالك اليوم إلا
قدر أمره علينا قدير
يا أمير الجيوش هل لك علم
أن حر الاسى علينا أمير
إنّ قبراً حللته لغني
إن دهرا فارقته لفقير
انطوى ذلك البساط وعهدي
وهو بالعلم والندى مغمور
لا تظن الأيام أنك ميت
لم يمت من ثناؤه منشور

إن مضى كافل فهذا كفيل
أو وزير يغب فهذا وزير
دولة صالحية خلفتها
دولة عادلية لا تجور
ما شكونا كسر النوائب حتى
قيل في الحال كسركم مجبور
نصر الناصر العُلى بالعوالي
ولنعم المولى ونعم النصير

قال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقرافة، قصيدة طويلة منها:

قد كنت أشرق من ثماد مدامعي
أسفا فكيف وقد طمى التيار
عم الورى يوم الخميس وخصني
خطب بأنف الدهر منه صغار
ما أوحش الدنيا غدية فارقت
قطبا رحى الدنيا عليه تدار
خربت ربوع المكرمات لواحد
عمرت به الاجداث وهي قفار
نعش الجدود العاثرات مشيع
عشيت برؤية نعشه الابصار
نعش يودّ بنات نعش لو غدت
ونظامها أسفا عليه نثار
شخص الأنام إليه تحت جنازة
خفضت لرفعة قدرها الاقدار
سار الامام أمامها فعلمت أن
قد شيعتها الخمسة الأبرار
ومشى الملوك بها حفاة بعدما
حفت ملائكة بها أطهار

فكــأنها تـــابــوت مـــوســـى أودعـــت
في جـــانبيـــــه سكينـــــة ووقـــــار
لكنـــــه مـــا ضـــم غير بقيـــة الاســـــ
ـــــلام وهـــو الصـــالـــح المختـــار
اقطنتــــــــــه دار الـــــــــوزارة ريثما
بنيـــــت لنقلتــــه الكـــــريمـــــة دار
وتغـــــايـــــر الهرمـــــان والحرمـــــان في
تـــابـــوتـــه وعلى الكـــريـــم يغـــار
أثـــــرت مصراً منـــــه بـــــالشرف الـــــذي
حســـدت قـــرافتهـــا لـــه الأمصـــار
وجعلتهـــا أمنـــــا بـــــه ومثـــابـــة
تـــرجـــو مثـــابـــة قصـــدهـــا الـــزوّار
قـــد قلـــت إن نقلـــوه نقلـــة ظـــاعـــن
نـــزحـــت بـــه دار وشـــط مـــزار
مـــا كـــان إلاّ السيـــف جـــدّد غمـــده
بســـواه وهـــو الصـــارم البتـــار
والبـــدر فـــارق بـــرجـــه متبـــدّلا
بـــرجـــابـــه تتشعشـــع الأنـــوار
والغيـــث روّى بلـــدة ثـــم انتـــحى
أخـــرى فنـــوء سحـــابـــه مـــدرار
يـــا مسبـــل الأستار دون جـــلالـــه
مـــاذا الـــذي رفعـــت لـــه الاستـــار
مـــالي أرى الـــزوّار بعـــد مهـــابـــة
فـــــوضـــــى ولا أذن ولا استئمار
غضـــب الالـــه على رجـــال أقـــدمـــوا
جهـــلاً عليـــك وآخـــريـــن أشـــاروا
لا تعجبـــا لقـــذار نـــاقـــة صـــالـــح
فلكـــل دهـــر نـــاقـــة وقـــذار

واخجلتا للبيض كيف تطاولت
سفهاً بأيدي السود وهي قصار
واحسرتا كيف انفردت لأعبد
وعبيدك السادات والأحرار
رصدوك في ضيق المجال بحيث لا الـ
ـخطي متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها
لو كنت متروكاً وما تختار
ولقد ثبت ثبات مقتدر على
خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بك هيبة
لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضي
أبداً وحل بقاتليك بوار
يا ليت عينك شاهدت أحوالهم
من بعدها ورأت إلى ما صاروا
وقع القصاص بهم وليسوا مقنعا
يرضي وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما
نام العدو ولا ينام الثار
وتوهموا أن الفرار مطية
تنجي وأين من القضاء فرار
طاروا فمد أبو الشجاع لصيدهم
شرك الردى فكأنهم ما طاروا
فتهن بالأجر الجزيل وميتة
درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصي بها وحمزة عمه
وابن البتول وجعفر الطيار

نلـــــت السعـــــادة والشهـــــادة والعلى
حيـــــا وميتـــــا إن ذا الفخـــــار
ولقــــد أقـــر العين بعـــــدك أروع
لــــولاه لم يـــــك للعلى استقـــرار
النــــاصر الهادي الـــذي حسنـــاتـــه
عــــن سيئـــات زمـــاننــــا أعـــذار
ولما استقــــام لحفـــظ أمـــــة أحمد
عمـــرت بـــه الأوطـــان والأوطـــار

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر، وسار إلى قلعة حارم وجصرها، وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من الفرسان الفرنج وشجعانهم ، واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيرين وكان قد دخله العام الماضي سائرا إلى الحج، فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة
علي وفضل لايحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت اللّه ذي الركن والحجر
فأدّيت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا ولا
تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار من
صرعته منا بالغرور

عمـــــروا وشـــــادوا مـــــاتـــــرا ه مــــن المنـــــازل والقصـــــور
وتحولـــــوا مـــــن بعـــــد سكـــــناها إلى سكـــــنى القبـــــور(٩٤)

قلت : قال ابـن أبي عقيل هذا هو أبـو الحسن محمد بن عبـد الله بن عياض بـن أبي عقيل، صـاحب صـور، ويلقب عين الـدولة ، مـات سنة خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم، ومنازلة طرابلس، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم في وسط النهار، لم يرعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، فكبسوهم،فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمته عجلا بغير قباء، فركب فرساهناك للنوبة،ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحه فنزل إنسان من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين، وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثر القتلة في السوقة والغلمان، وسار نور الدين إلى مدينة حمص، وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ، وكان الناس يظنون أنه لايقف دون حلب، وكان رحمه اللّه أشجع من ذلك وأقوى عزما، ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن نقيم هاهنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا، وواللّه لاأستظل بجدار حتى أخذ بثار الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم، وأما من قتل فإنه أقر اقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا إنه لم يفعل هذا، إلاّ وعنده من القوّة أن يمنعنا، وكان نور الدين رحمه اللّه قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند

ويسألو كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادّعى شيئا كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه ، لمعرفتهم بحالهم، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما إدّعاه، فأعاد الجواب لاتكدروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا، وقال: واللّه إني لأرجو بأولئك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة ، فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه،وعادوا إلى بلادهم، وتفرقوا.

قلت: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد اللّه ابن سعد الموصلي نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه اللّه أوّلها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوامن لك ما حازوه من نفل

وكافل لك كاف ما تحاوله
عزم وعزم وبأس غير منتقل

وما يعيبك ما حازوه من سلب
بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل

وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع
إذ لم يكن لهم بالجيش من قبل

واستيقظوا وأراد اللّه غفلتكم
لينفذ القدر المحتوم في الأزل

حتى أتوكم ولا الماذي من أمم
ولا الظبى كثب من مرهق عجل
قنا ألقي وقسيّ غير موترة
والخيل عازبة ترعى مع الهمل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر
بما حواليه من عفر ومن وعل
هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد
سلوا الظبى تحت غابات من الاسل
وإن هم أضاعوا حزمهم ثقة
بجمعهم ولكم من واثق خجل

وبني الأصافر ما نلتم بمكركم
والمكر في كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم
غير الأراذل والأتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم
والسمر مركوزة والبيض في الخلل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها
مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه
والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما
يخلو من العين إلاّ غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهم
خير الأنام وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عند أهونه
البيض كالبيض والأدراع كالحلل
ملك بعيد من الإدناس ذو كلف
بالصدق في القول والإخلاص في العمل

ومنها:

فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت
والسيف ما فل والأطواد لم تزل

وكم تجلت بنور الدين من ظلم
وانجاب ما كان للاضلال من ظلل

قل للمولين: كفوا الطرف من جبن
عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل

طلبتم السهل تبغون النجاة ولو
لذتم بملككم لذتم إلى الجبل

أسلمتموه ووليتم فأسلمكم
بثبتة لو بغاها الطود لم ينل

فقام فرداً وقد ولت جحافله
فكان من نفسه في جحفل زجل

في مشهد لو ليوث الغيل تشهده
خرّت لأذقانها من شدّة الوهل

وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد
طارت قلوب على بعد من الوجل

يعود عنهم رويداً غير مكترث
بهم وقد كرّ فيهم غير محتفل

يزداد قدماً إليهم من تيقنه
أن التأخر لا يحمي من الأجل

ما كان أقربهم من أسر أبعدكم
لو أنهم لو يكونوا منه في شغل

ثباته في صدور الخيل أنقذكم
لا تحسبوا وثبات الضمر الذلل

ما كل حين تصاب الأسد غافلة
ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل

واللّه عونك فيما أنت مزمعه
كما أعانك في أيامك الأول

كم قد ملكت لهم ملكاً بلا عوض
وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالي من طلى ملك
وكم قريت العوافي من قرا بطل
لا نكبت سهمك الأقدار عن غرض
ولا ثنت يدك الأيام عن أمل

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله:(غيري بأكثر هذا الناس ينخدع) القصيدة، فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم، وهم المنهزمون، وقد أحسنا معاً عفا اللّه عنهما، وعبيد اللّه بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق، كان مدرساً بحمص يعرف بابن الدهان، وله ترجمة في تاريخ دمشق، وقد ذكره العماد الكاتب في خريدته فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضا في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين وست وسبعين وثمان وسبعين إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة ، أعني سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبد المؤمن ابن علي خليفة المهدي محمد بن تومرت ، صاحب المغرب، وولي بعده ابنه يوسف.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى مصر المرّة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازما على ملك الديار المصرية، واستضافتها إلى المملكة النورية، وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب، وهو أكبر ابناء شاذي من بلد دوين ،وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم، وأصلهما من الأكراد الرّوادية، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد، وقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروزا الخادم وهو شحنة العراق، فرأى في نجم الدين عقلاً ورأيا وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريت ، وهي له فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق من قراجة الساقي وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دجلة وتبعه اصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ،ثم إن أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأرسل مجاهد الدين اليه والى اخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ،
وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصا من مماليك بهروز بسهم فقتله، فخشي على نفسه، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي، وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني وكان عزيزا عند بهروز هرب إلى الموصل، والتحق أيوب به وسنوضح هذه القضية إن شاء اللّه تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعا حسنا، وصارا من جملة جنده ، فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه، فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين ، فأرسل إلى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعد والده ينهي الحال إليه فلم يتفرغ لبعلبك، وضاق الأمر على

من بها، وخاف نجم الدين آن تؤخـذ عنوة ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعا ذكره، فأجيـب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلـم القلعة ووفى له بها حلف عليـه من الإقطاع والتقـدّم، وصار عنده من أكابر الأمراء، واتصل أخوه أسـد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد، وكان يخدمـه في أيام والده ، فقربـه نور الديـن وأقطعه ورأى منه في حروبه ومشـاهده آثاراً يعجز عنها غيره ، لشجاعتـه وجرأته، فزاده إقطـاعاً،وقربـاً حتى صار له حمص والـرحبةوغيرهما، وجعلـه مقدّم عسكره، فلما تعلقت الهمة النـورية، بملك دمشق أمر أسد الـدين فراسل أخـاه نجم الـدين وهـو بها في ذلك،فطلـب منه المسـاعدة على فتحهـا، فأجاب إلى مـايراد منه، وطلب هو وأسـد الدين من نور الـدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبـذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنـازل لاسيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كـانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمـرهمأو أحدهم بذلـك إلا نجم الـدين، فـإنه كان إذا دخـل إليه قعـد من غير أن يـؤمر بذلك.

فلما كان سنـة تسع وخمسين عـزم نور الديـن على إرسال العسـاكر إلى مصر، ولم يـر لهذا الأمر الكبير أقـوم ولا أشجـع مـن أسد الـديـن، فسيره وكان سبب ذلك أن شاوربن مجير أبـا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجـر الحديـد من الحديـد وشـاور
في نصر آل محمـد لم يضجـر
حلـف الـزمـان ليـأتين بمثلـه
حنثـت يمينـك يـا زمـان فكفـر

وهو وزير الملقب بالعاضد لـدين اللّه آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنـة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول إلى نور الـدين،

مستنجدا بـه، على من أخذ منه منصبـه قهراً، وكانت عـادة المصريين أنه إذا غلب شخـص صاحب المنصب، وعجـز صاحب المنصب عـن دفعه وعرفـوا عجزه وقعوا للقـاهر منهم، ورتبوه ومكنـوه، فإن قوّتهم إنما كـانت تكون بعسكـر وزيرهم وهـو الملقب عندهـم بالسلطـان، وما كانـوا يرون المكاشفـة وأغراضهم مستقيمـة، وقواعـدهم مستقرة مـن أوّل زمانهم على هذا المثـال، وكان شارو قـد غلب على الوزارة وانتـزعها من بنـي رزيك، وقتل العادل بن الصـالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيـه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضا، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم ابـن علي من الاسكنـدريـة واستخدمـه بحضرته وبين يـديـه في ديـوان الجيش على ما ذكره عمارة اليمني في كتـاب الوزراء المصرية، وقال: غرس منه للدولـة، بل للملة، شجرة مباركـة متزايدة النماء أصلها ثابـت وفرعها في السماء .

ثم خرج على شـاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغـام بن سوار، ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاكثيرة لم يكـن له بها قبل فغلبه وأخرجه، من القاهرة وقتـل ولده طيئا، واستولى على الوزارة، فرحـل شاور إلى الشام قاصداً خـدمة نور الديـن، مستصرخا به ومستنصرا، فأحسـن لقائه وأكرم مثواه، فطلـب منه إرسال العساكـر إلى مصر ليعود إليها، ويكون لـه فيها حصة ذكرهـا له، ويتصرف على أمره ونهيه، واختياره، ونور الـدين يقدّم في ذلك رجلاً ويـؤخر أخرى، تارة يحمله رعـاية قصد شاور وطلـب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنـج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وكـون الفرنج فيه إلاّ أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مـع الخوف من الفرنج أيضا، ثم استخار اللـه تعالى وأمـر أسد الـدين بـالتجهز للمسير معـه قضاءاً لحق الوافـد المستصرخ، وحبسا للبلاد، وتطلعـا على أحوالها، وكان هـوى أسد الديـن في ذلك، وكـان عنده مـن الشجاعـة وقوّة النفـس مالا يبـالي معه بمخافة، فتجهز وسار مع شـاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب.

وقال القاضي ابن شداد: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ، والقول في ذلك قولها، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين، .

قالوا: وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه، والانتقام ممن ناوعه في الوزارة ، وساروا جميعا، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام ممايلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً، وتمكن من منصبه، وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها:

وأحق من وزر الخلافة من نشا
في حضرة الإكرام والإجلال
واختص بالخلفاء وانكشفت له
أسرارها بقرائن الأحوال
وتصرف الوزراء عن آرائه
كتصرف الأسماء بالافعال

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالا:

أرى حنك الوزارة صار سيفا
يجذ بحدّه صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا
بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله:

فنصرت في الأولى بضرب زلزل الـ
ـأقدام وهي شديدة الإقدام

ونصرت في الأخرى بضرب صادق
أضحى يطير به غراب الهام
أدركت ثاراً وارتجعت وزارة
نزعاً بسيفك من يدي ضرغام

وكان ضرغام أوّلا من أصحاب شاور واتباعه، وقد أشار إلى ذلك عمارة في قوله من قصيدة له:

كانت وزارتك القديمة مشرعاً
صفواً ولكن كدّرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسريره
من بعد ما سجدت له تيجانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:

وزير تمنته الوزارة أوّلا
وثانية عفواً بغير طلاب
فخانته في الأولى بطانة ودّه
ورب حبيب في قميص حباب
وجاءته تبغي الصلح ثاني مرة
فلم يرض إلاّ بعد ضرب رقاب

ولم يغلب وزير لهم وعاد غير شاور، وكان مدّة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهي مدّة الحمل نص عمارة على ذلك، وقال قتل ولده طيءّ يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان، وجاز رأسه على رمح تحت الطيقان والنساء يولولن بالصراخ، وكان فيهن واحدة تحفظ قولي في الصالح:

أينسى وفي العينين صورة وجهه الـ
ـكريم وعهد الانتقال قريب

فما زالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام

٧٨٦٣

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونزعت ملكك من رجال نازعوا
فيه وكنت به أحق وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل
حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة
أمرت نسيم الليل أن لا يبردا
تاريخ هذا نلته في مثله
يوما بيوم عبرة لمن اهتدى
حملت به الأيام تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضا:

للّه درك موتورا أقضّ به
دست وسرج وأجفان ومضطجع
ما غبت إلاّ يسيرا ثم لحت لنا
والثار مستدرك والملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذي يزن
إلاّ كما نلت والآثار تتبع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضا، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأنف أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوّابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم،ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر، وكان الفرنج قد

أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهـم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجـدهم، ويطلـب منهم أن يسـاعدوه على إخـراج أسد الـدين مـن البـلاد جاءهـم فـرج لم يحتسبوه، وسـارعوا إلى تلبيـة دعـوته والمبـادرة إلى نصرته، وطمعـوا في ملك ديـار مصر، وكان قـد بذل لهم مـالاً على المسير إليه، فتجهـزوا وساروا، فلما بلـغ نور الديـن خبر تجهيزهـم للمسير، سار بعساكره في أطـراف بلاده مما يلي الأفرنـج ليمتنعوا مـن المسير، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقـامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشـدّ من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظهـا، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكـان قد وصـل إلى السـاحل جمع كبير مـن الفـرنج في البحـر لزيارة البيت المقـدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعـانوه وسار بعضهم معه وأقـام بعض في البلاد يحفظها ، فلما قـارب الفرنج مصر فارقهـا أسد الـديـن، وقصد مـدينـة بلبيـس وأقـام بها هـو وعسكره، وجعلهـا ظهـراً يتحصن به، فـاجتمعت العساكر المصرية والفـرنجية، ونازلوا أسـد الدين بمـدينة بلبيـس وحصروه بها ثـلاثـة أشهر ، وقـد امتنـع أسـد الديـن بها وسـوّرها مـن طين قصير جدّاً، وليـس لـه خندق ولامعقـل يحميها، وهـو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منـه غرضاً، ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنـج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بـانيـاس، فحينئـذ سقـط في أيـديهم وأرادوا العـود إلى البـلاد ليحفظوهـا ولعلهم يدركـون بانياس قبـل أخذها، فلـم يدركوهـا إلاّ وقد ملكها على مـا سيأتي بيـانه إن شـاء اللّه تعـالى، وراسلوا أسـد الديـن في الصلـح والعـود إلى الشـام، ومفـارقــة مصر وتسليـم مـا بيـده منهـا إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلـك لأنه لم يعلم بما فعله نـور الدين بالفـرنج في الساحل.

قال ابـن الأثير: فحدثني من رأى أسـد الدين حين خرج مـن بلبيس، قال: رأيته وقد أخـرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهـم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنـج ينظرون، قال: فأتاه فرنجي من

الفرنج الغربـاء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هـؤلاء المسلمون والفرنج قد أحـاطوا بك وبـأصحابك فـلا يبقى لـك معهم بقية، فقـال شيركوه: يـاليتهم فعلـوا حتى كنـت تـرى ما لم تـر مثلـه كنت واللّـه أضع فيهـم السيف فلا أقتـل حتى أقتل رجالا، وحينئـذ يقصدهم الملك العـادل نور الدين وقد ضعفـوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم ويفنـي من بقي منهم، ووالله لو أطاعنـي هؤلاء، يعني أصحابه لخرجت إليكـم أوّل يوم، لكنهم امتنعوا فصلـب الفرنجـي على وجهه وقـال: كنا نعجـب من فـرنج هـذه الديـار ومبالغتهـم في صفتك وخـوفهم منـك، والآن فقد عـذرناهـم، ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام، وعاد سالما.

وقال العماد الكـاتب: وصل شـاور إلى نور الـدين ملتجئا فـألفاه على عدوّه معـديا مشكيا، وسير مـعـه أسد الديـن على قرار عينه، وأمـر بينه، وبغية يـدركها وخطة يملكها، ومحجـة واضحة في الملك يسلكهـا فمضى معه ونصره، وأصفى لـه مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهـره بعلوه، وأظفره بعـدوّه، فلما باد خصمـه بـدا وصمه، وغـدر بعهـده، وأخلف في وعـده، وكان قـد راسل الفـرنج وهـاداهم في حـرب الاسلام، فـوصلوا فتحصـن شيركوه ومـن معه بمدينـة بلبيس، فحـاصره شاور بجنود مصر، والفـرنج، ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجـة، فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام، وفي قلبه مـن شرّ شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقـد أشار إلى ذلك عمارة في قولـه في مدح شاور وذكر الأفـرنج فقال:

وأنفـــذت مـــن مصر عـــدوا بمثلـــه
فللّـــه مـــن ظفـــر فللـــت ونـــاب
صـــدمـــت جموع الكفـــر والشـــام صـــدمـــة
أقمـــت بها للقـــوم ســـوق ضراب

قــد جــردت أجنــادمصر عــزائما
مضــاربها في الصخــر غير نــوابي
تــولــوا عــن الافــرنــج فــادح ثقلهــا
ودارت رحــاهــا منهــم بهضــاب
أقــامــت دروع الجنــد تسعين ليلــة
ثيــابــا لهم مــا بــدلــت بثيــاب
وهــم بين مطــروح هنــاك وطــارح
وبين مصيــب خصمــه ومصــاب

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لايفصل أمراً ولايقرّر حالا إلاّ بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة ، والفكرة الصحيحة، واقتران النصر بحركاته وسكناته، فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم، وخافه أهل مصر، ونصر شاورا على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرر قواعده، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلى أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال، وكان ابتداء رحيله عنها، متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مدبراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدّثا بذلك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده على ما سنذكره، وبقي متخوفا من أسد الدين، فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:
وهــل هــمّ يــومــا شيركــوه بجلــق
إلى الصيــد إلاّ ارتــاع في مصر شــاور
هــو الملــك المنصــور والاســد الــذي
شــذا ذكــره في الشرق والغــرب ســائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جـــــار صرف الــــــردى على جيرون
وسقـــــى أهلهــــا كــــؤوس المنـــون

أصبحـــــت جتـــــة وامســـــت جحيما
تتلظـــــى بكــــل قلــــب حــــزيـــن

كيــــف لا تـــذرف الــــدمـــوع عليهـــا
وهــــي في الشـــام نـــزهـــة للعيـــون

حبـــــذا حصنهـــــا الحصين لقــــد كـــا
ن جمالا لكــــــــل حصـــــــن حصين

أي سيـــــــف سطــــا على دار سيــــف
وزبــــون أتـــــى بحــــرب زبـــــون

خلـــــت نيرانها وكـــــل ظـــــلام
نــــار ليلى تلـــــوح للمجنــــــون

كــــم غنـــــي اليمين أمســــى فقيرا
وفقير أمســـــــى غنـــــــي اليمين

كــــل حين لها حـــريــــق جـــديــــد
ليـــت شعــــري مــــاذا لها بعـــد حين

كــــل هـــذا البــلاء عـــاقبـــة الفســـــ
ــــــق وشرب الخمــــــور والتلحين

ولقــــد ردّهـــــا بعــــزم وحــــزم
أســـد الـــديــــن غـــايــــة المسكين

وحمى الجامــــــع المقـــــدس والمشـــــ
ــــهد مـــــن جمرهـــــا بماء معين

ملـــــك فعلـــــه بــــدلجة والبـــــا
ب فعـــــــال الامــــــام في صفين

فصل
في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ، يعني تسع وخمسين ، اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفرنج ،وقصدهم واجتمعوا على حارم، فضرب معهم المصاف فرزقه اللّه تعالى الانتقام منهم، فأسرهم وقتلهم، ووقع في الاسار برنس أنطاكية وقومص طرابلس، وابن لجوسلين، ودوك الروم، وذلك في رمضان(٩٥).

وقال في الخريدة: كانت نوبة البقعية نوبة عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفا، وأسر من نجا، وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحا عظيما وفتحا مبينا.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزما على ما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجدّ والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدوّ في عقر داره، وليرتق ذلك الفتق ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألبي بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف، أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك: ما

عدا مما بدا فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدّها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا، وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين ، وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها والدوك، وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الراجل ما لايقع عليه الإحصاء قد ملأوا الارض وحجبوا بقسطلهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح ، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم، وهو في الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله، ولاقدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة ، وكانت على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين، ، فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون.

إليه، ويعـود المنهزمون في اثـارهـم، وتأخذهـم سيوف الله مـن بين أيديهم ومن خلفهـم، فكان الأمر على مـا دبروا، فـإن الفرنج لما تبعـوا المنهزمين، عطف زين الـدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفنـاهم قتلا وأسراً، وعادت خيـالتهم ولم يمعنوا في الطلب خـوفاً على راجلهم، مـن العطب، فصادفـوا راجلهم على الصعيـد معفرين وبـدمائهـم مضرجين، فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قـد ضلوا، وخضعت رقـابهم وذلوا، فلما رجعـوا عطف المنهـزمـون أعنتهم وعـادوا، فبقـي العـدوّ في الـوسط، وقـد أحـدق بهم المسلمون من كل جانـب ، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتلوا الفـرنج قتال من يرجو باقدامـه النجاة، وحاربوا حرب مـن أيس مـن الحياة، وانقضـت العساكـر الإسلاميـة، عليهم انقضـاض الصقور على بغاث الطيور، فمـزقوهم بدداً وجعلوهم قدداً فـألقى الفرنج بأيـديهم إلى الاسار، وعجـزوا عن الهزيمـة والفرار، وأكثـر المسلمون فيهـم القتـل، وزادت عـدة القتلى على عشرة آلاف، وأمـا الاسرى فلـم يحصـوا كثرة، ويكفيك دليـلا على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهـم الذيـن من قبل ذكروا.

وسار نور الـدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكهـا في الحادي والعشرين مـن شهر رمضـان، وأشار أصحـابه عليـه بالمسير إلى أنطـاكية، ليملكهـا لخلوهـا ممن يحميها ويـدفع عنها، فلـم يفعل ، وقال: أمـا المدينة فأمـرها سهل وأمـا القلعة التـي لها فهي منيعـة، لاتؤخـذ إلاّ بعد طـول حصار، وإذا ضيقنـا عليهـم أرسلوا إلى صـاحـب القسطنطينيـة وسلموهـا إليـه، ومجاورة بيمنـد أحب إليّ مـن مجاورة ملـك الـروم،وبث سرايـاه في تلـك الاعمال والولايـات فنهبوا وسبـوا ، وأوغلوا في البلاد حتـى بلغوا الـلاذقية والسويدا وغير ذلك ، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الديـن أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جـزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القـاسـم: كسر نور الدين الروم والأرمـن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفا.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حـارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه اللّه لما التقى الجمعان أو قبيله إنفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عـز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يارب هؤلاء عبيدك، وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيـدك وهـم أعداؤك فانصر أولياءك على أعـدائك، ايش فضـول محمـود في الـوسط،يشير إلى أنـك يـارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهـم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحـق للنصر، وبلغنـي أنـه قــال: اللهـم انصر دينـك، ولاتنصر محمـوداً، من هـو محمـود الكلب حتـى ينصر، وجـرى بسبـب ذلك منـام حسن نـذكره في أخبار سنـة خمس وستين عند رحيـل الفرنج عـن دمياط بعد نـزولهم عليها، وهـذا فتح عظيم ونصر عـزيز أنعـم اللّه بـه على نور الديـن والمسلمين، مع أن جيشه عـامئذ كـان منه طائفـة كبيرة بمصر مع شيركوه، كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

- ٧٨٧٢ -

فصل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته في هذه السنة رحمه الله

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيما حسنا،فمما ذكرله في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، أن قال: ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النموّ، حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال العزيز، يعني عم العماد الكاتب.

قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرجه في الادب، ودرّجه في الرتب، فأوّل مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج، واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوّج بامرأة الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيد غدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها فرتبه العزيز لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الحشاشة، بهي البشاشة، فتوفرت منى زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعوّل عليه آخر عمره في إشراق ديوانه، وزاد المال وزان الحال، بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولاعرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به

على أشباهه، فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرّ باساءته ومنهم من انتفع بإحسانه، ولما قتل زنكي صار للدولة الاتابكية ملاذا، وللبيت الأقسنقري معاذا، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته، وجرى بين جمال الدين وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي، التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى فعاش بنداه الجواد، وغشا إلى ناديه الوفود، وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعمر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، و أجرى بحر السماح، ونادى حي على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقصد من كل بلد سحيق، فقصده العظماء، ومدحه الشعراء، وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص، قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أوّلها:

يا للصوارم والرماح الذبل
نصراً ومن أنجدتما لم يخذل

لوشئتما ومشيئة بمشيئة
جاد الزمان وبالعلى لم يبخل

فأقني فخارك يا مجاشع واعلمي
أني لكم من همتي في جحفل

أنا فارس اليومين يوم مقالة
ووغى أصول بصارمي وبمقولي

ظلمت فضائلي المقاول مثل ما
ظلمت جمال الدين مأوى العيل

مدحوه كي يحووا مناقب نفسه
فطمت فسالت بالمدائح من عل

فأتيت ابذل ما استطعت ومن يرد
نقل الخضم إلى المزادة يخجل

شمس من الاحسان عم ضياؤها
بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه
ويجود بالنعمى إذا لم يسئل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة
فيكون أبسم ما يرى في المعضل
ثقلت به الأعناق من منن الندى
فالهام مطرقة لذاك المثقل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
عن كل جفن بالخجالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم
عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمر قند إلى تهامة شاهد
فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده
يسري ودار مقامه بالموصل
وتقرّ عين محمد بمحمد
محيي دريسي علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه
ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا آهلا
نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته
بلد على شط الفرات السلسل
فلو أنه في عصره نزلت له
في مدحه سور الكتاب المنزل
عبد أخ في ضيفه ووداده
لا يستحيل وسيد في المحفل

خـــــرّق نيـــــاط قميصـــــه ورداؤه
بعبـــاب زخـــار وهضبـــة يـــذبـــل

قـال العماد: وكنـت أنـا في ذلـك العهـد متفقهـا في بغـداد، واتفـق حضـوري بـالموصل، سنـة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرت عنـد جمال الديـن بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنـده مع الفقهاء في مسـألتين، ومما مدحته به قصيدة أوّلها:

أظنهـــم وقـــد عـــزمـــوا ارتحالا
ثنـــــوا عنــــا جمالا لا جمالا
سروا والصبـــــح مبيــــض الحواشي
فلما حـــال عهـــد الـــوصـــل حـــالا
هـــم اعتـــادوا الملال فكيـــف ملـــوا
وصـــالهم ومـــا ملـــوا الملالا
أحـــادي عيسهـــم بـــاللّـــه رفقـــا
فـــإن السير أورثهـــا الكـــلالا
وعـــج نحـــو الأراك بها فـــإني
أراه لاجتماع الشمـــل فـــالا
سقـــى صـــوب الحيـــا تلعـــات نجـــد
وحيـــا بـــالحمـــى تلـــك التـــلالا
أخـــلائي وهـــل في النـــاس خـــل
بـــه أخلـــو مـــن الأحـــزان بـــالا
لئـــن لم أشـــف صـــدري مـــن حســـودي
ولم أذق العـــدى داء عضـــالا
فـــلا أدركـــت مـــن أدبي مـــرادا
ولا صـــادفـــت مـــن حسبـــي منـــالا
ولا وخـــدت إليكـــم بي جمال
ولا واليـــت مـــولانـــا الجمالا
هـــو المغنـــي إذا مـــا المرء أقـــوى
هـــو المنجـــي إذا مـــا الخطـــب هـــالا

وقائلة أفي الدنيا كريم
سواه فقلت: لا وأبي العلالا
أطلت على الورى كرماً وفخراً
كذلك من حوى هذين طالا
وخرت المجد عن كسب وارث
فيا صدر الورى خرت الكمالا
خصصت بكل منقبة وفضل
تعالى من حباك به تعالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها:
يهوى تجنيه والصدور كما
يهوى المعالي محمد بن علي
جمال دين الإله خير فتى
للرزق أقلامه وللأجل
معطي القرى والقرى لقاصده
من غير منّ والخيل والخول
مثل فتوح الفاروق نائله
شرقا وغربا في السهل والجبل
من قال لم يحوذا ويسكن ذا
أصبح مما يقول في خجل
محمد خاتم الكرام كما
سميه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:
كسى الحرمين لبسة عبد شمس
وهاشم غرّتي نسل الخليل
وللبلد الأمين أجدّ أمنا
تكنف مثله جدث الرسول

عشيتـــــم يـــــا ولاة الأمـــــر عما
أتيـــح لـــه مـــن الأثـــر الجميـــل
وطـــار لها وأشفقتـــم فشـــد الـــ
ـــسيدين على عـــرى المجـــد الأثيـــل
بيـــوت بـــا لحجـــاز مقـــدّســـات
رمـــاهـــا الـــدهـــر بـــالخطـــب الجليـــل
وكـــان إذا الهنّ فصـــاب صـــونـــا
لمن آوتـــه مـــن ولـــد البتـــول
مـــآثـــر بـــاقيـــات يـــوم يجنـــى الـــ
ـــمقال ويجتنـــى طيـــب المقيـــل
وكـــم للمـــوصـــل الحدبـــاء ممـــا
تنيـــل يـــداه مـــن ريـــف ونيـــل
بـــرود الصفـــح ملتهـــب الحواشي
مهيـــب البطـــش فـــراس الـــدخـــول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:

أغـــر يبصر منـــه النـــاس في رجـــل
والليـــث في بشر والبـــدر في غصـــن
سما بهمتـــه في المكـــرمـــات إلى
عليـــاء يقصر عنهـــا همة الـــزمـــن
يلقـــاك واضـــح ليـــل الفكـــر راجـــح نيـــ
ـــل الكـــف طـــاهـــر ذيـــل السر والعلـــن
مـــاضي العـــزيمـــة ميمـــون النقيبـــة ريـــ
ـــبال الكتيبـــة عين القـــائل اللســـن
إذا تكلـــم واستحليـــت غـــرتـــه
في محفـــل رحـــت حـــالي العين والأذن
كـــأن في الـــدســـت منـــه حين تنظـــره
شمـــس النهـــار وصـــوب العـــارض الهتـــن

قـال ابـن الاثير: وفيهـا في شعبـان من هـذه السنـة وهـي سنـة تسع

وخمسين وخمسمائة توفي الـوزير جمال الديـن محمد بن علي بـن أبي منصور الأصفهاني، كان قد خدم الشهيد فـولاه نصيبين، وظهرت كفايته فأضاف إليه الـرحبة، فأبـان عن كفايـة وعفة، وكـان من خواصـه، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيما لامزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضيـاء الدين بـن الكفرتوثـي يحكي عـن جمال الدين قـال: كان يدخل إلى أتـابك قبلي، ويخرج بعدي،ولم يزل كذلـك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولـدي الشهيد سيف الديـن، ثم قطب الديـن، وكان بينه وبين زين الـدين علي كـوجك عهـود ومواثيـق على المصافـاة والاتفاق، وكـان أصحاب زيـن الديـن يكرهونـه، ويقعون فيـه عند زين الـدين فنهـاهم، وكانت الموصل في أيـامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمنـا لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الـدين حتى أوغروا صدره عليه، وقالوا لـه: إنه يأخذ أموالك فيتصدّق بها، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع عليـه زين الدين من غيره عن مصافاتـه ومواخاته، فقبض عليه قطب الدين وأصحابه كـانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسطوا في الأمر والنهـي، على خلاف غـرض زين الديـن، فبقي جمال الـدين في الحبـس نحواً مـن سنة، ثـم مرض ومضـى لسبيله عظيـم القدر والخطـر، كريم الـورد والصدر، عديم النظير في سعة نفـس، لم يرو في كتب الأوّلين أن أحدا مـن الوزراء اتسعـت نفسه، ومروءتـه لما اتسعت لـه نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوّة، كامل المروّة.

قال ابن الأثير : حكى لي جماعة عن الشيـخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمـة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغـولا بأمـر آخرتـه مدّة حبسـه، وكان يقـول: كنت أخشـى أن أنقل مـن الدست إلى القبر، قال: فلما مـرض قال لي بعض الأيام: يـا أبا القـاسم إذا جـاء طـائر أبيض إلى الـدار فعـرفنـي، فقلت في نفسي: قـد اختلط الرجـل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلـك الطائر وإذا طائر أبيض لم ير مثلـه قد سقط، فقلت لـه: قد جاء الطائر، فـاستبشر، ثم قال،

جاء الحق، وأقبل على الشهادة، وذكر اللّه تعالى، وتوفي فلما توفي طار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئا في معناه، ودفن في الموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً من مات منا قبل صاحبه حمله الحيّ إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفنه بها في التربة التي عملها، فإن أنا مت فامض إليه وذكره، فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه، فإذا شاب قد ارتفع إلى موضع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى بره فوق الركاب ونائله
يمرّ على الوادي فتثني رماله
عليه وفي النادي فتبكي أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم ، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم،وحملوه إلى المدينةفصلوا عليه أيضا ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذ راعا.

قلت: كذا قال ابن الاثير، ولقد رأيت المكان، ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، لانفس القبر الشريف زاده اللّه شرفا وصلى على ساكنه.

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال، رحيما بالناس ومتعطفا عليهم عادلاً فيهم، فمن أعماله

الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى، وغرم عليه أموالا عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى ابن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالاً كثيراً، وكان يعطي أهل نعمان كل سنة مالا كثيرا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضر معهم، رأيت بالمدينة إنسانا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب، لايتركون لأحد منا ما يواريه ويشبع جوعته، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا فكيف لاندعوله.

قال: وكان الخطيب في المدينة يقول في خطبته: اللهم صن حرم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور، قال: فلو لم يكن له إلاّ هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء

سوى الإدرارات والتعهدات قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلاّ أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه، وبنى أيضا جسرا على نهر الباريا عند الجزيرة أيضا، وبنى الربط بالموصل وسنجار ونصيبين وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض، ويكفيه أن صدر الدين الخجندي رئيس أصحاب الشافعي رضي اللّه عنه بأصبهان ، وابن الكافي قاضي قضاة همذان قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلا وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية ، وصارت الموصل في أيامه مقصداً وملجأ، وكان أحب الاشياء إليه إخراج المال من الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق.

حكى لي والدي قال: كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندز ليعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير اشتروا لي قندز بدينارين وتصدّقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرّة، فلم يفعل.

قال: وحكى لي من اثق إليه من العدول بالموصل: أن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها، وغلت الأسعار، وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاء فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا وقال له: تخرج هذا على مستحقيه، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذ غيره، فلم يمض إلاّ أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئا آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه فقال جمال الدين للرسول: واللّه ما عندي شيء ولكن خذ هذه المحافير التي في داري فبيعوها وتصدّقوا بثمنها إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر، فبيعت المحافير وتصدقوا بثمنها، وعرّفوه ذلك فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاه

ثيابه التي كـان يلبسها مع العمامة التي كانـت على رأسه، وأرسل الجميع وقال للـرسول: قـل للشيخ لايمتنع مـن الطلب فهـذه أيام مـواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قـال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهـو بظاهر الموصل واقعـد هناك، فإذا أتاك شيء فـأحفظه إلى أن أحضر عندك ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصـافي والخام، وإذا قد جـاء نائب جمال الـدين مـع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي: تأخذ هـذه الأحمال وتسير إلى الرحبـة فتـوصل هـذه الـرزمـة وهذا الكتـاب إلى متوليهـا فلان، فإذا احضر لـك فلانا العـربي ، فتوصـل إليه هذه الـرزمة وهذا الكتـاب وهكذا إلى المدينـة على ساكنهـا أفضل الصـلاة والسلام، توصـل إلى وكيلي فلان هـذه الأحمال وهذه الكسـوات والمال الذي عليـه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قـال: فسرنا كـذلك إلى وادي القـرى فرأينـا به نحـو مائة جمل تحمـل الطعام إلى المدينة وقـد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا سـاروا معنا إليها فوصلنـاها والحنطـة بها كل صاعين بـدينار مصري، والصـاع خمسة عشر رطلاً بـالبغدادي، فلما رأوا الطعـام والمال اشتروا كل سبعـة آصع بـدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الـدين وقد حضر عنده رجل فقيـه، قبل أن يصير وزيـراً فطلـب منـه شيئا وتـردّد إليـه عـدة أيام، ثـم انقطع فسأل عنه فقيل إنه سافر فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا ينصرف الأحرار عـن دور الكلاب ، وردّد ذلك غير مرة، ثـم سأل عنه.فقيـل إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الإعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة، وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى، وأتابك قد ركب إلى الميدان وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوما منه خلوة من أصحابي فقلت له: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا اشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة، قال: قل ، قلت :أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصحتك خفايا الودّ من أحد ... ما لم يصبك بمكروه من العذل
مودّتي لك تأبى أن تسامحني ... بأن أراك على شيء من الزلل (٩٦)

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم عليه، ولو أن الانسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة، وقال: جزاك اللّه خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه،ففارقته وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

مــا حــط قــدرك مــن أوج العلى القــدر
كــلا ولا غيرت أفعــالــك الغير
أنــت الــذي عــم أهــل الأرض نــائلــه
ولم ينــل شــأوه في ســؤدد بشر
ســارت صفــاتــك في الآفــاق واتضحــت
وصــدّق السمــع عنهــا مــا رأى البصر
فــاصبر لصرف زمــان قــد منيــت بــه
فــاخــر الصبر يــاطــود النهــى الظفــر
فما تــرى أحــدا في الخلــق يسلــم مــن
صروف دهــر لــه في أهلــه غير
سعــوا بقصــدك سرا واستتــب لهم
ولــو سعــوا نحــوه جهــراً لما قــدروا
لــولا الأمــاني التــي تحيــى النفــوس بها
لمت مــن لــوعــة في القلــب تستعــر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملاء:
وأصــدق النــاس في حفــظ العهــود إذا
ميــزت بــالفكــر أحــوال الــورى عمــر
الــزاهــد العــابــد البرّ التقــي ومــن
يــزوره ويقــوّي أزره الخضر

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:
لا خير في الــدنيــا ولا أهلهــا
بعــد جمال الــديــن والصــالــح
بحــران لــولا دمــع بــاكيهما
مــاكــان مــاء البحــر بــالمالــح

قال ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحاققة فيها ما

يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ،وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الأمور ، قال: فقلت له يوما:أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدية، ما أرى الآن منها شيئا؟ فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء، فقال: أنت صبي غرّ ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الانسان في كل زمان ما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لايتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولا يتلوّن بأقوال أصحابه، فحفظناه فكان ما أفعله هو الكفاية ، وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير : فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس، لعلمه بقلة من فيها من الحماة، الممانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لوكشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وجدّ في حصارها، وسمع الفرنج بذلك، فجمعوا فلم تتكامل عدّتهم حتى فتحه اللّه تعالى، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالا عدّة، وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع، فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه، أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يمتر الشكاك فيك فإنك الـ ... ـمهدي مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذي أضللته ... بالامس بين غياطل وجبال
مسترجعا لك بالسعادة آية ... ردت مطال الفال غير مطال
لم يعطها إلا سليمان وقد ... نلت الوفاء بموشك الاعجال

زجـــرجـــرى لسريـــر ملكـــك إنـــه
كسريـــره عـــن كـــل جـــدر عـــال
فلـــو البحـــار السبعـــة استهـــوينـــه
وأمـــــرتهنّ قـــــذفنـــــه في الحال

قلت: هذه الابيات لابن منير بلاشـك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قـد سبق أنـه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتـح بانيـاس كما تراه في سنة ستين، وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال: يمدحه ، يعني نور الدين ويهنيه بـالعود مـن غزاة وضيـاع فص يـاقوت جبـل من يـده، لاشتغالـه بالصيـد، شراه ألف ومائة دينار، وفي نسخـة : ووجد أن خاتم ضـاع منه في الصيـد قيمته ألـف ومـائة دينـار، وأنشده إيـاهـا بقلعـة حمص فذكـر القصيدة أوّلها :(يوماك يوم ندى ويوم نزال)

يقول فيها:
أخـــرســـت شقشقـــة الضـــلال وقـــدتـــه
قـــود الـــذلـــول أطـــاع بعـــد صيـــال
ورميـــــــــت دار المشركين بصيلـــــــم
القحـــت فيهـــا الحرب بعـــد حيـــال
وسعـــــرت بين تـــــريبهـــــم وتـــــرابهم
ذعـــرا يشيـــب نـــــواصي الاطفـــال
فـــوق الخطيـــم وقـــد خطمـــت زعيمهـــم
ضربـــا ســـــوابقـــــه بغير تـــــوالي
ضربـــا مـــلأت فـــرنجـــة مـــن جـــرّه
رهبـــاً بـــه سيـــف الصقـــالـــب صـــالي
وبفـــج حـــارم أحـــرمـــت لقـــراعهـــم
هيـــم أحلـــن النـــوم غير حـــلال
عجمـــوا على جسر الحديـــد حـــديـــدهـــا
نبعـــا يعـــاذمـــه أديـــر دصـــال

زلــزلــت أرضهــم بــوقــع صــواعــق
أعطيتنــا أمنــا مــن الــزلــزال
في مــأزق شمــرت ذيلــك تحتــه
والنصر فــوقــك مسبــل الأذيــال
في دولــة غــراء محمــوديــة
سحبــت رداء الحمــد غير مــذال
تنسي الفتــوح وتجتنــي
زهــر المقــال ببــاهــر الأفعــال
لبســت بنــور الــديــن نــور حــدائق
ثمــراتهن غــرائب الافضــال
ملــك تحجــب في السريــر بــزأرة
زرّت حــواشيهــا على ريبــال
تنجــاب عــن ذي لبــدتين شــذاتــه
في بــردتي بــدل مــن الأبــدال
رفــع الــرواق بــروق أنطــاكيــة
فــرمــى الخليــج بمــرهــق البلبــال
بــدر لأربــع عشرة أقتبــس السنــا
مــن خمس عشرة ســورة الأنفــال
فــوز المآل أخــاضــه مــاء الطلى
وســواه يقعــده احتيــاز المال
متقســم بين القسيمين العلى
عــن عــمّ عــم أو مخايــل خــال
لازلــت تطلــع مــن ثنــايــا جحفــل
يقفــو لــواءك كــاللــوى المنهــال
لــك أن تطــل على الكــواكــب راقيــا
ولحاســديــك بكــا على الأطــلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم

القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة ، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه، ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعدّ ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الأفرنج قائما على رأسه فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن، وكان عالما دينا مدبراً، حنبلي المذهب وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده ، وله عدّة مصنفات منها الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح، وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة، ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأوّل سنة ستين وخمسمائة، ورؤيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء، ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق، وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره، ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الاسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

- ٧٨٩٠ -

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسـد شيركوه، أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربع قبور هما الأوسطان منها، وفي هـذين الأخوين نـاصر الدين وفتح الـدين يقول العرقلة حسان:

للّـــه شبـــلا أســـد خـــادر
مـــا فيهما جبـــن ولا شـــح
مـــا أقبـــلا إلاّ وقـــال الـــورى
قـــد جـــاء نصر اللّـــه والفتـــح

وفيها سار نور الدين أيضا إلى حصـن المنيطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولاجمع عسـاكره إنما سار إليـه على غرة مـن الفرنج، وعلـم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفـرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجدّ في قتـالها وأخذهـا عنوة وقهـرا، وقتـل من بها وسبـى، وغنم غنيمـة كثيرة لأمن مـن به فـأخذتهم خيـل الله (بغتـة وهـم لايشعـرون[٩٧])، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لـدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنـه جرد جريدة لأسرعوا ، وإنما ظنـوا أن نورالديـن في جمع كثير، فلما ملكه تفرّقـوا وايسوا منه، وهذا قول ابن الأثير.

وذكـر القـاضي ابـن شداد أن ذلـك كـان في سنـة اثنتين وستين ، كما سيأتي والله أعلم.

وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر

قال العماد في الخريـدة: القاضي الجليـس أبو المعـالي عبد العـزيز بـن

الحسين بن الحباب الأغلبى السعدي التميمي، جليس صاحب مصر، وفضله مشهور، وشعره مأثور، وكان أوحد عصره في مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا، ومات بها في سنة إحدى وستين وقد أناف على السبعين، وأنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:

ومن عجب أن السيوف لديهم
تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا أنها في أكفهم
تأجج ناراً والاكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها إلى الصالح رزيك قبل وزارته يحرضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتله وقتل أخوته يوسف وجبريل يقول فيها:

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا
نحوهم على عمد بفعل أعادي
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم
وما لهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فمزق جموع المارقين فانها
بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:

ولما ترامى البربري بجهله
إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمتك التي
بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد ما لوى
به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى يقول:

أعــدت إلى جسـم الـوزارة روحهـا
وما كـان يـرجى بعثها ونشـورهـا
أقـامـت زمـانـا عنـد غيرك طـامثـا
فهـذا الأوان قـرؤهـا وطهـورهـا
مـن العـدل أن يحظـى بها مستحقهـا
ويخلعهـا مـردودة مستعيرهـا
إذا ملـك الحسنـاء مـن ليس كفـؤهـا
أشـار عليـه بـالطـلاق مشيرهـا

وله يشكو طبيبا:

وأصـل بليتـي مـن قـد غـزاني
مـن السقـم الملـح بعسكـريـن
طبيـب طبـه كغـراب بين
يفـرق بين عـافيتـي وبينـي
أتـى الحمـى وقـد شـاخـت وبـاخـت
فـردّ لها الشبـاب بنسختين
ودبـرهـا بتـدبير لطيـف
حكـاه عـن سنـان أو حنين
وكـانـت نـوبـة في كـل يـوم
فصيرهـا بحـذق نـوبتين (٩٨)

قلت: الأبيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديـوانه، وهـي من قصيـدة يمدح بها وزيـر الخليفة ببغـداد فخر الـدولة أبـا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة وأوّل القصيدة:

لجاجـة قلـب مـا يفيـق غـرورهـا
وحـاجـة نفـس ليـس يقضـى يسيرهـا

وهي طويلة يقول في غزلها:

وقفنا صفوفا في الديار كأنها
صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح
أهذي التي تهوى فقلت نظيرها
وقد قلتها لي ليس في الأرض جنة
أما هذه فوق الركائب حورها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلة
وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
ومالي بها علم فهل أنت عالم
أأفواهها أولى بها أم نحورها
على رسلكم في الهجر إنا عصابة
إذا ظفرت في الحب عف ضميرها

ويقول في مديحها:
فقل لليالي كيف شئت تقلبي
ففي يد عبل الساعدين أمورها
أماني في نفس الوزارة بلغت
به كنهها حتى استحقت نذورها
لوت وجهها عن كل طالب متعة
إلى خاطب حل عليه سفورها
إذا مثل الأقوام دون عرينه
تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لما قد ألبست من سكينة
ترف على تلك الرؤوس طيورها

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لايزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت ... مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الـ ... ـصدّيق من أولاد يعقوب
ملكها في عصرنا يوسف الـ ... ـصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى ... حقا وضرّاب العراقيب

ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الافرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، وقصد أطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها أربعا وخمسين يوما، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم

جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعـددهم وجدهم في طلبه، فعزم على قتالهم وبقـائهم، وأن تحكم السيوف بينـه وبينهم، إلاّ أنه خـاف من أصحـابـه أن تضعف نفـوسهـم في الثبـات في هذا المقـام الخطير الـذي عطبهـم فيه أقـرب من السـلامة لقلـة عـددهم وبعـدهم عـن بلادهـم، فاستشارهم فكلهم أشار عليـه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالـوا له:إن نحن إنهزمنا وهـو الذي لاشك فيه فـإلى أين نلتجي وبمن نحتمـي، وكل من في هـذه الديار من جنـدي وعامي وفـلاح عدو لنا ويودون لو شربـوا دماءنا، وحق لعسكر عدّتهم ألـف فارس قد بعدوا عن ديارهـم، وقل ناصرهم أن يـرتاع من لقاء عشرات ألـوف، مع أن كل البلاد عدو لهم، فلما قـالوا ذلك قام إنسـان من المماليك النوريـة يقال له شرف الديـن بزغـش، وكان مـن الشجاعـة بالمكـان المشهور، وقـال: من يخاف القتـل والجراح والأسر فلا يخدم الملـوك، بـل يكـون فلاحـا أو مـع النساء في بيتـه، والله لئـن عدتـم إلى الملك العـادل من غير غلبـة وبلاء تعذرون فيه ليأخـذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميـع ما أخذتموه إلى يومنـا هذا ويقول لكـم: أتأخذون أمـوال المسلمين وتفرّون عن عـدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيهـا الكفار، قال أسد الدين: هذا رأيـي وبه أعمـل ووافقهما صلاح الديـن يوسف بـن أيوب، ثـم كثر الموافقون لهم على القتـال فاجتمعـت الكلمة على اللقـاء، فأقـام بمكانـه حتـى أدركه المصريـون والفرنـج وهـو على تعبية، وقـد جعل الأثقـال في القلـب يتكثـر بها، ولأنه لم يمكنـه أن يتركهـا بمكـان آخر فينهبهـا أهـل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الديـن ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنـج والمصريين يظنون أننـي في القلب فهـم يجعلون جمرتهم بـإزائه وحملتهـم عليـه، فـإذا حملـوا عليكـم فلا تصـدقـوهـم القتـال ولاتهلكـوا نفـوسكم وانـدفعوا بين أيـديهم،فإذا عـادوا عنكم فـارجعوا في أعقـابهم، واختـار مـن شجعـان أصحـابـه جمعـا يثـق إليهـم ويعـرف صبرهـم وشجاعتهـم، ووقف بهم في الميمنـة ، فلما تقابـل الطائفتـان فعل الفـرنج

ماذكره أسد الدبن، وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم، ووضع السيف فيهم ، فأثخن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثرالمنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديار، فانهزموا أيضا، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل، ثم سار أسد الدين إلى ثغر الاسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمها إليه أهلها، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج، فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدّ الحصار، وقل الطعام بالبلد فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قرية واحدة، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال، وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار، وهذا كله يجري بين الفرنج وبين شاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، قد

حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهي محبته وولاءه ويسأله أن يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الاسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة بوقعة البابين.لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لابد له من قصدها، فكاتب الفرنج وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها، وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتدّ خوفهما على مصر، أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها، فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالسير معه على كراهة منه لذلك،وذلك في أثناء ربيع الأول وكان وصولهم البلاد المصرية مقاربا لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج، وأخذ المنيطرة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج

على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجره إلى شيء قد قدّر لغيره وهو لايشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرّب قلعة أكاف بالبرية، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخربوا هونين في شوال منها، وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني مصنف كتابي الفتح والبرق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، عند حمام القصير بباب الفرج المنسوبة الى العماد وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه اللّه ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين ، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، ابني شاذي من تكريت بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ، ونجم الدين أيوب آنذاك واليها، فانتسجت المودّة بينهم من هناك، فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر إلى منزله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أوّلها

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب
ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

مـــا اخترت بعـــدك لكـــن الـــزمـــان أتـــى
كـــرهـــا بما ليـــس يـــا محبـــوب محبـــوبي
أرجـــو إيـــابي إليكـــم ظـــافـــرا عجـــلا
فقـــد ظفـــرت بنجـــم الـــديـــن أيـــوب
مـــوفـــق الـــرأي مـــاضي العـــزم مـــرتفـــع
على الأعـــاجـــم مجداً والأعـــاريـــب
أحبـــك اللّـــه إذ لازمـــت نجـــدتـــه
على جبين بتـــاج الملـــك معصـــوب
أخـــوك وابنـــك صـــدقـــا منهما اعتصما
بـــاللّـــه والنصر وعـــد غير مكـــذوب
هما هما مـــان في يـــومـــي وغـــى وقـــرى
تعـــودا ضرب هـــام أو عـــراقيـــب
غـــدا يشبـــان في الكفـــار نـــار وغـــى
بلفحهـــا يصبـــح الشبـــان كـــالشيـــب
بملـــــك مصر ونصر المؤمنين غـــــدا
تحظـــى النفـــوس بتـــأنيـــس وتطييـــب
ويستقـــرّ بمصر يـــوســـف وبـــه
تقـــرّ بعـــد التنـــائي عين يعقـــوب
ويلتقـــي يـــوســـف فيهـــا بـــأخـــوتـــه
واللّـــه يجمعهـــم مـــن غير تثـــريـــب

وكان أنشده هذه القصيـدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وتم ملكهم مصر بعد سنتين.

قال: فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكـان أسد الـدين قد جمع وسـار إلى مصر في الرمـل في النصف من ربيع الأوّل ووصـل في سادس ربيع الآخر إلى أطفيـح ، وعبر منها إلى الجانب الغربي، وأنـاخ بالجيزة محاذاة مصر فأقام عليها نيفـا وخمسين يوما

واستعان شاور بالفرنج ، ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفا، وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم، فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الاسكندرية ، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها، ثم قال أسد الدين: أنا لايمكنني أن أحصر نفسي فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد، فاستولى عليها وجبى خراجها، وأقام صلاح الدين بالاسكندرية، فسار إليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص، فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار، وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ما غرمه ، فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية، فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر

من يهتدي للذي أنت اهتديت له
ومن له مثل ما أثرته أثر

أسرت أم بسراك الأرض قد طويت
فأنت اسكندر في السير أم خضر

أوردت خيل بأقصى النيل صادرة
من الفرات تقاضى وردها الصدر

تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها
إلاّ حديثك ما بين الورى سمر

فأنت من زانت الأيام سيرته
وزاد فوق الذي جاءت به السير

لـــو في زمـــان رســـول اللّـــه كنـــت أتـــت
في هـــــذه السيرة المحمـــــــودة الســـــور
أصبحـــت بـــالعــــدل والاقـــدام منفـــردا
فقـــــل لنــــا أعليّ أنـــــت أم عمـــــر
اسكنـــــدر ذكـــــروا أخبـــــار حكمتـــــه
ونحـــن فيـــك رأينـــا كـــل مـــا ذكـــروا
ورستـــم خبرونـــــا عـــــن شجـــاعتـــه
وصـــار فيـــك عيـــانـــا ذلـــك الخبر
أفخـــر فـــإن ملـــوك الأرض أذهلهـــم
مـــا قـــد فعلـــت فكـــل فيـــك مفتكـــر
سهـــرت إذ رقـــدوا بـــل هجـــت إذ سكنـــوا
وصلـــت إذ جبنـــوا بـــل طلـــت إذ قصروا
يستعظمـــون الـــذي ادركتـــه عجبـــاً
وذاك في جنـــب مـــا نـــرجـــوه محتقـــر
قضـــى القضـــاء بما نـــرجـــوه عـــن كثـــب
حتما ووافقـــك التـــوفيـــق والقـــدر
شكـــت خيـــولـــك إدمـــان السرى وشكـــت
مـــن فلهـــا البيـــض بـــل مـــن حطمهـــا السمـــر
يسرت فتـــح بـــلاد كـــان أيسرهـــا
لغير رأيـــك قفـــلا فتحـــه عسر
قـــرنـــت بـــالحزم منـــك العـــزم فـــاتسقـــت
مـــآرب لـــك عنهـــا أسفـــر السفـــر
ومـــن يكـــون بنـــور الـــديـــن مهتـــديـــا
في أمـــره كيـــف لا يقـــوى لـــه المرر
يـــرى بـــرأيـــك مـــا في الملـــك يبرمـــه
فـــأنـــت منـــه بحيـــث السمـــع والبصر
لقـــد بغـــت فئـــة الأفـــرنـــج فـــانتصفـــت
منهـــا بـــاقـــدامـــك الهنـــديـــة البتر

غرست في أرض مصر من جسومهم
أشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع في مقام وغى
به الحديد غمام والدم المطر
انهرت منهم دماء بالصعيد جرى
منها إلى النيل في واديهم نهر
رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا
نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
تحت الصوارم هام المشركين كما
تحت الصوالج يوما خفت الاكر
أفنت سيوفك من لاقت فإن تركت
قوما فهم نفر من قبلها نفروا
لم ينج إلّا الذي عافته من خبث
وحش الفلا وهو للمحذور منتظر
والساكنون القصور القاهرية قد
نادى القصور عليهم أنهم قهروا
وشاور شاوروه في مكايدهم
فكاده الكيد لما خانه الحذر
كانوا من الرعب موتى في جلودهم
وحين أمنتهم من خوفهم نشروا
وإن من شيركوه الشرك منخزل
والكفر منخذل والدين منتصر
عوّل على فئة عند اللقاء وفت
وعدّ عن تركمان قبله غدروا
وكيف يخذل جيش أنت مالكه
والقائدان له التأييد والظفر
أجاب فيك إله الخلق دعوة من
يطيب بالليل من أنفاسه السحر

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودّة، تمت لي بها على الزمان عدّة، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميل إلى شعري ، فأوّل ما خدمته به هذه الكلمة:

كيف قلتم بمقلته فتور
وأراها بلا فتور تجور

ومنها:

مستجيز جوري وإني منه
بابن أيوب يوسف مستجير
فضله في يد الزمان سوار
مثلها رأيه على الملك سور
كرم سابغ وجود عميم
وندى سائغ وفضل غزير
أنت من لم يزل يحنّ إليه
وهو في المهد سرجه والسرير
من دم الغادرين غادرت بالأمس صعيد الصعيد وهو غدير
ولكل مما تطاولت فيهم
أمل قاصر وعمر قصير
لاذ بالنيل شاور مثل فرعون فذل اللاجي وعز العبور
شارك المشركين نعيا وقدما
شاركتها قريظة والنضير
والذي يدعي الامامة بالقاهرة ارتاع أنه مقهور
وغدا الملك خائفا من سطاكم
ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنو الهنفري هانوا ففروا
ومن الاسد كل كلب فرور

إنما كان للكلاب عواء
حيث ما كان للأسود زئير
وفليب عند الفرار سليب
فهو بالرعب مطلق مأسور
لم يبقوا سوى الأصاغر للسبـ
ـي فودوا لو أن الكبير صغير
وحميت الاسكندرية عنهم
ورحى حربهم عليهم تدور
حاصروها وما الذي بان من ذبـ
ـك عنها وحفظها محصور
كحصار الأحزاب طيبة قدما
ونبي الهدى بها منصور
فاشكر اللّه حيث أولاك نصراً
فهو نعم المولى ونعم النصير
ولكم أرجف الأعادي فقلنا
ما لما تذكرونه تأثير
ورقبنا كالعيد عودك فاليو
م به للأنام عيد كبير
عاد من مصر يوسف وإلى يعـ
ـقوب بالتهنيات جاء البشير
فلأيوب من إياب صلاح الـ
ـدين يوم به توفى النذور
ولكم عودة إلى مصر بالنصـ
ـر على ذكرها تمر العصور
فاستردّوا حق الإمامة ممن
خان فيها فإنه مستعير
وافترعها بكرا لها بمدى الدهـ
ـر رواح في مدحكم وبكور

أنـــا سيرت طـــالـــع العـــزم منـــي
وإلى قصـــــــدك انتهـــــــى التسيير
وأرى خـــاطـــري لمدحـــك إلـــف
إنما يـــــأ لـــــــف الخطير الخطير

وهـي والتي قبلهـا طـويلتان جـداً، فانتظمـت معـرفة العماد بصـلاح الدين، وكان لـه مساعدا عند نور الدين، وقرأت في ديـوان العرقلة، وقال يمدح أسد الديـن شيركوه، وقد أخذ الشقيف، ورحل طـالبا حصناً يقال له العراق:

رحلـــت مـــن الشقيـــف إلى العـــراق
بعـــزم كـــالمهنـــدة الـــرقـــاق
ونكســـت الأعـــادي منـــه قهـــراً
ومجدك في ذرى الجوزا بـــــاقـــــي
بجـــاشـــك لا بجيشـــك نلـــت هـــذا
وبـــالتـــوفيـــق لا بـــالإتفـــاق
فـــداؤك مـــن مضـــى بـــالحصـــن قبلي
إلى دار الخلـــود مـــن الـــرفـــاق
ومـــا نخشـــى على الإســـلام بـــؤسـا
إذا هلـــك الجميـــع وأنـــت بـــاقـــي
أشـــاوركـــم فشـــاوركـــل خـــب
وتنفـــق عنـــد مثلـــك بـــالنفـــاق
أتصبر إن أتتـــك بحـــار خيـــل
وقـــد مـــا صبرت على الســـواقـــي
متـــى رفعـــت لـــك الســـودان رأســـا
وقـــد خـــلاهـــم مثـــل الـــزقـــاق
وعيشـــك مـــالـــه مـــن مصر بـــد
ومـــن عنـــدي ثـــلاثـــاً بـــالطـــلاق
هـــو الأســـد الـــذي مـــا زال حتـــى
بنـــا مجداً على السبـــع الطبـــاق

فصل

قال ابن الإثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ، فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج، واجتاز على حصن الأكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين، وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها فقصدها نورالدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعة وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلل أوجب التفرق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه.

قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عاقلا خيراً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة إثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفيها توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير، صاحب كتاب الجنان.

قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاور صبراً في سنة إثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده، وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه، وتوفي

قبله بسنة، لم يكن في زمانه آشعر منـه، وله شعر كثير منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين أولها:

أعلمـــــت حين تجاور الحيـــــان
أن القلـــوب مــــواقـــــد النيران

يـــا كـــاسر الأصنـــام قـــم فـــانهض بنـــا
حتـــــى تصير مكسر الصلبـــــان

فـــالشـــام ملكـــك قـــد ورثـــت بـــلاده
عـــن قـــومـــك الماضين مـــن غســـان

وإذا شككـــــت بــــأنها أوطـــانهم
قـــد مـــا فسـل عـــن حـــارث الجولان

أورمـــت أن تتلـــو محاســـن ذكـــرهـــم
فـــاسنـــد روايتهـــا إلى حســـان

مـــا زلـــزلـــت أرض العـــدى بـــل ذاك مـــا
بقلـــوب أهليهـــا مـــن الخفقـــان

وأقـــول إن حصـــونهم سجـــدت لما
أوتيـــت مـــن ملـــك ومـــن سلطـــان

ولقـــد بعثـــت إلى الفـــرنـــج كتـــائبـــا
كـــالأســـد حين تصـــول في خفـــان

لبســـوا الـــدروع ولم يخل مـــن قبلهـــم
أن البحـــــار تحلّ في غــــــدران

عجلـــت في تـــل العجـــول قـــراهـــم
وهـــم لـــك الضيفـــان بـــالـــذيفـــان

وثللـــت في يـــوم العـــريـــش عـــروشهـــم
بشبـــا ضراب صـــادق وطعـــان

ألجأتهم للبحـــــر لما أن جـــــرى
منـــه ومـــن دمهـــم معـــا بحـــران

ولقـــد أتـــى الاسطـــول حين غـــزا بها
لم يـــأت في حين مـــن الاحيـــان

وأعـــدّت رســـل ابـــن القسيـــم إليـــه في
شعبـــان كــــي يتـــلاءمْ الشعبــــان
والفـــال يشهـــد في اسمـــه أن ســـوف يغـــ
ـــدو الشـــام وهـــو عليكما قسمان
وأراك مـــن بعـــد الشهيـــد أبـــاً لـــه
وجعلتـــه مـــن أقـــرب الاخـــوان
وهـــو الـــذي مـــا زال يفعـــل في العـــدى
مـــا لم يكـــن ليعـــدّ في الامكـــان
قتـــل البرنـــس ومـــن عســـاه أعـــانـــه
لما عســـا في البغـــي والعـــدوان
وأرى البريـــة حين عـــاد بـــرأســـه
مـــرّ الجنـــى يبـــدو على المرّان
وتعجبـــوا مـــن زرقـــة في طـــرفـــه
وكـــأن فـــوق الـــرمـــح نصـــلا ثـــاني
عجبـــا لجود يـــديـــه إذ يبنـــي العـــلا
والسيـــل يهدم ثـــابـــت الأركـــان
قلـــدت أعنـــاق البريـــة كلهـــا
مننـــا تحمـــل ثقلهـــا الثقـــلان
حتـى تســـاوى النـاس فيـك وأصبـح الـــ
ـــقاصي بمنـــزلـــة القـــريـــب الـــداني

وفي هذه السنة ذكـر القاضي كمال الدين بن الشهـرزوري للسطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب، وعرّفـه به وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها:

ومنها :
لـــو حفظـــت يـــوم النـــوى عهـــودهـــا
مـــا مطلـــت بـــوصلكـــم وعـــودهـــا
وإنما يحمـــــد عيـــــش بلـــــدة
مـــا لكهـــا بعـــدلـــه محمـــودهـــا

مؤيد أموره بعزمة
من السموات العلى تأييدها
آثاره حميدة وإنما
للمرء من آثاره حميدها
ان الورى بحبه وبغضه
يعرف من شقيها سعيدها
قد جاءكم نور من الله فمن
به اهتدى فإنه رشيدها
جلا ظلام الظلم نور الدين عن
أرض الشام فله تحميدها
إن الرعايا منه في رعاية
ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر بل لأمنها
يخاف بل لخصبها بجودها
بالدين والملك له قيامه
والملوك عنهما قعودها
ودأبه ثلم ثغور الكفر لا
لثم ثغور نافع برودها
قد أسبغ الله لنا بعدله
ظلام أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم في أولته
وهم على رغمهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سجودها
لله أضحى للظبى سجودها
إن فارقت سيوفه غمودها
فإنّ هاماتهم غمودها
كم مغلقات من حصون عزمه
مفتاحها وسيفه أقليدها

قــدودّت الفــرنــج لــو فــرّت نجــت
منــك ولكــن روعهــا مبيــدهــا
قهــرتها حتــى لــودّ حيهــا
مــن ذلــة لــو أنــه فقيــدهــا
أمــاتها رعبــك في حصــونها
كــأنها حصــونها لحودهــا
وإن مصر الــك تعنــو بعــدمــا
لسيفــك الصعــب عنــا صعيــدهــا
والملــة الغــراء خــال بــالها
عــال سنــاهــا بــك حــال جيــدهــا
مفترّة ثغــورهــا ممنــوعــة
ثغــورهــا محفــوظــة حــدودهــا
وإن بغــى جــالــوتها ضــلالــة
فــأنــت في إهــلاكــه داودهــا
يــا بــن قسيــم الــدولــة الملــك الــذي
خــرّت لــه مــن الملــوك صيــدهــا
دع العــدى بغيظهــا فــإنها
يــذيــب أكبــاد العــدى حقــودهــا
يــا دولــة نــوريــة أمــن الــورى
وخصبهــا وجــودهــا وجــودهــا
مــا مثــل الــدنيــا لمن يجمعهــا
بــالحرص إلاّ قــزة ودودهــا
أيــن الــذي يــرفضهــا عــن قــدرة
فــلا يشــوب زهــده زهيــدهــا
فــابــق لنــا يــا ملكــا بقــاؤه
في كــل عــام للــرعــايــا عيــدهــا
في نعمــة جــديــدة سعــودهــا
ودولــة سعيــدة جــدودهــا

وهي طـويلة، فرتبـه نورالديـن في ديوانـه منشئا لاستقبال سنـة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين .

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شـاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابـة الانشا وقعـد في بيته، كـذا ذكر العماد في الخريـدة، وقال : تـولى ديوان الانشـا بالشام سنين كثيرة وله مقـاصد حسنة في الكتب وهـو جيد السيرة جميل السريرة (٩٩) .

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبـد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الأسد والصلاح، ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لاتنكرن لسابح عثرت به
قدم وقد حمل الخضمّ الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه
فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكففته
عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر انه
في السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شامخا
أو يستطيع البرق جونا ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره
فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة ندرت له
إن الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرّها
لا كان ناظرها يسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الورى
في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فإذا صلاح الدين دام لأهله
لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيـــا شرف الـــديـــن إن الشتـــا
بكـــافـــاتـــه كـــف آفـــاقـــه
وكفـــك مـــن كـــرم كـــافهـــا
قـــد كفلـــت لي بكـــافـــاتـــه
وإنـــك مـــن عـــرفـــه شكـــرنـــا
غـــدا عـــاجـــزا عـــن مكـــافـــاتـــه

قال: فكتب إلي شرف الدين في جوابها
إذا مـــا الشتـــاء وأمطـــاره
عـــن الخير حـــابســـة رادعـــه
فكـــافـــاتـــه ألســـت أعطيتهـــا
وحـــوشيـــت مـــن كـــافـــه الـــرابعـــة
وكـــف المهـــابـــة والاحتشـــا
م لكفـــي عـــن بـــره مـــانعـــة
وهمة كـــل كـــريـــم النجـــا
ر بميســـور أحبـــابـــه قـــانعـــة
ونفسي في بســـط عـــذري إليـــ
ـــه جعلـــت الفـــداء لـــه طـــامعـــه
وشـــوقـــي إلى قـــربـــه زائد
ومعـــذرتي إن جفـــا واسعـــه

قال: فكتبت إليه في جوابها:
أيـــا مـــن لـــه همة في العلى
لـــذروتها أبـــدا فـــارعـــه
ومـــن كفـــه ديمـــة مـــاتـــزا
ل بـــالعـــرف هـــاميـــة هـــامعـــه
وللفضـــل في ســـوق أفضـــالـــه
بضـــائع نـــافقـــة نـــافعـــة
وهـــل كـــابـــن عصرون في عصرنـــا
إمـــام أدلتـــه قـــاطعـــة

فخير فوائده جمة
وبحر موارده واسعة

أيا شرف الدين شرفتني
بأهداء زائعة رائعة

أطعت أوامرك الساميا
ت وما برحت همتي طائعة

أرى كل جارحة لي تو
د لو أنها أذن سامعه

وأما الشتاء وكافاته
وكفك عن كافه الرابعة

فنفسي منزعة بالعفا
ف عنها وفي غيرها طامعه

وماذا تطيق إذا لم تكن
بميسور سيدنا قانعه

وهي أكثر من هذا

قال: وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه، ثم توجه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول:

بشرى الممالك فتح قلعة منبج
فليهن هذا النصر كل متوج

أعطيت هذا الفتح مفتاحا به
في الملك يفتح كل باب مرتج

وافى يبشر بالفتوح وراءه
فانهض إليها بالجيوش وعرج

أبشر فبيت القدس يتلو منبجا
ولمنبج كسواه كالانموذج

مــا أعجــزتــك الشهــب في أبــراجهــا
طلبــا فكيـــف خـــوارج في أبـــرج
ولَقَـــدْر مـــن يعصيــك أحقــر أن يــرى
أثـــر العبـــوس بـــوجهـــك المتبلـــج
لكـــن تهذب مـــن عصـــاك سيـــاســـة
في ضمنهـــا تقـــويـــم كـــل معـــوج
فـــانهد إلى البيـــت المقـــدّس غـــازيـــا
وعلى طـــرابلـــس ونـــابلـــس عـــج
قـــد سرت في الإســـلام أحســـن سيرة
مـــأثـــورة وسلكـــت أوضـــح منهـــج
وجميـــع مـــا استقـــريـــت مـــن سنـــن الهدى
جـــدّدت منـــه كـــل رســـم مبهـــج

قال العماد: وسار نـور الدين من منبج إلى قلعـة نجم وعبر الفرات إلى الرها، وكان بها ينال صاحب منبج، وهـو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله إليها مقطعـا وواليـاً، وأقـام نور الـدين بقلعـة الرهـا مدّة فمـدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي:

أدركـــت مـــن أمـــر الـــزمـــان المشتهـــى
وبلغـــت مـــن نيـــل الأمـــاني المنتهـــى
وبقيـــت في كنـــف الســـلامـــة آمنـــا
متكـــرمـــا بـــالطبـــع لا متكـــرهـــا
لا زلـــت نـــور الـــديـــن في فلـــك الهدى
ذا غـــرّة للعـــالمين بها البهـــا
يـــا محيـــي العـــدل الـــذي في ظلـــه
مـــن عـــدلـــه رعـــت الأســـود مـــع المهـــا
محمـــود المحمـــود مـــن أيـــامـــه
لبهـــائهـــا ضحـــك الـــزمـــان وقهقهـــا
مـــولى الـــورى مـــولى النـــدى معلي الهدى
مـــردي العـــدى مســـدي الجدى معطي المهـــا

آراؤه بصـــــــوابها مقـــــــرونـــــــة
وبمقتضـــاهـــا دائر فلـــك النهـــا
متلبـــس بحصـــافـــه وحصـــانـــه
متقـــدّس عـــن شـــوب مكـــر أو دهـــا
يـــا مـــن أطـــاع الله في خلـــواتـــه
متـــأوبـــا مـــن خـــوفـــه متـــأوهـــا
أبـــدا تقـــدّم في المعـــاش لـــوجهـــه
عمـــلا يبيـــض في المعـــاد الأوجهـــا
كـــل الأمـــور وهـــا وأمـــرك مبرم
مستحكـــم لا نقـــض فيـــه ولا وهـــا
مـــا صين عنـــك الصين لـــو حـــاولتهـــا
والمشرقـــان فكيـــف منبـــج والـــرهـــا
مـــا للملـــوك لـــدى ظهـــورك رونـــق
وإذا بـــدت شمـــس الضحى خفـــي السها
إن الملـــوك لهوا وإنـــك مـــن غـــدا
وبها لـــه والملـــك منـــه مـــالها
شرهـــت نفـــوسهـــم إلى دنيـــاهـــم
وأبـــى لنفســـك زهـــدهـــا أن تشرهـــا
مـــا نمـــت عـــن خير ولم يـــك نـــائما
مـــن لا يـــزال على الجميـــل منبهـــا
أخملـــت ذكـــر الجاهلين ولم تـــزل
ملكـــا يـــذكـــر العـــالمين منـــوّهـــا
ورأيـــت إرعـــاء الـــرعـــايـــا واجبـــا
تغنـــي فقيرا أو تجير مـــدلها
لـــرضـــاهـــم متحفظـــا ولحالهم
متفقـــدا ولـــدينهـــم متفقهـــا
وبما بـــه أمـــر الالـــه أمـــرتهم
مـــن طـــاعـــة ونهيتهـــم عما نهى

عـــن رحمة لصغيرهـــم لم تشتغـــل
عـــن رأفـــة لكبيرهـــم لـــن تشـــدهـــا
بـــاليـــأس عنـــدك أمـــل لم يمتحـــن
بـــالـــردّ دونـــك ســـائل لـــن يجبهـــا
أتعبـــت نفســـك كـــي تنـــال رفـــاهـــة
مـــن ليـــس يتعـــب لا يعيـــش مـــرفهـــا
فقـــت الملـــوك سماحـــة وحماســـة
حتـــى عـــدمنـــافيهـــم لـــك مشبهـــا
ولـــك الفخـــار على الجميـــع فـــدونهم
أصبحـــت عـــن كـــل العيـــوب منـــزهـــا
وأراك تحلـــم حين تصبـــح ســـاخطـــا
ويكـــاد غيرك ســـاخطـــا أن يسفهـــا

قلت : رحـم الله العماد فقد نظم أوصـاف نور الـدين الجليلة بـأحسن لفظ وأرقـه، وهذا البيـت الأخير مؤكد لما نقلنـاه في أول الكتاب مـن قول الحافظ أبي القـاسم رحمه الله في وصـف نور الـدين رحمه الله أنـه لم يسمع منه كلمه فحـش في رضاه ولافي ضجره، وقل مـن الملوك من له حـظ من هذه الأوصاف الفاضلة، والنعوت الكاملة.

قـال العماد: ثم عـاد نور الـديـن إلى حلب في شهـر رجب، وضربـت خيمتـه في رأس الميدان الأخضر، قـال: وكان مـولعا بضرب الكـرة، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفـره، ويركب صلاح الدين مبكـراً كل بكـره، وهو عـارف بآدابها في الخدمـة وشروطها المعتبره، قـال: وأقطعه في تلك السنـة ضيعتين، إحداهما من ضياع حلـب، والأخرى من ضياع كفر طاب، قال : وكتب إليه في طلب كنبوش:

أصبحـــت بغلتـــي تشكـــي مـــن العـــر
ى واسراجهـــا بـــــلا كنبـــوش
قلـــت كفـــي فخير يـــوميـــك عنـــدي
أن تفـــوزي بـــالتبـــن أو بـــالحشيـــش

وأفــــرحـــي ليلـــــة الشعير كما يفـــــر
ح قـــــوم بليلـــــــة المأشـــــــوش
لـــــو تبصرت حـــــالتـــــي لتصبر
ت فـــإيـــاك عنـــدهـــا أن تطيشي
أومـــامـــات في الشتـــاء مـــن البر
دومـــن فـــرط جـــوعـــه اكـــديشي
فيقـــي واسكنبـــي بجـــود صـــلاح الـــد
يـــن غـــرس الملـــوك ملـــك الجيـــوش
فهـــو يجلـــوك للعيـــون بكنبـــو
ش جـــديـــد مستحســـن منقـــوش
كـــم عـــدوّ مـــن بـــأســـه في عثـــار
وولي بجـــــــوده منعـــــــوش
والموالي على الأسرة والأعـــــــــــــ
داء تحت الهوان فـــــوق النعــــــوش

قال: وأقطع أسد الدين حمص وأعمالها، فسار إليها فسد ثغورها، وضبط أمورها ، وحمى جمهورها، وكان نور الدين قد جدد سورها، وحصن دورها وبلي الفرنج منه بالمغاور ، والمراوغ ذي البأس الدامغ، وسأله نور الدين في السلو عن حب مصر وقال: قد تعبت مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعه وشفعوا السؤال بالشفاعة وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة (١٠) قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمـــت في الملـــك آمـــراً ذا نفـــاذ
أســـد الـــديـــن شيركـــوه بـــن شـــاذي
يـــاكـــريـــم عـــن كـــل شر بطيـــا
وإلى الخير دائم الأغـــــــــــذاذ
ومـــلاذ الإســـلام أنـــت فـــلازلـــت
لأهـــل الإســـلام خير مـــلاذ

في نفـــوس الكفـــار رعيـــك قـــد حـــل
بصـــــدع الأكبـــــاد والأفـــــلاذ
لم تـــدع بـــالظبـــى رؤوســـا وأصنـــا
مـــــا مـــــن المشركين غير جـــذاذ
أنـــت مـــن نـــازل الـــدعيين في مصـــ
ـــر لنصر الإمـــام في بغـــداذ
وبـــلاد الإســـلام أنقـــذتها أنـــ
ـــت مـــن الشرك أيما انقـــاذ

فصل
في وفاة زين الدين

قال ابـن الأثير وغيره: في سنة ثلاث وستين سـار زين الديـن علي بن بكتكين نائب أتـابك قطب الـدين عن الموصـل إلى إربل وسلم جميـع ما كان ببلاده من البـلاد والقلاع إلى قطب الدين ما عدا إربـل، فإنها كانت له من أتابـك زنكي رحمه الله تعالى، فمن ذلك سنجار وحـران وقلعة عقر الحميدية وقـلاع الهكارية جميعها، وكـان نائبه بتكريـت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها فقال : إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولا بدّ له من نائب فيهـا، وأنا أكـون ذلـك النائب فليـس لـه مثلي فما أمكـن محاققته لأجـل مجاورة بغـداد، وأمـا شهـرزور فكان بها الأمير بـوزان فقـال مثلـه أيضـا، فأقـرت بيده، فكان في طاعـة قطب الدين، وسبـب فراق زين الديـن أنه أصابـه عمى وصمم وأقـام بإربـل إلى أن توفي بها في ذي الحجة مـن هذه السنـة، وكان قـد استولى عليـه الهرم، وضعفـت قوتـه، وكان خيراً عـادلاً حسن السيرة، جواداً محافظـاً على حسن العهد، وأداء الأمانـة قليل الغدر بـل عديمـه وكان إذا وعـد بشيء لابدّ لـه من أن يفعلـه وإن كان فعلـه خطيراً ، وكـان حالـه مـن أعجب الأحـوال بينما يبـدو منـه ما يـدل على سلامـة صدره وغفلتـه حتى يبدو منـه ما يدل على إفـراط الذكـاء وغلبة

الدهاء، بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له فأمر له بفرس فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيره من الأجناد فأحضره وذكر أنه نفق له دابةفأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرساً، فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيون مني كما أستحي أنا منكم، قد أحضر هذا عندي إثنا عشر رجلاً وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم أتظنون أنني لاأعرفه، بلى والله وإنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني.

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلف شيئاً بل أنفده جميعه في العطايا والإنعام على الناس، وكان يلبس الغليظ، ويشدّ على وسطه كل ما يحتاج إليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك، وكان أشجع الناس ميمون النقيبة لم تهزم له راية، وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته، وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً، وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها، وبلغني أنه مدحه الحيص بيص فلما أراد الإنشاد قال له : أنا لاأدري ماتقول لكن أعلم أنك تريد شيئاً، فأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرساً وخلعاً وثياباً يكون مجموع ذلك ألف دينار، قال: ومكارمه كثيرة، ولما توفى بإربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو المتولي لأمورها، وولي بعد زين الدين ولده مظفر الدين كو كبري مدّة، ثم فارقها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجرت أمور يطول ذكرها، ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذموه، فلم تطل أيامه وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أوّلها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكر ذلك، وهي من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار، وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه، وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين، ثم اتفق أن خرج صاحبها منها يوما يتصيد، فصاده بنو كلاب فأخذوه أسيراً وأوثقوه وحملوه إلى نور الدين فتقربوا به إليه وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين، فحبسه بحلب وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة، فلم يفعل فعدل به نور الدين إلى الشدّة والعنف وتهدّده فلم يفعل أيضاً، فسير إليها عسكراً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله، فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحة التي في عمل حلب والباب وبزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، فأخذ جميع ماشرط مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جداً ، لكنه لاحظ فيه، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها منتصف المحرم، ووصل كتابه إلى نورالدين بحلب، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين بن الداية، فولاها أخاه شمس الدين

علي، وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء (١٠١)

قال ابن الأثير، بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيما أحب إليك وأحسن مقاماً أسروج والشام أم القلعة؟قال: هذا أكثر مالا، والعز بالقلعة فارقناه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:

أسلم لبكر الفتوح مفترعا
ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك
غدا بعبء الخطوب مضطلعا
إن ضاق أمر فغير همته
لكشف ضيق الأمور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته
ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الـ
ـشرك وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ـملك وتحكي بزهدك اليسعا
حزت النقا والحياء والكرم المحـ
ـض وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساطاً وجدت من المكـ
ـس بعدل والقاسط إرتدعا
ولم تدع في ابتغاء مصلحة الدِّ
ين لنا باقياً ولن تدعا
وكل ما في الملوك مفترق
من المعالي لملكك اجتمعا
همتك الربط والمدارس تبنيـ
ـها ثوابا وتهدم البيعا

مـــازلـــت ذا فطنـــة مـــؤيـــدة
على غيـــــوب الأسرار مطلعـــــا
بيــأســك البيــض والطلى اصطحبـت
بعـــدلــك الـــذئب والطـــلا رتعـــا
كـــم صـــائدلم يقـــع لـــه قنـــص
في شرك وهـــو فيـــه قـــد وقعـــا
ومــــالـــك حين رمـــت قلعتــــه
غـــدا مطيعـــا الـــلأمـــر متبعـــا
عنـــا خشـــوعـــا الـــرب مملكـــة
لغير رب السماء مــــــا خشعـــــا
كـــان مقيما منهـــا على الفلـــك الـــــ
أعلى شهـــابـــا بنـــوره سطعـــا
لكنما الشهـــــب مـــــا تنير إذا
لاح عمـــود الصبـــاح فـــانصـــدعـــا
يـــدفعهـــا طـــائعـــا إليـــك وكـــم
عنهـــا إبـــاء بجهـــده دفعـــا
هـــي التـــي في علـــوهـــا زحـــل
كـــر على وردهـــا ومـــا كـــرعـــا
وهـــي التـــي قـــاربـــت عطـــارد في الـــ
ـــأفق فـــلاحـــا والفـــرقـــديـــن معـــا
كـــان منهـــا السهـــا إذا استرق السمـــ
ـــع أتـــاهـــا في خفيـــة ودعـــا
هضبـــة عـــز لـــولاك مـــا ارتقيـــت
وطـــود ملـــك لـــولاك مـــا فـــرعـــا
مـــا قبلـــت في ارتقـــاء ذروتها
مـــن ملـــك لا رقـــى ولا جـــذعـــا
عـــزت على المالـــك الشهيـــد واعــــ
ـــطتك قيـــاداً مـــا زال ممتنعـــا

للأب لو حل خطبها الغدا
محرما لابنه وما شرعبا

لازلت محمود في أمورك محمو
داًبثوب الاقبال مدرعا

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية، وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتم لمحمود كآل محمد
متصادقي الأفعال والأسماء

يتلو أبابكر على حسناته
عمر الممدح في سنا وسناء

ويليه عثمان المرجى للعلا
وعلي المأمول في اللأواء

وتقيل الحسن الممجد مجدهم
فهم ذوو الإحسان والنعماء

فرعت لمجد الدين أخوته الذرى
دون الورى في المجد والعلياء

من سابق كرما وشمس سياده
شرفا وبدر دجنة وبهاء

سرج الهدى سحب الندى شهب النهى
أسد الحروب ضراغم الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علي، وبدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين هو الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى.

فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدو، وقتل شاوراً وولي الوزارة مكانه، ثم مات فوليها صلاح الدين، وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردنا، ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده حافظاً لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل، ولا لأهلها منا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام، فتوجهوا إليها سائرين ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من أعداء شاور، وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مرى، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة و مكراً ودهاء يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدّم وأشاروا عليه بالمسير إليها،والإستيلاء عليها، فقال لهم : الرأي عندي أن لانقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيه لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج

وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لامانع لها ولا حافظ وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد، وانكشف لهم أمرها فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهراً ونهبوها ، وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس ملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولا، وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج . فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر ، ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية فشرع في تمحل الحيل وأرسل إلى ملك الأفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويؤخر البعض، واستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين، وقالوا نأخذ المال نقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولاغيره (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١٠٢) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وكان خليفة مصر العاضد

عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر، واقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير.

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً وإرغاما له واطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفراً، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبراً، ويقول إن لم تبادر ذهبت البلاد، وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجابين سراعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم في كل حين مالاً، ويطلب منهم إمهالًا ، ومازال يعطيهم ويستميلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله.

فصل
فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص، وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار لأنه كان قد

طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر، والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، فكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين برغش ، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : (وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم)(١٠٣)

وقال ابن الأثير : أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه.

حكي لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستحضرين أحضرني وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه تأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهز للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال : تجهز يا يوسف. قال : فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ، ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين: لابدّ من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما احتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضة أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلاً
إذا ما يوسف بالمال جادا

فتى للدين لم يبرح صلاحاً
وللأعداء لم يبرح فسادا

لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البلادا

إلى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءتكم مصر تهادى

عروس بعلها أسد هزبر
يصيد المعتدين ولن يصادا

ألا يا معشر الأجناد سيروا
وراء لوائه تلقوا رشادا

فما كل أمرىء صلى مع النا
س مأموماً كمن صلى فرادا

فلما سار صلاح الدين إلى مصر، عبر العرقلة على داره فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب

فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش، جوارقيسارية القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله، فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على ماسيأتي، وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين من قصيدة أوّلها:

(سلم على مصر لاربع بذي سلم)

يقول فيها:

الناصر الملك الموفي بذمته
ومن ندى كفه يغني عن الديم

ومن إذا جرد البيض الصوارم في الـ
ـهيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة في أنـ
ـتزاعه بشبا الهندية الخذم
ورد طاغية الأفرنج يحسب ما
رجاه من ملك مصر كان في الحلم
ولى وراحته صفر وقد ملئت
بعد الطماعة من يأس ومن ندم
يصعدون على ما فاتهم نفسا
لولا فح البحر أضحى الموج كالحمم
وفي السلامة لو لا جهلهم ظفر
لمن أراد نزال الأسد في الأجم
وهم أسود الشرى لكن أذلهم
ملك لديه الأسود الغلب كالغنم

وله من قصيدة أخرى:
أقمت عمود الدين حين أماله
لطاغي الفرنج الغتم طاغي بني سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم
خزايا عليهم خيبة الذل والردّ
أفدت بما قدمت ملكا مخلدا
وذكرا مدى الأيام يقرن بالحمد
وذكرك في الآفاق يسري كأنه الـ
ـصباح له نشر الألوّة والند

ولأبى الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرّي:
ولكم أشمت الروم أشأم بارق
أضحت مياه نفوسها من قطره
وافاك بحر دروعها عن مدّه
ومضى وقد حكمت ظباك بجزره

ولقيت مرّيا وطعم حياته
حلو فبدّله القتال بمرّه
فاعقد إليه الرأي في عذب القنا
واحلل بها عجلا معاقد كره
واطرده من وكر الشآم فإنه
قد طار منك بخافق من ذعره

فصل
في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين، ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلاغروراً)(١٠٤) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلنّ جميعاً، فقال : صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلاّ أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد

الديـن بذلـك فنهاهم فقـالوا: إنا ليـس لنا في البـلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكـر ذلك، واتفق أن أسد الدين سـار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعـي رضي الله عنه، وقصـد شاور عسكـره على عادتـه للإجتماع بـه، فلقيه صلاح الدين وعز الديـن جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلمـوه أن أسد الـدين في الـزيـارة، فقال: نمضي إليـه فسار وهما معـه قليـلاً، ثم سـاوروه وألقوه عـن فرسـه، فهرب أصحـابه، وأخـذ أسيراً، ولم يمكنهم قتلـه بغير أذن أسد الـدين فسجنوه في خيمـة وتوكلـوا بحفظه ، فعلـم أسـد الـديـن الحال، فعاد مسرعـاً ولم يمكنـه إلاّ إتمام مـا عملـوه، وأرسل العاضد لـدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسـد الدين يطلب منه رأس شـاور، ويحثه على قتلـه، وتابـع الرسـل بذلـك، فقتل شـاور في يومـه، وهو سـابع عشر ربيع الآخـر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخـل أسد الدين القاهـرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خـافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمـركم بنهب دار شـاور، فقصدها النـاس ينهبونها، فتفرّقوا عنه ، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابـن شدّاد : أقـام أسد الديـن بها يتردّد إليه شـاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ماخسروه مـن النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقـت مخاليب الأسـد في البلاد، وعلـم أن الفرنـج متى وجـدوا فرصـة أخذوا البـلاد، وأن تردّدهـم إليها في كل وقـت لايفيد، وأن شـاوراً يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وملاكها قـد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقـاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضـه إذا خـرج إليهم، وكـانـوا هـم يتردّدون إلى خدمتـه دون أسـد الدين، وهو يخرج في الأحيـان إلى أسد الدين يجتمع به، وكـان يركب على قاعدة وزارتهم بـالطبل والبوق والعلم، فلم يتجـاسر على قبضه منهم إلاّ السلطـان نفسه، يعنـى صلاح الـدين، وذلـك أنه لما سـار إليهم، تلقـاه راكبـاً، وسـار إلى جـانبـه وأخذ بتـلابيبـه وأمـر العسكـر أن أخـذوا على أصحابه، ففرّوا ونهبهم العسكر، وقبـض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة، وفي

الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخلع عليه، ولقى الإحسان، وتردّد شاور إلى أسد الدين وتودّد، وتجدّد بينهما من الوداد ماتأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة، فقال صلاح الدين:هذا أمر يطول ، ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لاسيما إذا راوغ وغادر، فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس، فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النوريه، وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا أ ن يرجعوا إلا بنجح السول، فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامه.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك، وكان ذلك عن أمر قد تقرّر فحرّكوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة، وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

كان ابن شاذي والصلاح وسيفه
عليّ لديه شبر وشبير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل
على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره
ولا زال فيها منكر ونكير

وقال أيضاً:

إن أمير المؤمنين الذي
مصر حماه وعليّ أبوه
نص على شاور فرعونها
ونص موساها على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليمني في كتاب الوزراء المصرية الذي صنفه حال شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية:فيها تكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته، وغضه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وبان غمره وثماده وجمره ورماده، ولم يجف من الانكاء لبده، ولا صفا من الاقذاء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عوضاً عن الراحة، وفي أوّل ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بلبيس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة ، فكسر الناس يوم التاج، وأسر أخوه صبح ، وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه، وتعقب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاق لواته ومن ضامها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم، ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر، وفي

أثناء هذه المدّة قبضه على الأثير ابن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله، واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأم النوائب الكبر، ووافق مجيء الغزّ قدوم الفرنج ناصرين للدولة، وتوجهوا من مصر في البرّ الشرقي تابعين للغز، ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الآمال وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ، فتجهز الكامل للمسير صحبة الأفرنج.

حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمة، وليس معنا أحد إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغرب إلى سليم وما وراء ها ، وقال شاور: لكن لاأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت، فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوي وصنيعة الملك جوهر وعز، وقد التزموا المال، وتفرّع على هذا الأصل مقام الغزّ بالجيزة ونوبة البابين، وحصار الاسكندرية، وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم، فما هو إلاّ أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لاتخطب إلاّ زواله وفوته ، ولا تريد إلاّ إنتقاله وموته، فكان من قدوم الفرنج إلى بلبيس ، وقتل من فيها، وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين ابن القسيم، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين، ومن معه من المسلمين، الذين قلت فيهم ، وقد ربط الافرنج بالطريق عليهم:

أخذتم على الافرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرّي

لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي، ومرّي هو اسم ملك الأفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له، قال: ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدّة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والأفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها، ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وختره، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان، فجاءه قاصداً لعيادته جاريا في خدمته على عادته، فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شرّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين فإنه أوّل من تولى القبض عليه، ومدّيده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وملك وخلع عليه الخلع وحنك، واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

- ٧٩٣٨ -

فصل
في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرّ في الأمر، ولم يبق له فيه منازع ولا مناو، وولى الأعمال من يثق إليه، واستبدّ بالولاية فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مقرّر لها وزمام الأمر والنهي مفوّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحسن تأتيه وسياسته.

قال العماد: وكتب لأسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرّته بخطه ، ولاشك أنه باملاء كتابه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوّة، واتخذه للفوز سبيلا:(و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) (١٠٥).

نسخة المنشور

من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد

الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضد، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما .

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين، الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة، طلب من القصر كاتب إنشاء فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم ابن البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالاسكندرية على باب السدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه، وزاحم به كتاب القصر فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتباً أرسل إليه، وظنّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه فنتخلص من مزاحمته لنا ، فكان من أمره ما كان واستمرّ في الدولة ولم يزدد في كل يوم الا تقدّما بصدقه ودينه، وحسن رأيه رحمه الله .

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أوّلها.

بالجد أدركت ما ادركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب

يـا شيركـوه بـن شـاذي الملـك دعـوة مـن
نـادى فعـرّف خير ابـن بخير أب
جـرى الملـوك ومـا حـازوا بـركضهـم
مـن المدى في العلى مـا حـزت بـالخبـب
تمل مـن ملـك مصر رتبـة قصرت
عنهـا الملـوك فطـالـت سـائر الـرتـب
فتحـت مصر وأرجـو أن تصير بها
ميسرا فتـح بيـت القـدس عـن كثـب
قـد أمكنـت أسـد الـديـن الفـريسة مـن
فتـح البـلاد فبـادر نحـوهـا وثـب
أنـت الـذي هـو فـرد مـن بسـالتـه
والـديـن مـن عـزمـه في جحفـل لجب
في حلـق ذي الشرك من عـدوى سطاك شجـا
والقلـب في شجـن والنفـس في شجـب
زارت بنـي الأصفـر البيـض التـي لقيت
حمر المنـايـا بها مـرفـوعـة الحجـب
وإنها نقـد مـن خلفهـا أسـد
أرى سـلامتهـا مـن أعجـب العجـب
لقـد رفعنـا إلى الـرحمن أيـدينـا
في شكـرنـا مـا بـه الاسـلام منـك حبـي
شكـا إليـك بنـو الاسـلام يتمهـم
فقمـت فيهـم مقـام الـوالـد الحدب
في كـل دار مـن الأفـرنـج نـادبـة
بها دهـاهـم فقـد بـاتـوا على نـدب
مـن شر شـاور انقـذت العبـاد فكـم
وكـم قضيـت لحزب الله مـن أرب
هـو الـذي أطمـع الأفـرنـج في بلـد الـ
ـإسلام حتـى سعـوا للقصـد والطلـب

وإن ذلك عند الله محتسب
في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
أذله الملك المنصور منتصرا
لما دعا الشرك هذا قد تعزز بي
وما غضبت لدين الله منتميا
إلا لنيل رضى الرحمن بالغضب
وأنت من وقعت في الكفر هيبته
وفي ذويه وقوع النار في الحطب
وحين سرت إلى الكفار فانهزموا
نصرت نصر رسول الله بالرعب
يا محيي الأمة الهادي بدعوته
للرشد كل غوي منهم وغبي
لما سعيت لوجه الله مرتقبا
ثوابه نلت عفواً كل مرتقب
أعدّت نقمة مصر نعمة فغدت
تقول كم نكت لله في النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها
عدلا وكنت لوزر غير مرتكب
ردّ الخلافة عباسية ودع الـ
ـدعي فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها
فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدّس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه

لما سمحت لأهل الشام بالخشب
عوضت مصر بما فيها من النشب

وإن بـذلـت لفتـح القـدس محتسبـا
لـلأجـر جـوزيـت أجـراً غير محتسـب
والأجـر في ذلـك عنـد الله مـرتقـب
فيما يثيـب عليـه خير مـرتقـب
والـذكـر بـالخير بين النـاس تكسبـه
خير مـن الفضـة البيضـاء والـذهـب

ولسـت تعـذر في تـرك الجهـاد وقـد
أصبحـت تملـك مـن مصر إلى حلـب
وصـاحـب الموصـل الفيحـاء ممتثـلا
لما تـريـد فبـادر فجـأة النـوب
فـأحـزم النـاس مـن قـوى عـزيمتـه
حتـى ينـال بها العـالي مـن الـرتـب
فـالجدّ والجدّ مقـرونـان في قـرن
والحزم في العـزم والإدراك بـالطلـب
فطهـر المسجـد الأقصـى وحـوزتـه
مـن النجـاسـات والأشراك والصلـب
عسـاك تظفـر في الـدنيـا بحسـن ثنـا
وفي القيـامـة تلقـى خير منقلـب (١٠٦)

المحتوى